الأستاذ الدكتور
توفيق أبو الرب (رحمه الله)

1984

الحكايات في أدب الجاحظ

"بحث حصل به صاحبه على درجة الماجستير بتقدير ممتاز من جامعة اليرموك سنة ١٩٨٤م."

تنبيه

(ISBN): 978-2-1872-4660-0

الدكتور توفيق أبو الرب

الحكاية في أدب الجاحظ

بحث حصل به صاحبه
على درجة الماجستير
بتقدير ممتاز من جامعة
اليرموك سنة ١٩٨٤م

فهرس المجلد ث

الصفحة

==================================

===============

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لم يحظ الجانب القصصي من أدب الجاحظ بدراسة شاملة متكاملة ، وانما انصبت الدراسات في الغالب على كتاب واحد بعينه من بين كتب الجاحظ ، التي تسهم في تكوين هذا الجانب ، ونقصد به كتاب البخلاء ، فقد عني به الدارسون المحدثون عناية بالغة ، ودارت حوله دراسات شتى ، منها ما تناوله بوجه عام ، مثل كتاب محمد المبارك " الجاحظ وفن القصص في كتاب البخلاء "

وكتاب فاروق سعد " مع البخلاء " ، ومنها ما عالج سمة بارزة في الحكايات كالسخرية نحو كتاب الدكتور محمد بركات أبي علي " سخرية الجاحظ من بخلائه " ، وبعضها حاول ان يتصرف في الحكايات ، ليُظهر الملامح القصصية فيها نحو كتاب علي الجنبلاطي وعبد المنعم قنديل " بخلاء الجاحظ في قصص " ، وبعضها حاول ان يقارن بين بخلاء الجاحظ وبخيل موليير ، نحو كتاب الدكتور محمد الصادق عفيفي " نموذج البخيل في الأدب العربي والأدب الفرنسي " .

أما المقالات التي نشرت في الصحف عنه ، والاحاديث التي خصصت له في الدراسات التي دارت حول أدب الجاحظ عامة ، فهي كثيرة جدا ، والغريب أنه يقابل هذه العناية الفائقة بحكايات كتاب البخلاء ، الاهمال شبه التام لحكايات الجاحظ في كتبه الاخرى ، فالباحث لا يكاد يعثر . على مقالة علمية واحدة تحاول ان تتناولها !

وأما كتاب عبد الله احمد باقازي " القصة في أدب الجاحظ " الذى ظهر مؤخرا * فان عنوانه يبدو غير دقيق شيئا ما ، لأن الباحث قد اعتمد فيه اعتمادا شبه كلي على حكايات كتاب البخلاء ايضا ، وعلى

---

* ظهر الكتاب بعد أن كنا قد مضينا شوطا في الاعداد لهذا البحث . ولم نطلع عليه ، الا بعد الانتهاء منه .

بضع حكايات من كتاب الحيوان لا تكاد تتجاوز الثماني ، وأما حكايات الجاحظ في كتبه الاخرى ككتاب البيان والتبيين والرسائل وغيرها فقد تجاهلها تجاهلا تاما ، وفضلا عن ذلك فان البحث يعاني من مزالق عده ، منها ما لا علاقة له بالحكاية عند الجاحظ ، نحو استهلاله بالحديث عن القصة القصيرة الحديثة في الغرب .

ولما كنت شغوفاً بأدب الجاحظ عامة ، وبالجانب القصصي منه خاصة ، فقد كنت – وما ازال – أدهش من اهتمام الدارسين بحكايات البخلاء وحدها ، على الرغم من ان حكايات الجاحظ الاخرى لا تقل مستوى منها ، بل تتميز منها بتنوع الشخصيات ، وتعدد الموضوعات التي تمثل مناحي مختلفة من الحياة .

وحين اخترت الحكاية في أدب الجاحظ موضوعا لهذه الرسالة ، كانت من أبرز الحوافز التي دعت الى ذلك الرغبة في أن ادرس الحكاية دراسة تشمل جهد الجاحظ القصصي كله ، على اختلاف مواطنه ومظانّه ، ولذلك فقد قمت أولاً بتدوين حكايات الجاحظ الموجودة في مختلف كتبه ورسائله الثابتة النسبة اليه ، كذلك قمت بنقل كل ما صادفت من حكايات مسندة اليه في الكتب القديمة الموثوقة ، ولا توجد في كتبه ورسائله المعروفة ، ثم عكفت بعد ذلك على ما جمعت من حكايات أتأملها ، وأردد النظر فيها طويلا ، للتعرف الى ملامحها ، وملاحظة اساليب بنائها وأوجه التشابه بينها .

ثم شرعت أدرسها ، وفق خطة موضوعة في عناية وتمهل ، ومنهج اجتهدت فيه ان يكون متكاملاً ، يتشرف الحكايات المدروسة جميعها في كل منحى من مناحي الدراسة ، وفي كل وجه من وجوهها الكثيرة !

أما الكتب القصصية المفقودة مثل : كتاب المعلمين واللصوص وحيل المكدين فقد بذلت جهدي في الاّ تغيب تماماً عن البحث ، فمثلت لها من بعض المصادر القديمة بحكايات وجدتها منسوبة الى الجاحظ ، ويتبدى روحه الفني واضحا فيها ،كما توحي شيئا ما بالمنحى القصصي الذى نحاه في هذه الكتب .

وقد جاء البحث في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمه ، أما التمهيد فقد حاولت ان اعرض فيه بايجاز شديد للحكاية في الادب العربي منذ العصر الجاهلي حتى ظهور الجاحظ .

وأما الفصل الأول فقد خصصته للحكاية في أدب الجاحظ ، فبينت المنحول من كتبه ، ثم تحدثت عن وضع الحكاية في كتبه ورسائله الثابتة النسبة اليه ، وعن دورها كما قصده الجاحظ ، وأبديت الملاحظات العامة عليها .

وأما الفصل الثاني فقد افردته للحديث عن الحكايات من حيث المضمون ، فصنفتها خمس مجموعات كبيرة .

وأما الفصل الثالث فقد خصصته للشكل الفني في الحكايات، فتحدثت عن ابرز ملامح الحكاية الجاحظية .

وأما الخاتمة فقد عرضت فيها لأهم النتائج التي خلصت اليها من خلال البحث . ثم أتبعت الخاتمة بقائمة المصادر والمراجع وفهرس .

وبعد .. فان هذا البحث مدين - دون شك - لعدد من الاساتذة الافاضل ويأتي في مقدمتهم مشرفه الدكتور ابراهيم السعافين الذى لم يأل جهدا في تقديم العون والنصح ، ولم يتوان عن توفير مراجع مهمه بعيده ، كذلك اخص بالشكر الاستاذ الدكتور هاشم ياغي ، والدكتور عفيف عبدالرحمن اللذين اشتركا في مناقشته وابديا بعض الملاحظات النافعة له .

جزاهم الله عني خير الجزاء ، ووفقنا جميعا لخدمة تراثنا الأدبي التليد ، انه ولي التوفيق .

تمهيد
الحكاية في الأدب العربي قبل الجاحظ

يفرق اكثر الدارسين المحدثين بين القصه والحكايه ، فالقصة في رأى بعضهم هي فن حديث ، عرفته اوروبا في القرن الثامن عشر ، له اصوله وقواعده المتعارف عليها ، التي يراعيها الكتاب في الغالب (١)، على حين أنّ الحكاية " ما هي الا سوق واقعه أو وقائع حقيقيه أو خياليه ، لا يلتزم فيهما الحاكي قواعد الفن الدقيقة بل يرسل الكلام ، كما يواتيه طبعه " (٢) ، ويضيف بعضهم الى هذا أنها غالبا ما تتضمن النوادر والخرافات والاساطير ، وتنتشر على افواه الناس " (٣) ، ومعنى ذلك ان ظهور الحكايه موغل في القدم ، يرجع الى اقدم العصور (٤).

ويرى بعض الباحثين أن الحكاية للانسانيه هي بمثابة المرآة الصقيلة التي تعكس الى حد ما مدى التقدم الفكرى ، ودرجة التطور الحضارى ، ولذلك يمايز بين الحكايات ، ويصنفها أنواعًا : فالحكايات الاسطوريه والخرافيه هي أسبق انواع الحكايات الى الظهور ، لأنها كما يقول فردريش دير لاين : تعود الى عصور بالغة في القدم (٥) ، ومن ثَم يرى سانت بيف أن فيها بقايا طقوس قديمه (٦) ، لأنها ترجع في بعض اجزائها الى العقيدة ، على حين يرد بعضها الآخر الى خيال القاص (٧) .

(١) د. محمود السمره ، في النقد الادبي ، ص ٧، الدار المتحدة للنشر، بيروت — ١٩٧٤.
في حين يرى بعضهم الآخر أن هذا القصص الاوروبي الحديث متأثر بالحكايات العربية القديمه ، انظر مناقشة ذلك في كتاب " تطور الروايه العربيه الحديثه في بلاد الشام للدكتور ابراهيم السعافين،ص ١٤— ١٨ ، وزارة الثقافه والاعلام — بغداد — ١٩٨٠ .

(٢) محمود تيمور ، دراسات في القصه والمسرح ، ص ٩٩ ، مكتبة الآداب ومطبعتها — القاهره (د. ت) .

(٣) د. عزيزه مريدن ، القصه والروايه ، ص ١٢ ، دار الفكر — دمشق — ١٩٨٠ .

(٤) أ . م فورستر ، اركان القصه ، ترجمة كمال عياد جاد ، دار الكرنك ، القاهره — ١٩٦٠ .

(٥) فردريش فون ديرلاين ، الحكايه الخرافيه ، ص ٥٦ ، ترجمة نبيله ابراهيم ، دار القلم — بيروت — ١٩٧٣ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٦٨ . (٧) المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

ومرحلة ظهور الحكايات الاسطوريه والخرافيه الأولى هي مرحلة الخوارق والاعاجيب ، وانبهار العقل البشرى البدائي ، ومن ثمّ "" يمكن اعتبارها مرحلة جنون ، كان على العقل البشرى ان يجتازها ، لينمو ويتفتح "" (١)، حتى إذا تقدم المجتمع البشري شيئاً ما ، ظهرت بعد ذلك الحكاية الشعبية ، وهي ذات طابع جاد ، وأبرز فرق بينها وبين الحكاية الخرافية "" أن الحكاية الشعبية تعبير موضوعي ، وأما الحكاية الخرافية فتعبير ذاتي "" (٢)، ثم ظهرت أخيرا — مع تقدم المجتمع البشري — الحكايه الهزليه ، ويلاحظ أنها تتناقض مع الحكاية الاسطورية أو الخرافية ، لأن عالم الحكاية الهزلية هو "" عالم منطقي ليس هو عالم السحر في الحكاية الخرافية ، ويرى بعضهم ان الحكاية الهزلية تتقدم لهذا السبب على الحكاية الخرافية حتى اليوم ، لانها تعيش في المنطق والعقل "" (٣) ، ولذلك يلاحظ ان الحكاية الهزلية ازدهرت في ابّان تألق حضارات بعض الشعوب ، كالحضارة الاغريقية مثلا ؛ "" فالاغريق كانوا مغرمين بالحكاية التي تتناول الاشخاص الذين يتميزون باحاسيسهم المرهفة ،وتفكيرهم الدقيق ، وقد ملأوها بالسخر "" (٤) .

نخلص مما تقدم الى أن ثمة فرقاً فنياً بين القصة والحكاية ، الذى يجعل اكثر الدارسين يميّز بينهما في اثناء التعبير ، وعند الحديث عن مكان ظهورهما وزمانه ، فيحدد ظهور القصة باوروبا وبالقرن الثامن ع ، في حين يعمّم بالنسبة لظهور الحكاية — فيرى ان المجتمعات البشرية عرفتها منذ اقدم الاز .

(١) ليلى حسن سعد الدين ، كليلة ودمنه في الادب العربي ، ص ١١١ .
(مكتبة الرساله — عمان (د . ت)) .

(٢) فردريش ڤير لاين ، الحكاية الخرافية ، ص ١٤٤ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٤٥ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٨٣ .

١ - الحكاية في العصر الجاهلي

لم يكن العرب القدامى يفرقون في كلامهم بين ألفاظ : قصة وحكاية وحديث ، فالقرآن الكريم مثلا - وهو الذى نزل بلغة العرب الشائعة . حين يشير الى ما ذكره من حكايات السابقين ، يسوّي بين كلمتي قصة وحديث ، كما هو واضح في قوله تعالى " لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثا يفترى " (١) والجاحظ في كتبه - وهي من اقدم الكتب التي وصلت الينا - يستعمل الالفاظ الثلاثة دون ان يشعرنا بفرق ما بينها (٢) كذلك يفعل ابن قتيبه في كتاب (عيون الاخبار) مثلا ، وابن الجوزى في (اخبار الحمقى والمغفلين) .

واذا كان للقدماء عذرهم في عدم التفريق بين الحكاية والقصة ، فاننا قد لا نجد عذراً لبعض الباحثين المحدثين حين يصر على تسمية حكاياتنا القديمة بالقصص (٣)، مما دفع الدكتور محمد غنيمي هلال الى القول : " لا بد أنه كانت للعرب حكايات يتلهّون بها ، ويسمرون ، ولو أننا عددنا مثل هذه الحكايات قصصا لكانت القصه أقدم صوره للأدب في العالم ، لأن كل الشعوب الفطرية تسمر على هذا النحو البدائي " (٤).

وفي القرآن الكريم ما يوحي بشيوع حكايات في العصر الجاهلي فاسم التفضيل " أحسن " في قوله تعالى : "نحن نقص عليك احسن القصص" (٥)، يوحي بأن ثمة حكايات حسنه كانت شائعة حين نزل الوحي ، ولكن القرآن قد جاء

---

(١) سورة يوسف ، آية : ١١١ .

(٢) انظر في ذلك البخلاء مثلا ص ٥٨ (تحقيق طه الحاجرى ، ط ٦ - دار المعارف ١٩٨١) .
والحيوان ، ج٢ ، ص ٢٩٩ (تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى الحلبي واولاده بمصر - القاهره) . (د . ت) .

(٣) مثل الدكتور علي عبد الحليم محمود ، في كتاب القصه العربيه في العصر الجاهلي ، (دار المعارف بمصر - القاهره ١٩٧٥) .

(٤) النقد الادبي العام ، ص ٥٢٣ . دار العوده - بيروت - ١٩٧٣ .

(٥) سورة يوسف آيه : ٣ .

بأحسن منها (وقوله تعالى مشيرا الى الحكايات التي وردت في القرآن: "إن هذا لهو القصص الحق" (١) ، يوحي بأن ثمة حكايات باطله كانت شائعه ، وكان الجاهليون يعتقدون بأنها حدثت حقا (واذا كان القرآن قد سرد في بعض سوره شيئاً من اخبار الامم الاخرى ، فان بعض الباحثين المحدثين يرى ان كثيراً من حكايات الأمم الاخرى كان قبل ذلك قد تسرب الى المجتمع الجاهلي، ولعل ممّا يعزّز هذا الرأى ما يلاحظ في كتبنا القديمة من اشارات الى ذلك، فابن الاثير مثلاً يخبر عن النضر بن الحارث أنه "كان ينظر في كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى ، وكان يقول : انما يأتيكم محمد بأساطير الأولين" (٢).

ويتفق الباحثون على أنه لم تصل الينا حكايات مدونه من العصر الجاهلي ، وان الحكايات المنسوبة الى العصر الجاهلي التي وصل الينا بعضها ، بدأت تأخذ سبيلها الى التدوين بعد حوالي قرنين من ظهور الاسلام ، حين اشتدت العناية بجمع الامثال وحكايات أيام العرب في القرنين الثاني والثالث .

أما حكايات أيام العرب فتشير المصادر القديمة الى أن اشهر من جمعها هو أبو عبيده (١١٠ - ٢٠٨ هـ) ، الذى يقول عنه ياقوت الحموى إنه "كان من أعلم الناس باللغة وبانساب العرب واخبارها ، وهو اول من صنّف غريب الحديث" (٣) ، ويرى بعض الدارسين المحدثين أن أبا عبيده بجمعه لأيام العرب "فتح الطريق لكثير من جامعي اخبار العرب ، كصاحب الاغاني ، الذى أفاد من كتابه أيام العرب" (٤) ، وتميل حكايات أيام العرب في الغالب الى المبالغة الشديدة ، في تصوير الوقائع العنيفة ، والبطولات الخارقة ، وذلك راجع الى أنه في اخبار هذه الايام لم يكن القاص يحفل بالدقة التاريخية ، كما يحفل بعنصر التشويق وتمجيد القبيلة (٥).

---

(١) سورة آل عمران ، آيه : ٦٢ .

(٢) الكامل في التاريخ ، ج٢ ، ص ٤٩ ، تصحيح الشيخ عبد الوهاب النجار - ادارة الطباعة المنيرية - القاهره ١٣٤٩ هـ .

(٣) معجم الادباء ، ج١٩ ، ص ١٥٤ ، دار احياء التراث العربي ، بيروت (د. ت).

(٤) مارون عبود ، ادب العرب ، ص ٢٤٦ ، الطبعه الثالثه ، دار الثقافه - بيروت ١٩٧٩ .

(٥) د. علي عبد الحليم محمود ، القصة العربية في العصر الجاهلي ، ص ٢٦ .

وأما الامثال وما يقترن بها من حكايات فقد مرّ جمعها بثلاث مراحل رئيسيه :

المرحلة الاولى - بدأت مبكره في زمن معاوية ، حين اتصل به الاخبارى عبيد بن شريه الجرهمي ، اذ يذكر ياقوت عنه بأنه وضع من الكتب كتاب الامثال (١) . ومن الاخباريين الذين جمعوا الامثال في هذه المرحلة ايضا ، صحاري العبدى (٢)، وعلاثة الكلابي الذى جمعها في أيام يزيد بن معاويه (٣) ، بيد أن جهود هؤلاء القصاص والأخباريين الرواد لم تصل الينا ، وان كان من المرجح أن من أتى بعدهم افاد منها (٤) .

وأما المرحلة الثانيه - فقد بدأت في القرن الثاني الهجرى ،،حين نشطت الحركة العلمية ، ومن ابرز من تصدى لجمع الامثال ، وما يقترن بها من حكايات : ابو عمر بن العلاء ، والمفضل الضبي ويونس بن حبيب وابو زيد الانصارى والاصمعي ، وأبو عبيده وابن الاعرابي (٥)، وبعض جهود هؤلاء العلماء في جمع الامثال والحكايات ما زال ينتظر العثور عليه أو التحقيق والنشر ، وبعضه قد عثر عليه مثل كتاب " امثال العرب " للمفضل الضبي الذى يذكره ابن النديم ضمن كتب الضبي حين يترجم له (٦).

و " تعد امثال الضبي أقدم مجموعه وصلتنا من الامثال ، وهي لذلك أقدم صوره لدينا من المثل الجاهلي المقترن بالحكايه " (٧) .

وأما المرحلة الثالثه - فهي على الارجح بدأت في القرن الرابع الهجرى ، ثم استمرت بعد ذلك ، ومن اشهر كتب الامثال في هذه المرحلة كتاب " الدرّه الفاخرة في الامثال السائره " لحمزة الاصبهاني (ت ٣٥١ هـ) و " جمهرة الامثال " لأبي هلال العسكرى (ت ٣٩٥ هـ) و " الوسيط في الامثال " للواحدى (ت ٤٦٨ هـ) و " مجمع الامثال " للميداني (ت ٥١٨ هـ) و " المستقصى في امثال العرب " ، لأبي القاسم الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) .

---

(١) معجم الادباء ، ج١٢ ص ٧٨ . (٢) ابن النديم ، الفهرست ، ج١ ، ص ٧٥ ، تحقيق رضا تجدد - طهران - ١٩٧١ .

(٣) د. محمد زغلول سلام ، دراسات في القصه العربيه الحديثه ، ص ٦٣ ، منشأة المعارف - الاسكندريه (د . ت) .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٦٣ . (٥) احمد عبد الرحيم احمد ، الامثال العربيه ، ص ١٢٧ مجلة العربي الكويتيه ، عدد (١٩١) اكتوبر ١٩٧٤ . (٦) الفهرست ج١ ص ٧٥ تحقيق رضا - تجدد . (٧) د. احسان عباس ، مقدمة كتاب امثال العرب للمفضل الضبي ص ٥ ، دار الرائد العربي - بيروت ١٩٨١ .

والظاهره الغالبة على كتب هذه المرحلة ، التي حقق ونشر الكثير منها - كما هي غالبة على كتاب المفضل الضبي ايضا - أن المثل فيها يقترن في الغالب بحكاية قصيرة يكون هو مُجْتَزَأً منها (١) .

وثمة ملاحظتان رئيستان على حكايات أيام العرب والامثال المنسوبة الى العصر الجاهلي :

الاولى - اننا حين نتمعن في هذه الحكايات عامة ، نشعر بغلبة الاسلوب الاخباري فيها ، ولذلك فهي كما يقول الدكتور غنيمي هلال بحق "اذا كانت لها دلالة شعبية ، فليست لها قيمة فنية" (٢) .

واما الملاحظة الثانية فهي أن هذه الحكايات المنسوبة الى العصر الجاهلي - لا نسلّم بأنها جاهلية حقاً ، او انها خالصة النسبة الى الجاهلية وذلك لسببين : الاول - ان بعض هذه الحكايات منحولة على الارجح يساعدنا في هذا الترجيح ان المرحلة الثانيه من جمع الامثال والحكايات شاع فيها النحل، حتى انه لم يسلم من ذلك شعر العصر الجاهلي (٣)، فما بالنا بنثره ؟! كذلك يساعدنا مانلاحظه على بعض الحكايات من اضطراب وتناقض ظاهرين ، الأمر الذى دعا الدكتور احسان عباس مثلا الى موافقة الدكتور عبد المجيد عابدين في أن كثيرا من الحكايات المقترنة بالامثال المفردة هو ملفق ومنحول ، لأن طائفة كبيرة من هذه الامثال كانت هي الاصل ، ثم لفّقت لها الحكايات بعد ذلك لشرحها وتفسيرها (٤) .

وأما السبب الثاني الذى يجعلنا نرجح ان بعض الحكايات غير خالصة النسبة الى الجاهلية ، فهو أنه إنْ كان لا يستبعد ان ثمة حكايات جاهلية الاصل

---

(١) انظر رأى احسان عباس في كيفية اجتزاء المثل من الحكايه ، مقدمة امثال العرب للمفضل الضبي (٤٠ - ٤١).

(٢) النقد الادبي العام ، ص ٥٢٥ .

(٣) انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، ص ٤٧ ، تحقيق محمود شاكر ، مطبعة المدني - القاهره . (د. ت) .

(٤) انظر مناقشة الدكتور احسان عباس لرأى الدكتور عبد المجيد عابدين في مقدمته لامثال العرب للمفضل الضبي ، ص ٤٠ .

اخذت سبيلها حقاً الى التدوين ، فإننا نظن أن هذه الحكايات القليلة اصابها قَدْر ما من التغيير حذفاً أو زيادة ، أو امتزاجاً بغيرها من الحكايات وذلك

في اثناء انتقالها شفاها عبر الاجيال خلال قرنين من الزمان ، وهو ما أومأ اليه الجاحظ اذ اشار الى جهود اشهر الأخباريين في عصره في هذا المجال فقال : " لقد تتبع ابو عبيده النحوى وأبو الحسن المدائني وهشام الكلبي ، والهيثم بن عدى أخباراً اختلفت ، وأحاديث تقطعت ، فلم يدركوا الا قليلاً من كثير ، وممزوجاً من خالص " (١) .

---

(١) البيان والتبيين ، ج٣ ، ص ٣٦٦ .
تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهره - ١٩٤٨ .

٢ - الحكايـــة في صـدر الاســلام

حين نزل الوحي على النبي (ص)، واخذ يدعو الى الاسلام، كان خلال توجهه بالدعوه الى الناس، يتلو عليهم احيانا بعض ما تنزّل عليه من سور كريمة، يضرب الله فيها الامثال للناس، من اجل العبرة والاتعاظ، وكانت هذه الامثال في الغالب من حكايات الأمم السابقة، وقصص الانبياء[1]، وحين نتأمل القصص القرآني، كقصة يوسف وسليمان وملكة سبأ والخضر، وغيرها نلحظ أنه على درجة من الفنية والابداع، لأن "ابداع الفن في القصة القرآنية على ايجازها - يبدو جليا في وحدة موضوعها، وطريقة عرضها للاحداث في مشاهد حيه واسلوب ادارتها للحوار بما يصور المعاني الذهنيه، وينم عن الحالات النفسيه وحسن اختيارها للموقف المثير، لتوجيه القلوب للعبرة" [2] ومن ثم فقد كانت تفعل فعلها في النفوس، حين كانت تصغي اليها الاسماع، حتى كانت تدعو النضر بن الحارث بن كلده الى محاولة صد المشركين عن سماعها، [3] مخافة ان يدخلوا في الاسلام متأثرين بها، فالقرآن "يتناول القصة بريشة التصوير المبدعه التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها، فتستحيل القصة حادثاً يقع، ومشهداً يجرى، لا قصة تروى، ولا حادثاً قد مضى" [4].

وتأثير القصة القرآنية لم يكن يكمن في انها جديدة على المجتمع الجاهلي "فقد تكون ذائعة عند العرب، معروفة في اوساطهم، كقصة اصحاب الفيل، ولكن روعتها في الاضواء التي تسلطها على وقائعها، وفي الروح الجديدة التي اقتحمت بها القلوب" [5]، ولعل من ابرز الامثلة على

---

(١) انظر كتاب محمود زهران، قصص من القرآن، ص ٤٩ - مكتبة غريب - القاهره ١٩٧٦.
(٢) د. التهامي نقّره، سيكولوجية القصه في القرآن، ص ٤٨٨، الشركة التونسيه للتوزيع - تونس (د. ت).
(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٤٩.
(٤) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ١٥٤، ط ٤ - دار الشروق بيروت ١٩٧٨.
(٥) التهامي نقره، سيكولوجية القصه في القرآن، ص ٤٩١.

فنية القصص القرآني قصة النبي يوسف (١) .

ويرى توفيق الحكيم أن القرآن الكريم أتى بجديد على الصعيد القصصي ، لكنه ينكر أن يكون الادب العربي حاول ان يتأثر ذلك أو يستوحيه (٢) !
وهذا الانكار لا يثبت أمام التحقيق العلمي ، لأن القصص القرآني حرك وحي الادب العربي والاسلامي ايضا ، على مدى قرون عده (٣).

وآية ذلك أنه ما ان أخذ المسلمون يستمعون الى القصص القرآني ، ويرون النبي يحدث القصص ، ولا يرى بأساً في الاستماع اليه ، ما دام هو لا يتعارض مع تعاليم الدين الحنيف ـ حتى رأينا القصّاص يظهرون مثل : تميم الداري الذي يقال : انه روى للنبي قصة الجساسة والدجال (٤)، وعبد الله بن سلام ووهب بن منبه (٥) وكعب الاحبار (٦) ، فكانت القصص التي يحدثها هؤلاء القصاص تدور حول القصص القرآني أو تنطلق من خلاله ، ولذلك فقد كانوا "يتحدثون الى الناس في مساجد الامصار ، فيذكرون لهم قديم العرب والعجم وما يتصل بالنبوات ، ويمضون معهم في تفسير القرآن والحديث" (٧)، فصادف قصصهم اقبالا من عامة الناس ، ونما في سرعة ، ثم أخذ يتخذ لنفسه صبغة رسمية ، حتى ان بعض القضاة في الولايات الاسلامية كان يعيّن قصاصاً في الوقت نفسه ، ويقال "ان أول من قص بمصر سليمان بن عتر النجيبي في سنة ٣٨ هـ ، وجمع له القضاء الى القصص" (٨) والقصاص في هذه الحقبة ،

---

(١) قام التهامي نقره بتحليل قصة يوسف في كتابه السابق تحليلاً فنياً مفصلاً، انظر ص ٥٠٩ . وانظر كذلك كتاب القصه والروايه للدكتوره عزيزه مريدن ، ص ١٥ .
(٢) فن الادب ، ص ٢٨ – مكتبة الاداب ومطبعتها بالجماميز – القاهره ١٩٥٢.
(٣) انظر رأى الدكتور عبد السلام كفافي في اثر قصة يوسف مثلا في اعمال الشاعرين الفارسين الفردوسي والجامي . والتركيين حمدى وابن كمال،ص ٣٦٥– ٤٠٤ (في الادب المقارن ، دار النهضة العربية – بيروت ١٩٧٢).
(٤) احمد امين ، فجر الاسلام ، ص ١٥٩ (ج١ ، الطبعة العاشره – دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٩) .
(٥) انظر معجم الادباء لياقوت الحموى ، ج١٣ ، ص ٢٥٩ حيث عرض لقصصه وصدقه .
(٦) انظر فجر الاسلام لأحمد امين ، ج١ ، ص ١٦٠– ١٦١ حيث عرض لاثره في ابن عباس وابي هريره .
(٧) د. طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، ص ١٤٩ ، ط ١٠ – دار المعارف بمصر – القاهره ١٩٦٩ . (٨) احمد امين ، فجر الاسلام ، ج١ ، ص ١٦٠ .

- اذا ما استثنينا كعب الاحبار - (١) كانوا في البداية يتحرون الصدق، ويقصدون الى الترغيب والترهيب في قصصهم ، ولكن سرعان ما فشت بينهم الاكاذيب، حتى "رووا أن علي بن ابي طالب طردهم من المساجد ، واستثنى الحسن البصرى ،لتحريه الصدق في قوله ".. (٢) . وهكذا يكون للقصص القرآني فضل في ظهور القصاص واتاحة الفرصة أمام العامه لسماع القصص بشكل منظم ، ثم تهيئة متنفس ما لخيال القصاص الموهوبين للاستحياء والتوليد ، وان كنا لا ندرى مدى ذلك، أو مستواه الفني ، لأنه لم يصل الينا من هذه الحقبة أى كتاب ، مع أن ياقوتا ينقل عن ابن قتيبه أن وهب بن منبه ، ".. صنف كتاب القدر ثم ندم على تصنيفه ".. (٣) ، وقد لاحظ احمد امين حين تأمل ما تسرب من قصص هذه الحقبة في كتب التفسير ، ان طبيعة هذا القصص خرافية . لأنه ".. أدخل على المسلمين كثيرا من اساطير الامم الاخرى ، كاليهوديه والنصرانيه ، كما كان باباً دخل منه على الحديث كذب كثير ، وافسد التاريخ بما تسرب منه من حكاية وقائع وحوادث مزيفه ".. (٤) .

---

(١) انظر ما ذكره احمد امين عن تحرج الثقات كابن قتيبه وابن جرير الطبرى والنووى من الرواية عنه ، وانه مصدر الاسرائليات في تفسير ابن عباس ، (فجر الاسلام ، ج١ ، ص١٦٠ - ١٦١) .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٣) معجم البلدان ، ج١٩ ، ص ٢٥٩ .

(٤) فجر الاسلام ، ج١ ، ص ١٦٠ .

٣ - الحكايــة في العصـر الأمــوى

استمر القصاص في العصر الاموى يلاقون اقبالا من عامة الناس ، مما نبّه الحكام الى خطرهم ، وشده تأثيرهم ، فاصطنعوهم للدعايه ، ويصور طه حسين ذلك بقوله : "كان الناس كلفين بهؤلاء القصاص ، وما اسرع ما فطن الخلفاء والامراء لقيمة هذه الاداة الجديدة ، فاصطنعوها ، وسيطروا عليها ، واستغلوها استغلالاً شديداً ، واصبح القصاص اداة سياسيه كالشعر"..(١) ولم يقتصر امر استغلال القصاص ، على الخلفاء والامراء فقط ، بل استغلتهم ايضا الاحزاب السياسيه المختلفه ،(٢) ومن اشهر القصاص في هذه الفتره صحاري العبدي وعبيد بن شريه وطاوس بن كيسان التابعي ، وعلاثة الكلابي والحسن البصري .

والقصص في هذه الحقبة "كان يستمد قوته وثروته من مصادر مختلفه أهمها أربعه :

الاول - مصدر عربي هو القرآن .

والثاني - مصدر يهودى،نصراني وهو ما كان يأخذه القصاص من أهل الكتاب من اخبار الانبياء .

والثالث - مصدر فارسي ، وهو هذا الذى كان يستقيه القصاص في العراق خاصة من الفرس ، مما يتصل باخبارهم واساطيرهم واخبار الهند واساطيرها .

والرابع - مصدر مختلط ، هو هذا الذى يمثل نفسية العامة غير العربيه ، من أهل العراق والجزيره والشام من الانباط ، والسريان ، ومن اليهم من هؤلاء الاخلاط ، الذين كانوا منبثين في هذه الاقطار ، والذين لم تكن لهم سياده ، ولا وجود سياسي ظاهر".. (٣) .

غير ان مجال الحكاية في هذا العصر لم يقتصر على عمل القصاص في المساجد ، وانما يبدو ايضا من خلال مظهرين اثنين آخرين : الاول - من خلال الجهود الرائده التي قام بها بعض القصاص والأخباريين من امثال صحارى العبدى

---

(١) د. طه حسين في الادب الجاهلي ، ص ١٥٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٠ . (٣) المرجع نفسه ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

وعبيد بن شريه وعلاثة الكلابي ، لجمع الامثال وما يقترن بها من حكايات، والثاني - من خلال استيحاء ما كان يشيع من اخبار الحب العذرى في الصحراء، كحكايات عشق المجنون لليلى ، وقيس بن ذريح للبنى وجميل لبثينه ، "ويلاحظ ان هذه القصص الثلاث قد استقت من ينبوع واحد هو ينبوع الباديه ، وعالجت موضوعاً واحداً هو الحب العذرى ، فبطلها دائما بدوى يعيش عيشة الفطرة، ويتحلى بصفات طيبه ، منها : الكرم ، والشمم والعفة والشهامه" (١).

وبعض حكايات العشق له نصيب من الحقيقة التاريخيه كحكاية جميل وبثينه ، ولكن القصاص والأخباريين تزيّدوا فيه ، على حين ان بعضه الآخر يختلف فيه الدارسون المحدثون ، فيرى بعضهم انه محض اختراع من القصاص كحكاية المجنون وليلى (٢) ، ومهما يكن الأمر فالدارس لا يستطيع ان يتبين الآن المستوى القصصي الذى بلغته الحكاية في العصر الاموى ، لانه لم يصل أي كتاب من هذه الحقبة ، وان كان طه حسين يرى ان عمل القُصّاص في هذه الحقبة تأثر بشيء آخر غير السياسة والدين ، فهو تأثر "روح الشعب الذى كان يتحدث اليه ، ومن هنا عني عناية شديده بالاساطير والمعجزات" (٣) .

---

(١) محمود تيمور ، دراسات في القصه والمسرح ، ص ٣٠ .

(٢) انظر كتاب رحلة الشعر من الامويه الى العباسيه ، ص ١٩١ . للدكتور مصطفى الشكعه ، دار النهضه العربيه - بيروت ١٩٧١ .

(٣) د. طه حسين ، في الادب الجاهلي ، ص ١٥٠ .

٤ ـ الحكاية في صدر العصر العباسي

شهد العراق في صدر الدولة العباسية حركة علمية وادبية كبيرة ، ما لبثت أن امتدت الى مختلف الامصار الاسلامية [(١)] ، أما القُصّاص فإنهم ظلوا يلاقون شغفا زائدا من عامة الناس في هذه الحقبة ايضا . ولذلك ازدهر القصص في صدر العصر العباسي "، واختلفت الوانه ، وعمرت به كتب النوادر والاسمار والحوادث والخرافات ". [(٢)] ، كذلك نشط الأَخْباريون في هذه الحقبة ، والحق ان الدارس يستطيع أن يرصد مظاهر ازدهار الحكاية في هذه الحقبة من خلال مصادر رئيسية ثلاثة : الاول ـ القصاص والأَخباريون الذين ظلت حلقاتهم أو مجالسهم تلاقي الاقبال المتزايد من عامة الناس في المساجد وفي افنية الدور [(٣)] .

أما القُصّاص فعلى الرغم من أنه لم يبق من اخبارهم الا القليل [(٤)] فإنّ الجاحظ في بعض كتبه رسم صورة واقعية لهم بقسميهم : الجاهل المستهتر [(٥)] والوقور المؤهل [(٦)] .

وأما الأَخباريون فقد كانت طبيعة عملهم تختلف قليلا عن طبيعة عمل القصاص في المساجد ، اذ انهم كانوا يروون الحكايات والاخبار والنوادر [(٧)] ، ولذلك كان مجالهم الأرحب المجالس ، وما كان يحكيه الاخباريون كان في الغالب "، وليد الخيال ، واختراع الوهم ، ولم يرتفع الى درجة التاريخ ، فتفحص وقائعه ، وتمتحن احداثه ، وتضبط رواياته ،

---

(١) انظر كتاب الدكتور احمد زكي كمال ، الحياة الادبية في البصره الى نهاية القرن الثاني الهجري ، ص ٩٦ ـ ٩٧ ، (دار المعارف بمصر ـ القاهره ـ ١٩٧١) . (٢) د. محمد زغلول سلام ، دراسات في القصه العربيه الحديثه ، ص ٦٥

(٣) د. طه الحاجري ، الجاحظ حياته وآثاره ، ص ١١٤ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١١٤ . (٥) انظر الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٤ ـ ٢٥ .

(٦) انظر البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٣٦٧ ، تحقيق عبد السلام هارون .

(٧) انظر تعريف السمعاني للاخباري في كتابه الانساب ، ج١ ، ص ١٥١ . تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ، ط ٢ ، الناشر محمد امين دمج ـ بيروت ١٩٨٠ .

بل كان مزيجاً من هذا أو ذاك ، مزج فيه الواقع بالخيال ، والحقائق بالاوهام ، ويروى صاحبه خبراً صحيحاً ، ويمزجها باخبار مخترعه ، ويرويها كلها على أنها وقائع ثابته ، واحداث صادقه ".. (١) .

ومن أشهر الأخباريين في هذه الفترة ابو بكر بن عياش والزبير ابن بكار والهيثم بن عدى .

وأما المصدر الثاني للحكاية في هذه الحقبة فهم الرواة ، ومن اشهرهم الاصمعي وابو عبيده والمفضل الضبي وابن الاعرابي ، ففضلا عن جهودهم التي اشرنا اليها سابقاً في جمع الامثال وما يقترن بها من حكايات ، كان هؤلاء يروون احيانا الحكايات الطريفة ، المستوحاة من عصرهم أو العصور السابقة ، فالاصمعي مثلا - كما يروى ابن خلكان - كان يفد على الرشيد ويحكي له الحكايات المسلية (٢) ، وقد صور الجاحظ باحدى حكايات البخلاء : كيف انتهز جعفر بن يحي مروره اتفاقاً بباب الاصمعي ، فعرّج عليه ليسمع منه الحكايات المضحكة ، وقد دفع الى خادمه بكيس فيه الف دينار ، ليعطيه له حين يراه يضحك (٣) ، ومن الكتب التي وضعها الاصمعي وتتضمن الحكايات كتاب الامثال ، وكتاب نوادر الاعراب ".. (٤) ،

وأما ابو عبيده فقد شهد له بعض الثقات مثل المبرد وابن قتيبه بالتفوق على اقرانه في معرفة الانساب والاخبار (٥) ، ويلاحظ ان الجاحظ في كتاب " الحيوان " وابن قتيبه في كتاب "تأويل مختلف الحديث " يرويان حكايات مسنده اليه (٦) ، كذلك من الرواة الذين عنوا بالحكايات في هذه الحقبة المفضل الضبي ، وابن الاعرابي الذى يذكر ابن النديم أن له كتاباً بعنوان " تنسيق الامثال" (٧) ، ويلاحظ ان الجاحظ يسند اليه كثيرا من الحكايات

---

(١) احمد امين ،ضحى الاسلام ،ج٢ ص٣٥٦ ،ط ١٠ ، دار الكتاب العربي بيروت -(د.ت).

(٢) وفيات الاعيان ، ج٣ ، ص ١٧١ ، تحقيق احسان عباس .

(٣) انظر الحكايه في البخلاء ، ص ٢٠٥ ، تحقيق الحاجرى .

(٤) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج٣ ، ص ١٧٦ ، تحقيق احسان عباس .

(٥) انظر معجم الادباء لياقوت الحموى ، ج١٩ ، ص ١٦١ .

(٦) انظر الحيوان ، ج٢ ، ص ١٢٢ ، وتأويل مختلف الحديث ، ص ١٦٦ . (صححه وضبطه محمد زهرى النجار - دار الجيل - بيروت ١٩٧٣).

(٧) ابن النديم ، الفهرست ، ج١ ، ص ٧٦ . تحقيق رضا تجدد .

الجنسيـــــــــــــه (١) .

وأما المصـــدر الثالث من مصادر الحكايـــة في هـذه الحقبـــة فهـــو الترجمة الادبية ثم التأليف الادبـــي ، فمن خلال الترجمـة الادبية التى ازدهـرت تسربت الى الادب العربـي حكايات فارسيـــه (٢) ، وحكايات واساطير هنديه (٣) ، وابرز الجهود في هذا المجـال جهد ابن المقفـع (١٠٦ - ١٤٢ هـ) في كتـــاب " كليلـــه ودمنـــــه " ، الذى لاقـت حكاياتـــه استحساناً من عامة النـــاس ابّـان ظهـــوره (٤) ، وقد كان الرأى الغالـب في السابق أن الكتـاب كلـــه أصلـه هندى ، وأن ابن المقفـــع ترجم حكاياتـــه عن الفارسيـــه . ولكـــن بعض الباحثـــين المحدثين لم يسلّـم بهذا ، وشك فيـــه (٥) ، وانتهـــى بـــه البحث الى ان قسماً من حكايـــات الكتـاب هي من تأليـف ابن المقفـع نفسـه ، وان " ابن المقفـــع احتذى في الكتـــاب القصص الهندى ، واورد بعضه حريصاً علـى الا يضمنه شيئا يعارض العقيـدة الاسلاميـــة " (٦) ، ولعل مما يرجح ذلـــك أننا حين نتأمـل المقدمـــه التي كتبها ابن المقفـع تحت عنـوان " غرض الكتاب " ؛ نلاحظ انه فيها يورد الحكايات التعليمية بين حين وحين (٧) ، كما ان ابن النديم يعدّه من اوائل من كانوا يولدون الحكايات ، اذ يقول : " وكان قبل ذلـــك ممن يعمل الاسمار والخرافات على السنـة النـاس والطير والبهائـم جماعـــــة منهـم عبد الله بن المقفـــع " (٨) ، ولعل السبب الذى دفع ابن المقفـــع الى عدم المجاهرة بما وضع من الحكايات في الكتـاب - فضلا عن الخشية السياسية - هو أن تأليـف الحكاية بوصفه فناً ادبياً ابداعياً محضاً لم يكن قد تجرأ علـــى اظهاره أحد بعد ، ولذا كان تأليف الحكايات يتم في الغالـب من خلال نحلهـــا الجاهليين أو من خلال تلفيـــق الاسانيـــد لها (٩) ، او الادعـاء بأنها سمعـــت

---

(١) انظر مثال ذلك الحيـــوان ، ج٦ ، ص ٤٥٢ .

(٢) انظـر ، القصه في الادب الفـارسي للدكتور امين عبد المجيد بدوى ، ص ٦١ .

(٣) انظـر ، الحياة الادبية في البصره الى نهاية القرن الثاني الهجرى ، للدكتـور احمد كمال زكـي ، ص ١١٦ .

(٤) انظـر كتاب كليله ودمنه في الادب العربي لليلى حسن سعد الدين ، ص ١١٠.

(٥) انظر في ذلك كتـاب ابن المقفع للدكتور عبد اللطيف حمزه ، ص ١٩١ (ملـتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي - (بلا مكان أو تاريـــخ) .

(٦) د. احمد كمال زكي ، الحياه الادبيه في البصره الى نهاية القرن الثانـــي الهجـــرى ، ص ١١٦ . (٧) انظر كتـاب كليله ودمنه ، الصفحات ٣٣- ٣٤ ، (دار العوده - بيروت) (د.ت). (٨) ابن النديم ، الفهرست ، ج٨ ، ص ٣٦٤ ، تحقيـــق رضا تجدد . (٩) انظر القول في البغال للجاحظ ، ص ٢٥- ٢٦ ، تحقيـــق شارل بلا - مكتبة مصطفى البابي الحلبي - القاهره ١٩٥٥ .

من الجن – على نحو ما كان الخزرجي صاحب كتاب " المحتال واسما " يفعل[١]، أو عن طريق تركها تشيع بكتب دون ذكر اسماء من ألفها [٢].

ومهما يكن الأمر فقد كان لابن المقفع أثره القوى في غيره من الادباء ، حتى ان الدكتور احمد كمال زكي يعده رأس مدرسه ادبيه بصريه ، من ابرز أعلامها سهل بن هارون وابو الحسن المدائني [٣].

أما ابو الحسن المدائني (١٣٥ – ٢٢٥ هـ) فكانوا يقرنونه بأبي عبيده ، على نحو ما كان يقول احمد بن يحي النحوى :

« من اراد اخبار الجاهلية فعليه بكتب ابي عبيده ، ومن اراد اخبار الاسلام فعليه بكتب المدائني » [٤] ، وقد أورد ابن النديم في الفهرست كتبا كثيرة له [٥] . كما يلاحظ أن الجاحظ ينقل عنه كثيرا، في كتبه . ومع ان ياقوتا يخبرنا عنه أنّه « كان ثقة اذا حدّث عن الثقات » [٦] ، غير ان معاصره الجاحظ كان لا يرى ذلك ، على الرغم من كثرة نقله عنه ، فهو في كتاب " القول في البغال " قد ذكره مع الرواة والأخباريين الروافض الذين كانوا يولدون الحكايات ، وينحلونها لتشيع بين عامة الناس . [٧]

---

(١) انظر ابن النديم في الفهرست ، ج٨ ، ص ٣٦٨ ، تحقيق رضا – تجدد – (ودراسات في القصة والمسرح لمحمود تيمور ، ص ٧٣) .

(٢) انظر الفهرست لابن النديم ، ص٣٧٥ ، حيث اورد اسماء كتب حكايات مجهولة المؤلف .

(٣) الحياه الادبيه في البصره الى نهاية القرن الثاني الهجرى ، ص ١٩٨

(٤) طه الحاجرى ، تعليقات وشروح على البخلاء ، البخلاء ، ص ٣٣٣ .

(٥) انظر الفهرست ، ج٢ ، ص ١١٢ .
ومعجم الادباء لياقوت ، ج ١٤ ، ص ١٢٤ .

(٦) معجم الادباء ، ج ١٤ ، ص ١٢٤

(٧) انظر كتاب القول في البغال . تحقيق شارل بلا ، ص ٢٥ – ٢٦ .

وأمـا سهل بن هـارون فيبدو تأثير المقفـع فيه واضحـا اكثر من أى أديـب آخـر ، وذلك حين نتأمل كتابيـه " ثعلـه وعفـره " " والنمـر والثعلب " ، لأنهما يتضمنان حكايـات ألفها سهـل بـن هـارون على السـنة الحيـوانات ، وان كنا حين نتمعن فـي هذه الحكـايـات نجد ان الحيوانات فيها ليس لها من صفـات الحيوان ألا الاسم فقـط ! ؛ لأنها تفكر وتتمثّل بالاشعـار والاقـوال تمـاما كالبشـر ! (١) .

وتأثير حكايـات كليلـه ودمنـه واضح فـي حكايـات كتابـي سهـل ، حتى دعـا ذلك ابن النديـم الى القـول : " كتـاب " " ثعلـه وعفـره على مثال كليلـه ودمنـه " (٢) ، بيـد ان جهـد سهـل بن هـارون يمثّل نقلـة جيـده في مسـيرة الحكايـة في الأدب العربي، لأنه - يحسـب ما وصل الينـا - أول أديـب أفـرد للحكايـة كتبـا خاصـه ، وتجرأ فأظهر أنهـا مـن تأليفـه الابداعـي ، على حين كـان توليـد الحكاية قبلـه لا يجد متنفّسـا لـه ، الاّ من خلال النحل أو الترجمـة أو تـرك الحكايـة مجهولة المـؤلـف !

واذا كان سهـل قد فعـل ذلـك بحكايـات موضوعـة على السـنة الحيـوان ، فهو بخطوتـه الرائـدة مهّـد السبيـل أمـام من أتـى بعـده لتحويـل هذا الفـن الأدبـي الوليـد نحو المجتمـع لتصويـره ، ونحـو الشعـب لاستيحـاء واقعـه ومشكلاتـه .

---

(١) انظـر فـي كتـاب الثعلـب والنمـر مثلا ، ص ٩ و ص ١٠ . حققـه ، وقدم له وترجمـه الى الفرنسيه عبد القادر المهـيري ، منشـورات الجامعـة التونسـة - تونـس ١٩٧٣ .

(٢) الفهـرست ، ج ٨ ، ص ٣٤٠ . تحقيق رضـا - تجـدد .

الفصل الاول

الحكاية في أدب الجاحظ

ما كاد نجم الجاحظ يتألق في نهاية القرن الثاني الهجري، ويلي للمأمون ديوان الرسائل ، حتى قال سهل بن هارون : إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتاب(١). وكان الخليفة المأمون قبل أن يتولى الجاحظ ديوان رسائله قد تسامع بهذا الاديب الموهوب ، الذي أخذ اسمه يعلو في ميدان الادب والعلم، فأمر ببعض كتبه أن يحضر اليه ، فلما قرأه أعجب به أيّما اعجاب ، يقول الجاحظ "ولما قرأ المأمون كتبي في الإمامة ، فوجدها على ما أمر به ، وصرت اليه ، وقد كان أمر اليزيدي بالنظر فيها، ليخبره عنها قال لي: قد كان بعض من نرتضي عقله ، ونصدق خبره ، خبرنا عن هذه الكتب بأحكام الصنعة ، وكثرة الفائدة ، فقلت : قد تر بي الصفة على العيان، فلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصفة ، فلما فليتها، أربى الفلي على العيان ، كما أربى العيان على الصفة "(٢).

ولما ألف الجاحظ بعض كتبه المعروفة مثل: التربيع والتدوير والحيوان والبيان والتبيين ، سرعان ما تجاوزت شهرته العراق الى سائر الامصار. حتى غدا في ميدان الادب ـ كما يقول أبو حيان التوحيدي ـ "هو واحد الدنيا"(٣) وحتى أخذ طلاب كثيرون يفدون الى العراق ، ليتتلمذوا له؛لأن مجرد الالتقاء به، كان من شأنه أن يرفعهم في أعين ملوكهم، حين يعودون الى بلادهم، فيحظون منهم بالتقدير. سئل سلام بن يزيد، وهو أحد تلاميذ الجاحظ الذين وفدوا اليه من الاندلس "عن سبب اجتماعه مع أبي عثمان، ولم يقع أبو عثمان الى الاندلس ، فقال: كان طالب العلم بالمشرق يشرُف عند ملوكنا بلقاء أبي عثمان، فوقع الينا كتاب التربيع والتدوير له، فأشاروا اليه، ثم أردفه عندنا كتاب البيان والتبيين له ، فبلغ الرجل المكاك(٤) بهذين الكتابين ، قال : فخرجت لا أعرّج على شيء، حتى قصدت بغداد، فسألت عنه فقيل: هو بسرّ من رأى، فأصعدت اليها، فقيل لي: قد انحدر الى البصرة ، فانحدرت اليه "(٥). وقد أحجم بعض الشعراء عن هجاء الجاحظ بسبب شهرته الادبية الواسعة ـ "قيل لابي هفان: لم لا تهجو الجاحظ ، وقد ندّد بك ، وأخذ بمخنقك ؟ فقال: أمثلي يخدع عن عقله، والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي، لما أمست إلاّ بالصين شهرة، ولو قلت فيه ألف بيت ، لما طنّ منها بيت في ألف سنة "(٦). والجاحظ ـ كما يقول أحمد أمين ـ جمع بين التفوق الادبي، والدهاء السياسي" فكان واسع الحيلة واسع العلم، يستطيع أن يكتسب رضاء الوزيرين المتعاديين على

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الادباء ـ ج١٦ ، ص ٧٩

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ـ ج٣ ، ص ٣٧٤ تحقيق عبد السلام هارون

(٣) مثالب الوزيرين ص٣١ ، تحقيق د. ابراهيم الكيلاني، دار الفكر ـ دمشق (د.ت)

(٤) المكاك : الهواء ، كناية عن علو قدره ، ورفعة شأنه

(٥) ياقوت الحموي : معجم الادباء ، ج١٦ ص ١٠٤

(٦) المصدر نفسه ، ج١٦ ص ٩٩

التعاقب ، ابن الزيّات وابن أبي دؤاد"(١). فنال بذلك حظوة عند خلفاء بني العباس، حتى كان كاتبهم المفضل ، فكانت رسائله التي يكتبها لهم، شبيهة، كما يقول شارل بلا : بالمقالات الافتتاحية التي تنشرها اليوم بعض الصحف ، تأييداً لسياسة الحكومة ، فرسالته في مناقب الاتراك مثلا كتبت بمناسبة انشاء الجند التركي زمن المعتصم، وكتاب الرد على النصارى له علاقة بالتدابير التي اتخذها المتوكل ليحط من شأن أهل الذمة "(٢).

وقد ظل لادب الجاحظ بعد موته سحره وتأثيره، حتى انقسم كبار الكتاب في القرنين الثالث والرابع حوله بين أنصار وخصوم، وشهدت "مجالس بغداد نفسها الخوض في شأن الجاحظ بين متعصب له أو عليه"(٣). أما المتعصبون عليه فقد حاولوا النيل منه في الغالب ، لاظهار تفوقهم الادبي. فابن قتيبة مثلا هاجمه في كتاب "تأويل مختلف الحديث" وكان مما عابه عليه عدم الثبات في آرائه ومواقفه (٤). ويرى بعض الدارسين المحدثين أن ابن قتيبة تأثر الجاحظ، كما هو واضح في كتابه "عيون الاخبار"، فهو فيه "تبع الجاحظ في الاتيان بما يضحك خوف الملل"(٥). ويرى الدكتور أحمد الحوفي أن "التأثر بالجاحظ واضح في نهج ابن قتيبة "(٦) على حين يذهب الدكتور اسحق الحسيني الى أبعد من ذلك ، إذ يقول: "لست أشك في أن ابن قتيبة كان من تلاميذ الجاحظ"(٧) ، ولكن ابن قتيبة كان - كما يلاحظ الدكتور الحسيني - يحاول اخفاء ذلك ، ويكابر فلا " يذكر أن الجاحظ علمه ، ولا يقول: حدثني أو حدثنا، وهما ما يعبّر بهما عادة عن روايته عن شيوخه ، بل يقول: ومما أجاز لنا عمرو بن بحر الجاحظ من كتبه ، وقد استعمل هذا التعبير الملفوف ثلاث مرات في عيون الاخبار"(٨) في حين كان في مواضع أخرى يقول: "قال عمرو بن بحر، مع أن بعض الجمل المقتبسة مأخوذة من كتب أجيز له الاقتباس منها، وهو يستعمل في بعض الاحيان بعض الجمل من كتب الجاحظ ، دون أن يذكر اسم الكتاب ولا اسم المؤلف"(٩).

وممن هاجمه في القرن الرابع بديع الزمان الهمذاني ، فهو حين لاحظ اهتمام معظم كتاب عصره بأدبه مثل ابن العميد وأبي حيان التوحيدي، حاول أن يقلل من شأنه ، ليلفت إليه [illegible] فأنشأ المقامة الجاحظية " ليقول: إن الجاحظ ليس بمعجزة الدهر ،

---

(١) فيض الخاطر، ج٤ ، ص ٢٩٠ الطبعة الثالثة - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦١

(٢) اصالة الجاحظ ، ص ١٦ - دار الكتاب - الرباط - ١٩٦١ - ١٩٦٢

(٣) د. احسان عباس ، أبو حيان التوحيدي ص ٦٢ - داربيروت للطباعة والنشر/بيروت ١٩٥٦

(٤) انظر الكتاب ص ٤١ - صححه وضبطه محمد زهري النجار - دار الجيل - بيروت ١٩٧٣

(٥) أحمد أمين ، ضحى الاسلام - ج١ ص ٤٠٣

(٦) الجاحظ ، ص ٩٤ - الطبعة الاولى - دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٠

(٧) ابن قتيبة ، ص ٢٠ - ترجمه الدكتور هاشم ياغي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت - ١٩٨٠

(٨) المرجع نفسه ، ص ٢٠

(٩) المرجع نفسه ، ص ٢٠

وانما هو أديب يمكن أن يجود به الزمان في كل عصر: "يا قوم: لكل عمل رجال، ولكل مقام مقال، ولكل دار سكان، ولكل زمان جاحظ"(١) ثم حاول بعد ذلك أن يعيب أسلوبه فقال عنه: انه "بعيد الاشارات، قليل الاستعارات، قريب العبارات"(٢)، وقد عقب الشيخ محمد عبده على قول الهمذاني "لكل زمان جاحظ" بقوله: "يريد أنه هو جاحظ الزمان أو يزيد"(٣)، كما علق على عيبه اسلوبه بقوله: "هذه كأنها من مناقص كلام الجاحظ، هي أعلى مزايا الكلام عند أهله، وهي التي ترفع مقامه على غيره"(٤). على حين ذهب الدكتور احسان عباس الى أن الهمذاني عاب الجاحظ "بحسنات في الكتابة أصبح أهل القرن الرابع يعدونها من السيئات"(٥). والحق أنه ليس كل أهل القرن الرابع كانوا يرون رأي الهمذاني، كما يمكن أن توحي عبارة الدكتور عباس، لاننا نجد في هذا القرن أدباء كباراً لا يقلّون منزلة عن بديع الزمان من أمثال أبي حيان التوحيدي وابن العميد يشغفون بأدب الجاحظ ويحاولون تقليد أسلوبه.. أما ابن العميد فقد كان كثير الاعجاب بأدب الجاحظ، ويحاول أن يحتذي أسلوبه، وكان يقول: "كتب الجاحظ، تعلم العقل أولا، والادب ثانيا"(٦) ويقول: "ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس، أما الفقه فعلى أبي حنيفة، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل، وأما البلاغة والفصاحة واللسن، والعارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ(٧)، وبلغ من شغفه بأسلوبه، ومحاولته احتذاءه درجة كان معها" يسمى الجاحظ الثاني، لانه سلك طريقته في تقصير الجمل وتقطيعها، والاكثار من الشواهد"(٨).

وأما أبو حيان التوحيدي فقد بسط الاسلوب الجاحظي ظله عليه، حتى أصبح أسلوبه حكاية دقيقة له، لولا فوارق ضرورية في الشخصية والبيئة، وتعصب التوحيدي للجاحظ، حتى عرفه الناس به، وكان مسكويه يقول له كلما استشهد بالجاحظ: يقول صديقك أبو عثمان، وتوهم لشدة العصبية ان كل ما كتب له، التفوق في النثر في عصره، فانما حاول أن يسلك طريق صاحبه وأعجب بكل نثر قريب من نثره"(٩). ولذلك تصدى لخصوم الجاحظ والطاعنين عليه، حتى أنه "الف رسالة اسماها تقريظ الجاحظ"(١٠). وكان من أسباب اعتزاز التوحيدي بأدبه، واعتداده بنفسه، أنه استطاع أن يقترب من أسلوب

---

(١) مقامات بديع الزمان الهمذاني - ص ٧٢، شرح محمد عبده - المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين - بيروت - ١٨٨٩.

(٢) المصدر السابق ص ٧٢

(٣) المصدر السابق - هامش ص ٧٢

(٤) المصدر السابق ص ٧٣

(٥) أبو حيان التوحيدي - ص ٢١

(٦) ياقوت الحموي، معجم الادباء، ج ١٦ ص ١٠٣

(٧) المصدر نفسه ج١٦، ص ١٠٣، وأبو الهذيل العلاف هو أحد أئمة المعتزلة.

(٨) بطرس البستاني، أدباء العرب في الاعصر العباسية ج١، ص ٢٨٣ - دار مارون عبود - بيروت - ١٩٧٩.

(٩) د. احسان عباس، أبو حيان التوحيدي، ص ٢٠ - ٢١

(١٠) د. ابراهيم الكيلاني، أبو حيان التوحيدي ص ٦٢ - دار المعارف بمصر/القاهرة/١٩٥٧.

الجاحظ وأدبه ، فكأن التوحيدي كما يقول الدكتور احسان عباس "حين كان يدافع عن الجاحظ ، لم يكن متحمسا لاستاذ كبير فحسب ، بل كان متحمسا لنجاحه الذي عجز عنه الاخرون في القرن الرابع"[١]، ومن أبرز الذين اخفقوا في احتذاء أسلوب الجاحظ، واتباع مذهبه في رأي التوحيدي ابن العميد [٢].

ولم يقتصر تأثير أدب الجاحظ على بعض أدباء القرن الرابع الهجري، بل امتد هذا التأثير، واستمر على مدى قرون عدة حتى العصر الحديث ، فالتأثر بأدب الجاحظ واضح مثلا "في طوق الحمامة لابن حزم الظاهري، وفي محاضرات الراغب الاصفهاني، وفي نشوار المحاضرة للقاضي التنوخي"[٣].

وأما في العصر الحديث ، فقد لا نتجاوز الحقيقة اذا قلنا: ان بعض أدباء العربية المحدثين اكتشف في أدب الجاحظ مزايا جديدة ، كانت خافية على القدماء، أو كانوا لا يقدرونها حق قدرها، فلعته مثلا التي رأينا بديع الزمان يهاجمها قبل قليل ، نجد توفيقًا الحكيم يعجب بها، حتى انه يغالي فيعد الجاحظ بسببها الاستثناء الممتاز الوحيد بين الادباء القدامى[٤]، على حين يرى آخر أن الجاحظ ، "استحدث في النثر العربي لغة جديدة هي التي نسميها اليوم: لغة الاتصال بالجماهير"[٥]. أما السبب الذي دعا الجاحظ الى ذلك فهو ان كتاباته كانت بمثابة الصحافة الواسعة الانتشار في ذلك العصر بين الناس ، ولذلك كان من الطبيعي أن ينزع الجاحظ الى البساطة في الاسلوب[٦]، بيد أنه سرعان ما سيطر أسلوب الصنعة اللفظية على الادب العربي بضعة قرون بعد الجاحظ : "الى ان طلع أخيرا فجر العصر الحديث ، فبزغت أشعة التجديد مرة أخرى، فاذا نظرنا الآن الى الادب العربي في ردائه الحديث ، أي منذ انتهاء الحرب الكبرى الاولى وحتى اليوم رأينا ظاهرة تسترعي الالتفات ، وهي استئناف الاتجاه الذي بدأه الجاحظ"[٧].

فالجاحظ ـ كما يرى أحمد أمين ـ استطاع بقوة عقله أن ينقل الادب العربي نقلة كبيرة من ناحيتين: الاولى أنه جعل للادب موضوعاً محدداً، لان الادب قبله كان عبارة عن جمل مرصوصة وضع بعضها بجانب بعض . .. والثانية أنه استطاع أن يجعل من كل شيء موضوعاً لادبه ، كالحشائش والاشجار والحيوانات ، والمعلمين واللصوص والجواري ، والنجار يستدعيه في البيت والديك يصيح، والطفل يناغي النور"[٨]، وهذا ما جعل توفيقاً الحكيمَ لا يتردد في أن يعد الجاحظ" الاستاذ المباشر لاكثر رجال القلم في الادب العربي

---

(١) أبو حيان التوحيدي -- ص ١٣٩
(٢) الامتاع والموءانسة ج ص ٦٦ ، تحقيق احمد امين ورفيقه ـ المكتبة العصرية ـ بيروت (د.ت)
(٣) د. احمد محمد الحوفي ، الجاحظ ، ص ٩٤
(٤) انظر فن الادب ص ٢٨
(٥) فاروق شوشة ـ الجاحظ ولغة الجماهير ص ١٦٣ (مجلة العربي الكويتية) عدد ١٩٧١/١٥٦
(٦) المرجع نفسه ص ١٦٣
(٧) توفيق الحكيم ، فن الادب ص ٣٢
(٨) فيض الخاطر ج٤ ص٦٣

المعاصر، لانه رفع علم التجديد وعلّم الكتاب أن الاسلوب أداة للتعبير القويم عن النفس والفكر، لا وشي من اللغو، ولا بضاعة من الزخرف يراد بها اللهو"(١)، على هذا النحو استمر تأثير أدب الجاحظ في الادب العربي بعده، وأما خصومه القدامى، فانهم، كمايقول الدكتور شوقي ضيف - "قد دار الزمن دورات، فاذا هؤلاء النقاد الذين طعنوا عليه، وعلىآثاره الادبية، ذهبوا مع الريح هباء، وبقي الجاحظ بآثاره وأعماله قمة شامخة في أدبنا، لا تتطاول اليها الاعناق"(٢). واذا تركنا أثر أدب الجاحظ في الادباء، وألقينا نظرة سريعة على أثره في ميدان الادب نفسه وفي علوم العربية فاننا قد نوافق أبا حيان التوحيدي حين كان يرى أنه من الصعب على أديب مجاراة الجاحظ أو التفوق عليه، لانه توافرت في أدبه أسباب قلما تتاح لادب غيره (٣)، فهو رأس مدرسة من المدارس الاربع المشهورة بتمايز أساليبها الادبية، والمعروف أن "في الادب العربي أربع طرق انشائية: الاولى طريقة ابن المقفع، والثانية طريقة الجاحظ، وهي تحتفظ بجمال العبارة ورصانتها، وتكثر من التقطيع في الجمل، فتقفي تارة، وتترك الجمل مرسلة تارة ثانية، مع الحرص على الاطناب والاستطراد، وهي الى جانب هذا تحرص على تفكهة القارئ وتسليته، فتورد له الاضاحيك العذبة، الى جانب التفكير والمنطق، والثالثة طريقة ابن العميد، وأما الرابعة فهي طريقة القاضي الفاضل"(٤)، وعلى الرغم من جمال أسلوب ابن المقفع، فإنّ ثمة باحثين يرون أن الغلبة كانت لاسلوب الجاحظ، حين ظهر، لانه عبّر به عن الواقع الشعبي الاجتماعي في عصره، فزخر أسلوبه بالحركة والفن والحياة (٥)، ولعل مما يعزز هذا الرأي أننا نجد صاحبي الطريقتين الانشائيتين الاخريين يتأثران أسلوب الجاحظ، أما ابن العميد فقد "سلك طريقته في تقصير الجمل وتقطيعها، والاكثار من الشواهد"(٦) وأما القاضي الفاضل فقد "تتلمذ عليه .. وكان يقول: وأما الجاحظ فما منا معشر الكتاب إلا من دخل داره، أو شنّ على كلامه الغارة"(٧). وقد عبّر أحمد أمين عن أثر الجاحظ القوي في الادب العربي بقوله: "ان كان سقراط قد استنزل الفلسفة من السماء الى الارض، فالجاحظ قد استنزل الادب من السماء الى الارض"(٨) لانه أول أديب عربي هبط بقلمه "الى الشعب يستوحيه، ويصوّر أسواقه وبخلاءه ولصوصه وتجاره .."(٩)

---

(١) توفيق الحكيم، فن الادب، ص ٣٣

(٢) نقد الاثار الادبية عمل شاق ص ١٥٣، مجلة العربي الكويتية - (عدد ٦) - ١٩٥٩

(٣) الامتاع والمؤانسة، ج١ ص ٦٦ تحقيق أحمد أمين ورفيقه

(٤) د. ابراهيم الكيلاني، أبو حيان التوحيدي، ص ٦١

(٥) جورج غريب، الجاحظ - دراسة عامة، ص ١١٥

(٦) بطرس البستاني، أدباء العرب في الاعصر العباسية ج٢ ص ٢٨٢. وانظر شارل بلا، اصالة الجاحظ ص ٢١ (٧) المرجع السابق، ج٢ ص ٢٨٢

(٨) فيض الخاطر ج٤ ص ٦٣

(٩) توفيق الحكيم، فن الادب ص ٢٨

وقد أدى نزوله بقلمه الى عامة الناس ، الى جراءته اللغوية كما لاحظ الدكتور أحمد الحوفي ، مما جعله "يستخدم ألفاظاً لا عهد للادباء باستعمالها ، مثل: القرويين والبلديين واللغويين والنحويين، والفوقاني والتحتاني والبراني والجواني ، وكثيرا ما نعى على من يعني باللفظ دون المعنى، ونصح بالعناية بهما، ونصح للادباء في اختيار ألفاظهم ملائمة للمعاني وللموضوع، لتتم المشاكلة بين اللفظ والمعنى"(١)

والجاحظ من ناحية أخرى، رائد من رواد النقد، وموءسس من موءسسي علم البلاغة ، فهو من الناحية النقدية كما يلاحظ الدكتور احسان عباس "من خير من يحسنون تأسيس النقد على أصول نظرية وتطبيقية "(٢)، وهو من الناحية البلاغية قد خطا "خطوة غير مسبوقة في ملاحظاته البلاغية ، وذلك بالكلام على التشبيه والاستعارة ، عن طريق النماذج مع التفريق بينهما ، كما استعمل المثل مرادفا للمجاز، وجعله مقابلا للحقيقة "(٣) حتى ان الموازنة بينه وبين من تقدموه في هذا الميدان ، تظهر أنه كان بلا شك أقدرهم على ادراك أسرار البلاغة ، وأكثرهم اهتداء عن طريق النماذج الى شتى العناصر أو الاساليب البيانية ، التي عرفت وحددت فيما بعد"(٤)، ولقد أفاد علماء البلاغة المتأخرون من جهود الجاحظ في هذا الميدان "ولعل خير من أفاد من ملاحظات الجاحظ البلاغية ، وبنى عليها، وطورها، هو ضياء الدين بن الاثير المتوفى سنة ٦٣٧هـ ، في كتابه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر"(٥).

وثمة جانب ابداعي فني يشتمل عليه أدب الجاحظ في ما يشتمل من جوانب متعددة : فهو شاعر نعثر له في بعض كتبه ورسائله على نماذج شعرية متنوعة، منها ما استحسنته بعض كتبنا القديمة فأوردته(٦)، وبعض قصائد الجاحظ يعكس موهبة شعرية جيدة . مثل قصيدته الطويلة التي أوردها في رسالته الى أبي الفرج بن نجاح الكاتب (٧) بيد أن الجاحظ شاعر مقل، ولذلك فهو غير مشهور في هذا الجانب الابداعي، ومن ثم فقد حاول بديع الزمان الهمذاني أن ينفذ الى ذمّه من خلاله في "المقامة الجاحظية" حين يتوجه بطلها الى مجالسيه متسائلا: هل ترون للجاحظ شعراً رائعاً، فيجيبون: لا.(٨)

---

(١) الجاحظ ، ص ١٠١ (٢) تاريخ النقد الادبي عند العرب ، ص ٩٥ ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة - بيروت - ١٩٧٨. (٣) د. عبد العزيز عتيق ، علم البيان ، ص ١٠ الطبعة الثانية ، دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٧٠

(٤) المرجع نفسه ، ص ١١ (٥) المرجع نفسه ، ص ١١

(٦) انظر الجزء السادس من العقد الفريد لابن عبد ربه ، ص ٢٣٢ ، تحقيق محمد سعيد العريان الطبعة الثانية - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - ١٩٥٣

(٧) الرسالة الثامنة من رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج١، ص ٣٢٩، مكتبة الخانجي بالقاهرة - ١٩٦٤.

(٨) مقامات بديع الزمان الهمذاني ، شرح الشيخ محمد عبده ، ص ٧٢.

والحق أن الجانب الابداعي في أدب الجاحظ أكثر ما يتبدّى في حكايات كثيرة ، نصادفها في كتبه ، لانه حيثما قرأنا الجاحظ ـ كما يقول محمد عبد المنعم خفاجي ـ فاننا نراه قد ضمّن كتبه أجمل النوادر والحكايات [(١)]، وهي حكايات تنم على موهبة ابداعية ، مما دعا الحاجري الى القول: ان توليد الحكايات كان "بابا من الابواب التي اتسمت بها نزعة الجاحظ الادبية ،ووجدت فيها متاعاً لها، ومجالا لعبقريتها. وقد يتأثم بعض المتزمتين ، من أن نسند الى الجاحظ أنه كان وضّاعا مولداً، ويرون في هذا النهج من التكذب ، والتزوير، ما يجلون الجاحظ عنه ، ويرفعونه من أن يتدنى اليه . أما أن الجاحظ كان يولد الاقوال ويضع الاحاديث ، ويفتنّ في ذلك شتى الافانين ، فأمر ظاهر كل الظهور في هذه الاحاديث المستطيلة .. والقصص المفتنة التي ضمنها كتابه هذا "البخلاء" ونسبها الى هذا وذاك من رجال عصره ، فان أسلوبها، وطريقة وضعها، ومنحى الاستدلال فيها، كل ذلك شاهد قوي، واضح الدلالة على أن الجاحظ هو صاحبها" [(٢)].

---

(١) أبو عثمان الجاحظ ، ص٢٠ ، ط١، دار الطباعة المحمدية بالازهر ـ القاهرة (د.ت)

(٢) مقدمة البخلاء ، ص٤٠ ، ط٦ ، دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٩

٢. الحكاية وكتب الجاحظ

عاش الجاحظ حياة مديدة [١] حافلة، ظل فيها يكتب ويؤلف حتى أواخر عمره، على الرغم من الشيخوخة والمرض، نستدل على ذلك بما جاء في كتبه، نحو قول محفوظ النقاش له في احدى حكايات البخلاء: "وأنت رجل قد طعنت في السن، ولم تزل تشكو من الفالج طرفا" [٢]. ونحو قوله في كتاب الحيوان "قد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه، أول ذلك العلة الشديدة" [٣]. فهو لذلك أديب غزير الانتاج، وقد عرض ياقوت الحموي لكتبه [٤]، فعدد "أسماء مائة وثمانية وعشرين كتابا من كتب الجاحظ، مع أن للجاحظ ثلاث مائة وستين كتابا ورسالة [٥]، واذا أضفنا ما ذكره ياقوت الى ما ذكره ابن النديم في الفهرست من كتب أخرى، والى ما ذكره الكتبي أيضا في عيون التواريخ، وجدنا أنهم جميعا يثبتون للجاحظ أكثر من مائتي كتاب ورسالة" [٦]. وعلى الرغم من تقدير القدماء لكتب الجاحظ، حتى ان أبا حيان التوحيدي وصفها بقوله "وكتبه هي الدر النثير، والنور المطير، وكلامه الخمر الصرف، والسحر الحلال" [٧]، فإنّ معظمها لم يعثر عليه بعد" فقد حافظ الدهر على نحو ثلاثين كتابا ورسالة، بحذافيرها، ونحو خمسين أخرى لم يصل الينا منها الا قطع مختلفة المقدار" [٨].

وحين يتمعن الدارس في كتب الجاحظ التي عثر عليها، يمكن أن يلحظ أنها تنقسم "ثلاثة أقسام رئيسية: القسم الاول يتضمن الكتب السياسية الدينية، والقسم الثاني: المؤلفات التي فيها مزاج من الادب والعلم، والقسم الثالث الرسائل الادبية المنسوجة على منوال القدماء" [٩]. بيد أن هذا التقسيم ليس دقيقا في تفصيله، مانعا في تحديده لان التداخلات بين الاقسام كثيرة جدا، كما أن ثمة كتبا للجاحظ لا نستطيع أن نزعم بأن مزج العلم والادب فيها واضح تماما، مثل كتاب البيان والتبيين. والباحث الذي يود أن يدرس جانبا من أدب الجاحظ - سواء أكان الحكاية أم جانبا آخر - يواجه مشكلة ينبغي أن يتنبّه اليها، وهي أن كل ما وصل من كتب ورسائل منسوبة للجاحظ ليس صحيح النسبة اليه حقاً، لان بعض الكتب والرسائل المنسوبة اليه هو منحول على الارجح: ..

---

(١) ذكر ياقوت أنه ولد سنة ١٥٠هـ وتوفي ٢٥٥هـ. أنظر معجم الادباء ج١٦، ص ٧٥

(٢) البخلاء: ص ١٢٣، ط٦، تحقيق طه الحاجري.

(٣) الحيوان: ج٤، ص ٢٠٧، تحقيق عبد السلام هارون.

(٤) أنظر معجم الادباء، ج١٦، ص ١٠٦

(٥) د. احمد الحوفي، الجاحظ، ص ١٧٥

(٦) شارل بلا، اصالة الجاحظ ص ١٥

(٧) البصائر والذخائر ص ٤، تحقيق د. ابراهيم الكيلاني

(٨) شارل بلا، اصالة الجاحظ ص ١٥ (٩) المرجع السابق، ص ١٥-١٦

فالجاحظ الذي كان في بداية حياته ينحل كتبه كبار الادباء من أمثال ابن المقفع والخليل ابن أحمد وسهل بن هارون[١] "لما مات راح بعض الكتاب المغمورين يضيفون اليه كتبهم، لتشتهر، كما فعل هو في أول عهده بالكتابة، فنحلوه كتباً ليس له يد فيها، ولا هي من نفسه وأسلوبه"[٢].

وثمة وسائل يمكن للباحث أن يعرف من خلالها أن الكتاب للجاحظ حقا أو هو منحول، .. منها أسلوبه المميز، لان أسلوب الجاحظ - كما يقول شارل بلا - "نسيج وحده، لا يمكن أن يغتر فيه القارئ الخبير"[٣]، ومنها عدم ورود اسم الكتاب في المصادر القديمة الموثوقة، ومنها أيضا أن يتضمن الكتاب المنسوب اليه ما يتصادم مع ما هو مشهور ثابت عنه؛ نحو ما ذكره المستشرق شارل بلا: أنه قرأ رسالة "الامل والمأمول" المنسوبة الى الجاحظ، فاذا هو يعثر في أثناء القراءة على ما جعله يشك في صحة نسبتها، يقول: "فتابعت مطالعتي، واذا بجملة معناها: أنا بريء من الاعتزال، فلم افتقر الى هذا الدليل لكي أتبين انتحال الرسالة"[٤].

ومن أشهر الكتب المتداولة، المنسوبة الى الجاحظ، التي يرجّح الدارسون أنها منحولة كتاب "المحاسن والاضداد"، لانه يلاحظ أن ياقوتا الحموي لم يذكر اسم الكتاب حين أورد فهرست كتبه[٥] كذلك يلاحظ حين نتمعن في الكتاب أنه يختلف اختلافاً واضحاً عن كتب الجاحظ الثابتة النسبة اليه، وذلك من حيث الاسلوب و من حيث المعالجة القصصية في الحكايات[٦]، ولذلك فان حسن السندوبي مثلا حين عرض لكتب الجاحظ المنحولة، قال عن المحاسن والاضداد: لقد "خدع كثير من الناس بهذا الكتاب، ونسبوه الى الجاحظ بلا بحث ولا تحقيق"[٧]. ومن الكتب والرسائل الاخرى المنسوبة الى الجاحظ، والتي يرجح الدارسون أنها منحولة: كتاب الابل وكتاب التاج أو أخلاق الملوك، وكتاب الحنين الى الاوطان، وكتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والاثار، وكتاب سلوك الحريف لمناظرة الربيع

---

(١) كي تشيع بين الناس كما يخبرنا، لانه كان حين يثبت اسمه عليها لا تلاقي رواجا. أنظر رسالة فصل ما بين العداوة والحسد - رسائل الجاحظ، ج١ ص ٣٥٠ - تحقيق عبد السلام هارون.

(٢) بطرس البستاني، أدباء العرب في الاعصر العباسية ج٣ ص ٢٧٠.

(٣) شارل بلا، اصالة الجاحظ، ص ٢٢

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٢، كذلك يقرر رمضان شش محقق الامل والمأمول أن أسلوب الكتاب ليس أسلوب الجاحظ (الامل والمأمول ص ٦ الطبعة الاولى، دار الكتاب الجديد/دمشق ١٩٦٨)

(٥) أنظر فهرست كتب الجاحظ في معجم الادباء ج ١٦، ص ١٠٦

(٦) أنظر مثلا في المحاسن والاضداد الحكايات ص ١٥٥، ص ١٥٨- ص ١٧١ (المحاسن والاضداد، الشركة اللبنانية للكتاب - بيروت ١٩٦٩)

(٧) أدب الجاحظ ص ٥٥، ط١، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - ١٩٣١.

والخريف (١). ودارس حكايات الجاحظ لا يستطيع أن يطمئن الى ما تتضمنه هذه الكتب المشكوك في نسبتها الى الجاحظ من حكايات، واذن فلا بد له من أن يتوجه الى الكتب الثابتة النسبة، التي لم يتطرق اليها أي شك، وهو حين يتأملها ويتعمقها يجد أنها نوعان من حيث وضع الحكاية وطريقة ورودها: نوع ترد فيه الحكايات متفرقة بين ثنايا مواد الكتاب الادبية أو العلمية، ويلاحظ في . . حكايات هذا النوع من الكتب عدة أمور: منها أن مضمونها يكون له مساس في الغالب بمادة الكتاب، حتى ان الحكاية تبدو كأن الجاحظ يتذكرها، أو يذكرها بفعل تداعي المعاني في ذهنه، وهو مسترسل في الحديث عن موضوع من الموضوعات العلمية والادبية، ففي كتاب الحيوان مثلا حين يتحدث عن الذباب أو الكلاب أو الحمام يأتي بحكايات حولها بين حين وحين. كذلك يفعل حين يتحدث عن البغال أو الجواري والغلمان أو أي موضوع آخر. ومن أبرز كتب هذا النوع: كتاب الحيوان والبيان والتبيين والقول في البغال، ومفاخرة الجواري والغلمان ورسالة القيان، وفضائل الاتراك وكتاب البرصان والعرجان. ومما يلفت الانتباه هنا أن ثمة كتبا ورسائل للجاحظ يلاحظ أن الحكايات فيها معدومة أو تكاد مثل: رسالة "المعاش والمعاد" و "كتمان السر" و "رسالة في الجد والهزل" و "فخر السودان على البيضان" ورسائل قليلة أخرى (٢).

وأما النوع الثاني من كتب الجاحظ فان الحكايات ترد فيه بشكل أساسي، أي أن الجاحظ قصد من الكتاب أن يكون كتاب حكايات، ومن أشهر كتب هذا النوع: "البخلاء" و "التربيع والتدوير"، ويلاحظ هنا أن بعض كتب هذا القسم لم يصل الينا، أو لم يصل كاملا، ومن الكتب التي لم تصل كتاب "حيل لصوص النهار وحيل سراق الليل" الذي أشار اليه الجاحظ في مقدمة البخلاء (٣)، كما أخبرنا في الحيوان أنه حكايات حول اللصوص، وذلك حين أتى على ذكر رجل يدعى "بابويه" وكان صاحبا للحمام، فقال عنه "ولو سمعت بقصصه في كتاب اللصوص علمت أنه بعيد عن الكذب" (٤). وعلى الرغم من أنه لم يعثر على الكتاب بعد، فان ما نجد من اشارات ومقتطفات منه في الكتب التي وصلت الينا قمين بأن يعطي لنا صورة قريبة عن مضمون هذا الكتاب، ومحتواه (٥).

ومن كتب الحكايات التي لم يعثر عليها كاملة كتاب "المعلمين" فالمشهور عن

---

(١) أدب الجاحظ ص ١٤٥، ص ١٥٣، ص ١٥٥ ، وانظر اصالة الجاحظ ص ١٥ ، ص ٢٢

(٢) لاحظنا أن ثمة تسع رسائل لا تتضمن حكايات البتة، أنظر رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ج١ الصفحات ٨٧، ١٣٥، ٢٢٧، ٢٧٩، ٣٠٩، ٣١٥، ٣٧٩ و ج٢ الصفحات ٤ ، ٣٧٩ .

(٣) أنظر البخلاء ص ١ ، تحقيق الحاجري

(٤) الحيوان ، ج٢ ، ص ١٥٦

(٥) أنظر حكايات الشطار والعيارين للدكتور محمد رجب النجار ص ٤٥ - عالم المعرفة رقم ٤٥ المجلس الوطني للثقافة - الكويت - ١٩٨١.

الجاحظ "أنه ألف كتابا في نوادر المعلمين ، وما هم عليه من التغفل"[١]. وعلى الرغم من أن الكتاب لم يعثر عليه كاملا بعد[٢]، غير أننا من خلال اشارات الكتب القديمة اليه، ومن خلال ما اقتبست من حكاياته، نستطيع أن نقول عنه : انه يتألف من حكايات تصور في الغالب بعض معلمي الكتاتيب في عصر الجاحظ ، وما كان يأتيه أولئك من تصرفات مستهجنة ، تثير السخرية ، على نحو ما يمكن أن نرى في الحكايات التي نقلها منه ابن الجوزي مثلا في كتابه "أخبار الحمقى والمغفلين"[٣].

وثمة ملاحظة يلاحظها دارس حكايات الجاحظ ، وهي أنه كثيرا ما يعثر على حكايات له في بعض الكتب القديمة المشهورة ، وهو حين يتمعن فيها يجد روح الجاحظ وأسلوبه القصصي ، فاذا أضفنا الى ذلك أن الكتب التي روتها موثّقة عند جمهور الدارسين وأن أياً منهم لم يشك في صحة نسبة الحكايات الى الجاحظ. وانما يرويها على أنها له ـ فانه يكون من حق هذه الحكايات على الدارس ان يتناولها في دراسته، مثلها مثل الحكايات الموجودة في كتب الجاحظ التي عثر عليها، وهي ثابتة النسبة اليه.

---

(١) المرجع السابق ص ٤٥

(٢) د. جميل جبر ، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره ، ص ٩٢ (دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ ١٩٧٤).

(٣) أنظر مثال ذلك في كتاب الحمقى لابن الجوزي ، الصفحات : ٨٩ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، (أخبار الحمقى والمغفلين ـ مكتبة الغزالي ـ بيروت ـ لبنان "د.ت").

٣٠ دور الحكـايـة في أدب الجاحـظ

حين نحاول أن نتعرف طبيعة الدور الذي تؤديه الحكاية في أدب الجاحظ ، كما قصد هو منها، أو مثلما تبدو عليه حقا في كتبه، فاننا لا بد أن نتوقـف أولا عند سمة بارزة تلفت في حكاياته جميعها، وهي ميلها الظاهر الى الفكاهـة أو السخرية (١)، والحق أن هذه السمة يمكن أن نلاحظها ليس في الحكايات فقط ، وانما في أدب الجاحظ عامة ، فالجاحظ كما يقول الدكتور عبد الكريم اليافي "مدينة الضحك مزج الفكاهـة في كل ما كتب ، وحرص على النادرة في جميع الاحوال ، ولا يزال جرس ابتسامته الذكية ، وقهقهة ضحكه الجاهر، يهزجان في احقاب العصور المتطاولة "(٢).

وحين نتأمل ما سجله الجاحظ عن نفسه ، وما أوردته الكتب القديمة من سيرته ، نلحظ أن روح الفكاهة والسخرية يشيع في معظم ما كان يصدر عنه من تصرفات، حتى ان هذا الروح لم يكن يفارقه في اللحظات الحرجة من حياته ، مما يجعلنا نرجح أن النزوع الى الضحك شعور متغلغل في تكوين طبيعته . ومثال ذلك ما يروى عن هربه ، حين ظفر القاضي أحمد بن أبي دُؤاد بصديقه الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، فألقاه في تنـور . فقد سئل الجاحظ في أثناء ذلك "لم هربت ؟. فقال: خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور"(٣) ولكن الوزير أحمد بن أبي دؤاد سرعان ما أمر بالبحث عنه ، فألقي القبض عليه ، وسيق اليه مقيداً، ولما أدخل عليه ، ابتدره الوزير الجديد مقرعا بقوله : "والله ما علمتك الا متناسيا للنعمة ، كفورا للصنيعة ، معدّداً للمساوىء، وما فتني باستصلاحي لك، ولكن الايام لا تصلح منك لفساد طويتك ورداءة داخلتك ، وسوء اختيـارك ، وتغالـب طبعك (٤)فرد الجاحظ عليه بقوله : "خفف عليك ، أيدك الله . فو الله لان يكون لك الامر عليّ خير من أن يكون لي عليك ، ولان أسيء وتحسن ، أحسن عنك من أن أحسن فتسيء، وأن تعفو عني في حال قدرتك ، أجمل من الانتقام مني ، فقال له ابن أبي دؤاد: قبحـك الله ما علمتك الا كثير تزويق الكلام، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ، ثم اصطفيت فيـه النفاق والكفر، ما تأويل هذه الآية : "وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمـة ، ان

---

(١) يفرق بعض المفكرين المحدثين مثل برغسون واسبينوزا بين الفكاهة والسخرية بالقـول: ان ضحك الفكاهة يدل على الفرح والشعور بالخير، فهو، ضحك بريء للمتعة والسرور ، بينما ضحك السخرية ينطوي على نقد خفي ، وقصاص مغلف بالرثاء والاشفاق .(أنظـر الفكاهة في الادب للدكتور أحمد محمد الحوفي ص ٢٩٠ ، دار نهضة مصر، القاهرة (١٩٦١) ودراسات فنية في الادب العربي للدكتور عبد الكريم اليافي ص ٨٢ ط٢ وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٢).

(٢) دراسات فنية في الادب العربي ص ٥٦ (٣) ياقوت الحموي ، معجم الادباء ج١٦ ، ص ٧٦. (٤) المصدر السابق ج١٦ ، ص ٨٠

أخذه أليم شديد" (١) قال: تلاوتها تأويلها ـ أعز الله القاضي ـ فقال: جيئوا بحداد، فقال: أعز الله القاضي، ليفك عني أو ليزيدني؟ فقال: بل ليفك عنك، فجيء بالحداد فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ، ويطيل أمره قليلا، فلطمه الجاحظ وقال: أعمل عمل شهر في يوم، وعمل يوم في ساعة، وعمل ساعة في لحظة، فان الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجه، فضحك ابن أبي دوءاد، وأهل المجلس منه" (٢). على هذا النحو يبدو أن نزعته الى الضحك كانت تلازمه في الظروف الصعبة، مما يدل على أنها ميل أصيل في تركيب مزاجه... بيد أن الجاحظ ـ فضلا عن ذلك ـ كان يؤمن بجدوى الضحك ايمانا عقليا خالصاً، يستند الى تأمل واقع حياة الانسان، وفهمه طبيعة النفس البشرية، واذا كان "الهزل بصفة عامة، مكروهاً عند العرب، لعدم ملاءمته للحلم والوقار" (٣)، واذا كان الادب ـ كما يلاحظ العقاد ـ يعني في لغة الادب العربي: السمت واللياقة ومن ثم فقد كان الاديب العربي يعالج موضوع الفكاهة بحذر وتقية (٤) ـ فاننا لذلك نرى الجاحظ في كتبه يسوّغ نزوعه الى الضحك، فيدافع عنه، ويعدد فوائده، ويحتج له بأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحين ضحكوا ومزحوا (٥). وقد لاحظ بعض الدارسين المحدثين أن الجاحظ " حاول قبل برغسون بأكثر من ألف سنة ان يمذهب الضحك دارسا مقدماته وخواتيمه " (٦)، ويتفق الدكتور عبد الكريم اليافي (٧) والدكتور أحمد الحوفي (٨) على أن الجاحظ أشار في وضوح الى أن الضحك ظاهرة اجتماعية في ختام حكاية محفوظ النقاش، حين يقفلها بالقول "... فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة... ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به، لاتى علي الضحك أو لقضى علي، ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الاصحاب " (٩). وقد كان الجاحظ يميل بطبيعته الى المرح، كما أنه أدرك بحكمته نفسية البشر وما ينفعهم وما يفرحهم وما يخملهم ويحمسهم" (١٠). ولذلك فانه في كتبه العلمية والفكرية والادبية الجادة كان يخشى ملل القارىء، ويرى من الضروري أن تتخلل تلك الكتب حكايات طريفة، واشعار عذبة، وقد لاحظ ذلك في القديم، المسعودي فقال عن الجاحظ "وكان اذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جد الى هزل ومن حكمة بليغة الى نادرة طريفة" (١١). والجاحظ في كتبه يجاهر برأيه في ذلك، فهو يقول في الحيوان مثلا: "على أني عزمت والله الموفق ـ ان أوشح هذا الكتاب، وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر، وضروب الاحاديث، ليخرج قارىء هذا الكتاب من باب الى باب،

---

(١) سورة هود، آية ١٠٢ (٢) ياقوت الحموي، معجم الادباء ج١٦، ص ٨٠

(٣) شارل بلا، اصالة الجاحظ، ص ٢٣ (٤) دراسات في المذاهب الادبية والاجتماعية ص ٧١ ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ـ ١٩٦٧. (٥) أنظر مقدمة البخلاء ص ٦، تحقيق الحاجري (٦) جميل جبر، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، ص ١٥٢

(٧) دراسات فنية في الادب العربي، ص ٨٨ (٨) الفكاهة في الادب، ص ١١

(٩) البخلاء، ص ١٢٣ (١٠) محمدكرد علي، أمراء البيان، ص ٤١٣، ط٣، دار الامانة، دمشق ١٩٦٩

(١١) مروج الذهب، ج٢، ص ٤٧١، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، منشورات كتاب التحرير ـ القاهرة ـ ١٩٦٧.

ومن شكل الى شكل ، فاني رأيت الاسماع تمل الاصوات المطربة والاغاني الحسنة والاوتار الفصيحة اذا طال ذلك عليها، وما ذلك الا في طريق الراحة ، اذا طالت أورثت الغفلة "(١). على هذا النحو يحدد الهدف من ايراد الاحاديث والشعر وهو ذود الملل عن القارىء الذي ينجم عن الرتابة ، وخوض البحوث الجادة الطويلة ، فالنفس كما يقول الجاحظ في احدى رسائله : «من شأنها الملالة لما طال عليها، وأكثر عندها»(٢)، والرتابة أيضا في رأيه مدعاة للضجر(٣). والجاحظ اذ يحدد هذا الهدف ، ويعبر مراراً عن ايمانه به ، فانه في الغالب يتبع الوسيلة السابقة في تحقيقه ، أي ايراد الحكايات الطريفة والاشعار الرقيقة والنوادر المضحكة بين حين وحين ، كلما قدّر أن الضجر تسرب الى نفس قارئه ، ويبدو أن الجاحظ كان يتحقق من استحسان القارىء لاسلوبه ونهجه ، وآية ذلك أنه يقول في البيان والتبيين: "كانت العادة في كتب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الاعراب ونوادر الاشعار، لما ذكرت عجبك بذلك ، فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر ان شاء الله "(٤).

والجاحظ يخبرنا أنه يقصد قصدا الى بث الحكايات والنوادر هنا وهناك في تضاعيف كتبه ، دون أن تكون مجموعة في مكان واحد، ويبين السبب بقوله : "أحببنا أن لا يكون ذلك مجموعا في مكان واحد، ابقاء على نشاط القارىء والمستمع"(٥).

وهذه الحكايات والنوادر تتضافر مع الاشعار والنوادر لتؤدي جميعا دورا واحدا مقصودا في أدب الجاحظ ، هو امتاع القارىء وتشويقه ، وذود الضجر عنه . فهي معا "وسيلة للتنفيس والتخفيف ، لاسترداد النشاط والاقتدار"(٦). بيد أننا حين نتمعن في كتب الجاحظ المختلفة . نلحظ أنه يعطي الحكاية الاهمية القصوى دون غيرها، لتأدية ذلك الدور أو الهدف المنشود، فهو يكثر من سرد الحكايات اكثاراً لافتاً في كتبه ورسائله ، وهذا واضح في كتابه الحيوان مثلا، فهو فيه يترك أحاديثه العلمية والفكرية الجافة . كما يلاحظ مارون عبود بحق ، ليستطرد الى حكايات تنفي الملل عن القارىء"(٧)، وقد يخطر أحيانا بعد الانتهاء من استطراده القصصي الى الاعتذار، كأن يقول "ليس هذا ــ حفظك الله تعالى ــ من الباب الذي كنا فيه ، ولكنه كان مستراحا وجماما"(٨). فهو حين يتحدث

---

(١) الحيوان ، ج٣ ، ص ٧ (٢) أنظر رسالته الى أبي عبد الله بن أبي دوءاد رسائل الجاحظ ، ج١ ، ص ٣١٨ ــ تحقيق عبد السلام هارون.

(٣) أنظر التربيع والتدوير، ص ٧٤ ، تحقيق شارل بلا .

(٤) البيان والتبيين ،ج٣ ، ص ٣٠٢ ــ تحقيق عبد السلام هارون

(٥) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٣٠٢ (٦) د. وديعة طه نجم ــ الجاحظ ، ص ٦٩

(٧) أدب العرب ، ص ٢٨٦ ، ط٣ ، دار الثقافة ــ بيروت ــ ١٩٧٩.

(٨) الحيوان ، ج٦ ، ص ٢٦٤ ــ تحقيق عبد السلام هارون.

عن الذباب مثلا حديثا علميا، ويأتي عرضاً على ذكر شخص يعرفه يدعى المكي ، يترك حديثه العلمي بغتة ، ليستطرد الى حكايات عنه قائلا: "واذ جرى ذكره ، فسأحدثك ببعض أحاديثه وأخبرك عن بعض علله ، لتلهى بها ساعة ، ثم نعود الى بقية ذكر الذبان. "(١).

نخلص من ذلك كله الى أن الجاحظ كان يقصد من الحكاية في أدبه أن تكون مستراحاً وجماماً من عناء البحث الجاد، وواحة يفيء اليها القارىء بين حين وحين ، كي يروّح عن النفس ويجدد الحماسة والنشاط ، وهذا ما جعله ينأى بها عن دواعي الجد والكآبة ، ويوفر لها أسباب الضحك والمرح، وهو في سبيل هذه الغاية المقصودة ، لا تهمه الوسيلة ، حتى أنه أحيانا يشعر أنه تسخّف في مضمون بعض الحكايات ، وحينئذ نراه يعتذر لغايته التي يقصد اليها، نحو قوله إثر سرد حكايات ذات مضامين مكشوفة "وقد تسخفنا في هذه الاحاديث ، واستجزنا ذلك بما تقدم من العذر"(٢)، أو نحو قوله في كتاب "مفاخرة الجواري والغلمان" يسوّغ سرده حكايات جنسية جريئة "وقد ذكرنا في آخر كتابنا هذا مقتطعات من أحاديث البطالين والظرفاء ، ليزيد القارىء لهذا الكتاب نشاطا، ويذهب عنه الفتور والكلال ، ولا قوة الا بالله"(٣). بيد أن هذا لا يعني البتة أن الجاحظ كان يضع حكاياته خصّيصاً ، من أجل الدور الذي تؤديه في أدبه ، فهي لدى دراستها والتمعن فيها تبدو لا يعتورها في الغالب أي تكلف لغاية ، وانما هي استجابة طبيعية لالحاح الموهبة القصصية الحقة ، وآية ذلك أنها تكون في بعض كتب الجاحظ كالبخلاء ـ هي الغاية المقصودة من وراء تأليف الكتاب .

---

(١) الحيوان ج ٣ ، ص ٣٢٦

(٢) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٣٨

(٣) ص ٥٦ ، تحقيق شارل بلا

٤. نظرة عامة في حكايات الجاحظ

حين نقرأ كتب الجاحظ ، ونصادف خلال ذلك حكاياته المختلفة ، فان هذه الحكايات تلفتنا ... في الغالب ، وتشدنا اليها بطابعها المرح. وهي تغرينا أحيانا بالتوقف عندها ، لنتمعن في أساليبها القصصية المتبعة. ونحن اذ نلقي عليها نظرة متفحصة نلحظ أنها ثمرة موهبة قصصية تسمها بميسمها الخاص ، وتطبعها بطابعها المميز. كذلك نلحظ أن هذه الحكايات جميعها يمكن أن تصنف الى ثلاثة أنواع رئيسية :
أما النوع الاول منها فنجد أن الجاحظ يرويه عن غيره ، كما يبدو من الاسناد في بداية الحكاية ، ويلاحظ أن الحكايات فيه تكون مطبوعة بطابع قصصي خاص أو متشابه ، مهما تتعدد الاسماء ، وتختلف الاسانيد ، مما يدل على أن هذه الحكايات قد أخضعها الجاحظ لمزاجه الفني. وتمثلتها موهبته القصصية ، قبل أن يكتبها ، وإن كان قد سمعها من غيره ، فهو قد نفخ فيها من روحه ، وعالجها بأسلوبه ، حتى بدت كأنه خلقها خلقاً جديداً .

ويمكن أن نلمس ذلك منه واضحاً في هذا النوع من الحكايات ، حين نراه يعالج بحكاية من حكاياته موقفاً بسيطاً أو عادياً ، فاذا به - كما لاحظ في القديم معاصره ابن قتيبة - "أشد الكتاب تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم"(١) ، واذا بهذا الموقف البسيط العادي يتوهج من خلال قلمه ومعالجته حكاية ممتعة ، على النحو الذي يبدو في هذه الحكاية المسندة الى دعبل الشاعر ، والتي يقيمها الجاحظ على أمر عادي بسيط ، فتظهر فيها شخصيته القصصية الخاصة قوية جلية : "قال دعبل الشاعر: أقمنا عند سهل بن هارون فلم نبرح ، حتى كدنا نموت من الجوع ، فلما اضطررناه قال: يا غلام ، ويلك غدنا. قال: فأُتينا بقَصْعة ، فيها مرق فيه لحم ديك ، عاسٍ(٢) هرم ، ليس قبلها ولا بعدها غيرها. لا تحز فيه السكين ، ولا تؤثر فيه الاضراس فأطلع في القصعة ، وقلب نظره فيها ، ثم أخذ قطعة خبز يابس ، فقلب جميع ما في القصعة ، حتى فقد الرأس من الديك وحده ، فبقي مطرقاً ساعة ، ثم رفع رأسه الى الغلام ، فقال: أين الرأس؟ فقال: رميت به ، قال: ولم رميت به؟ قال: لم أظنك تأكله. قال: ولأي شيء ظننت أني لا آكله؟ فو الله اني لامقت من يرمي برجليه ، فكيف من يرمي برأسه. ثم قال له: لو لم أكبره ما صنعت الا للطيرة والفأل لكرهته. الرأس رئيس ، وفيه الحواس ، ومنه يصدح الديك ، وعينه التي يضرب بها المثل ، يقال: شراب كعين الديك ، ودماغه عجيب لوجع الكلية ، ولم أر عظما قط أهش تحت الاسنان من عظم رأسه ، فهلا اذا ظننت أني لا آكله ، ظننت أن العيال يأكلونه. وان كان بلغ من نبلك أنك لا تأكله ، فان عندنا من يأكله ، أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ، ومن الساق والعنق ... أنظر أين هو. قال (الغلام): والله

---

(١) تأويل مختلف الحديث ، ص ٤١ ، تصحيح وضبط محمد زهري النجار.
(٢) العاسي : الذي أسن حتى صلب وجف .

ما أدري أين رميت بـه . قال: لكني أدري ، انك رميت به في بطنك والله حسيبك"(١).

ففي هذه الحكاية المسندة ومثلها، سواء أكان الجاحظ التقط مادتها من غيره ، أم أنه لفّق لها الاسناد، فان الذي يهمنا ان نلاحظه فيها: كيف أقام حبكة الحكاية على أمر عادي ومدى ما أداه الحوار من دور في تطويرها، واضفاء طلاوة عليها، والاسلوب القصصي الذي اتبعه الجاحظ في رسم شخصيتها "سهل بن هارون"(٢). فقد بدأت الحكاية بحدث عادي بسيط ولكن لنتبين بعد قليل أنه يبدو مأزقا للشخصية، ومن ثم نراها تصارع للخروج منه. وفي أثناء ذلك تتضح أبعادها شيئا فشيئا، من خلال الحوار فقط ، دون اللجوء الى المباشرة. وعلى الرغم من أن الحكاية يرويها الجاحظ عن دعبل الخزاعي ، غير أنه يمكن القول: ان روح الجاحظ القصصي واضح فيها وضوحه في أية حكاية أخرى مسندة لغير دعبل ، وبطلها غير سهل بن هارون ، وذلك كحكاياته التي تصور البخل والبخلاء. فشخصية البخيل الظريف ، وأسلوب الحجاج المنطقي في ضرورة الحرص والاقتصاد ، وروح المرح الذي يمور في الحكاية ، يذكرنا ببخلاء الجاحظ المشهورين من أمثال: الكندي والحزامي والثوري وتمام بن جعفر(٣) حتى اننا نظن أننا لو قدمنا الحكاية لقارىء على شيء من الدراية بأدب الجاحظ ، فانه في الغالب لن يخطيء في نسبتها اليه، وان كان قد يردها الى كتاب البخلاء وليس الى الحيوان.

ويظهر مدى تصرف الجاحظ في ما كان يسمع من حكايات حين يتاح للدارس أن يقابل بين حكاية أوردها هو، وأوردها كاتب آخر عن مصدر الرواية نفسه أو عن غيره ومن خلال المقابلة ، يمكن ملاحظة مدى ما تتميز به موهبة الجاحظ القصصية من غيره ، أي على نحو ما يمكن أن نلحظ في هذه الحكاية التي رواها كل من الجاحظ وابن قتيبة عن مصدر واحد، هو أبو عبيدة ، أما ابن قتيبة فانه يروي الحكاية على هذا النحو ".. كان أبو عبيدة يذكر أن رجلين سافرا، ومع احدهما كلب له ، فوقع عليهما اللصوص ، فقاتل أحدهما حتى غلب ، وأخذ فدفن ، وترك رأسه بارزاً ، وجاءت الغربان ، وسباع الطير،

---

(١) الحيوان ، ج٢ ، ص ٢٧٥ - تحقيق عبد السلام هارون

(٢) من المشهور عن سهل بن هارون انه كان بخيلا، حتى ان ابن النديم يذكر بأنه كان نهاية في البخل ، وبأنه ألف كتابا للحسن بن سهل يمدح فيه البخل ، ويحبب به (أنظر الفهرست ج٣ ص ١٣٣ - تحقيق رضا - تجدد -) وحجاج سهل المنطقي الذي نجده في حوار الحكاية يتسق و ما هو معروف عنه ، حتى ان الدكتور عبد الحكيم بلبع يرى أنه البذرة التي أنبتت الجاحظ (أنظر النثر الفني (أثر الجاحظ فيه ،ص ١٦٩ ، ط٣ ، الناشر مكتبة وهبة - القاهرة - ١٩٧٥). (٣) أنظر في كتاب البخلاء - تحقيق الحاجري - الصفحات ٨، ٥٩ ، ١٠٣ ، ١١٦ ومع ذلك فقد وهم عبد الله احمد باقازي حين استشهد بحكاية سهل بن هارون والديك على أسلوب سهل في السخرية ، على الرغم من وضوح روح الجاحظ فيها (أنظر كتاب القصة في أدب الجاحظ لعبد الله أحمد باقازي ص ٤٨، سلسلة رسائل جامعية - جدة - ١٩٨٢).

فحامت حوله ، تريد أن تنهشه ، وتقلع عينه ، ورأى ذلك كلب كان معه ، فلم يزل ينبش التراب عنه ، حتى استخرجه ، ومن قبل ذلك فرّ صاحبه واسلمه "(١)، وحين نتمعن في الحكاية كما يرويها ابن قتيبة نلحظ أن اسلوب السرد الاخباري المباشر يغلب عليها ، وأنها تفتقر الى الدقة في التصوير، وأنها تعاني من ضعف في ابراز الحبكة والصراع وفي رسم الشخصية المحورية ، وهو الكلب في الحكاية ، لانها تدور حول وفائه ، فابن قتيبة يذكر في البداية "ان رجلين سافرا ، ومع أحدهما كلب له "، ثم يغفل ذكر هذا الكلب ، بينما الحدث يقع ، وهو اعتداء اللصوص على صاحبه ، ثم يعود بعد أسطر، فيخبرنا من جديد ـ وكأنه نسي أو يفترض فينا أننا نسينا ـ بأن ثمة كلبا كان مع الرجل "ورأى ذلك كلب كان معه" وقد كان أحرى به أن يدخل "ال" العهدية فيقول: "ورأى الكلب" ما دام قد مضى ذكره. .. أما موقف صاحب الرجل من الصراع فهو يغفله خلال ذلك ، ويتركه ليخبرنا عنه بعد انتهاء الحدث أي في قفلة الحكاية "ومن قبل ذلك ، قد فرّ صاحبه وأسلمه" ، ثم نلحظ أن الكلب لا يهبّ لنجدة صاحبه ، الا حين يرى الغربان وسباع الطير تحوم حوله تريد أن تنهشه ، عند ذاك يتحرك نحوه ، ويأخذ ينبش عنه التراب حتى يستخرجه . أما ما موقفه حين كان يُعتدي على صاحبه ؟ وما حال صاحبه حين استخرجه ؟ أكان ميتا أم كان حياً جريحا؟ والام آل اليه أمره بعد استخراجه : أبقي طريحا في العراء أم تحامل على نفسه ونهض أم صادفه من أنقذه ؟ فحكاية ابن قتيبة لا تحاول اضاءة ذلك .

أما الجاحظ فيعالج الحكاية نفسها على هذا النحو "قال أبو عبيدة : قيل : ان رجلا خرج الى الحَبَّان ، ينتظر ركابه ، فاتَّبَعَه كلب كان له ، فضرب الكلب وطرده ، ورماه بحجر، فأبي الكلب الاّ أن يتبعه : فلما صار الى الموضع الذي يريد فيه الانتظار، ربض الكلب قريباً ، فبينما هو كذلك ، اذ أتاه أعداء له ، يطلبونه بطائلة عنده . وكان معه جار له ، وأخوه دُنيا (٢) ، فأسلماه ، وهربا عنه ، فجرح جراحات ، ورمي به في بئر غير بعيدة القعر، ثم حُثي عليه التراب ، ثم غُطي رأسه ، ثم كُمّم فوق رأسه منه ، والكلب في ذلك يَرْخَم (٣) ويَهر، فلما انصرفوا أتي رأس البئر، فما زال يعوي ، وينبش عنه ، ويحثو التراب بيده ، ويكشف عن رأسه ، حتى أظهر رأسه ، فتنفس ، وردت اليه الروح، وقد كاد يموت ، ولم يبق منه الا حُشاشة ، فبينما هو كذلك ، اذ مرّ ناس ، فأنكروا مكان الكلب ، ورأوه كأنه يحفر عن قبر، فنظروا ، فاذا هم بالرجل على تلك الحال ، فاستشالوه (٤)، فأخرجوه حياً، وحملوه حتى أدوه الى أهله"(٥). .. أغلب الظن أن ثمة فرقاً واضحاً بين رواية ابن قتيبة للحكاية ، ومعالجة الجاحظ لها ، ففي حكاية الجاحظ تقاسم الشخصية الحيوانية الشخصية الانسانية المأزق المشترك سواء بسواء. الرجل يقع في مأزق حين يهاجمه أعداوءه بغتة والكلب يقاسمه المأزق أيضاً، اذ يرى ما يحل به ،

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ١٦٦ (٢) أخوه دنيا : الادنى من القرابة

(٣) يرخم : يصوّت ويعوي (٤) استشالوه : رفعوه

(٥) الحيوان ، ج٢ ، ص ١٢٢-١٢٣

دون أن يستطيع مساعدته، لذلك تصوره الحكاية يقف غير بعيد "يرخم ويهر". حتى اذا رأى الاعداء يغادرون المكان، هناك يسرع الى صاحبه، الملقى في البئر، فيبذل جهده في الكشف عن وجهه، لانقاذه من الاختناق، لكنه يقف بعد ذلك أمام صاحبه عاجزاً عن انهاضه أو حمله، والجاحظ يعني بالصراع في الحكاية وهو ما يضفي على الحكاية عنده مزيداً من الحيوية والتشويق، ويتمثّل الصراع في حكايته أولا في مقاومة الكلب لسيده، وباصراره الغريزي على أن يتبعه، على الرغم من أن صاحبه يصده عن ذلك. .. ثم يتمثل الصراع ثانياً في مقاتلة الرجل أعداءه، حين يهاجمونه، بينما يقف كلبه غير بعيد يموّت ويعوي. .. ثم يتمثل أخيرا في صراع الكلب لانقاذ سيده من الموت، حتى ينجح في ذلك. .. وحكاية الجاحظ تحدد المكان "خرج الى الجبّان"، وما يحدث فيها أقرب الى الممكن والمنطق، فالرجل لا يتعرض له ولرفيقيه لصوص، ولكن يداهمه "أعداء له، يطلبونه بطائلة عنده"، ولذلك فهم لا يمكّنونه من الهرب مثل رفيقيه. أما حال الرجل بعد أن يلقى في البئر، وينجده كلبه، فالحكاية لا تغفلها، فهو يصور الرجل كاد يموت اختناقاً، لولا أن أسرع كلبه لانقاذه في آخر لحظة، فلننظر الى دقة الجاحظ في تصوير حال الرجل، وقد نجح كلبه في اظهار رأسه ".. فتنفس، وردت اليه الروح، وقد كاد يموت، ولم يبق منه الا حُشاشه". والجاحظ لا ينهي الحكاية - كما يفعل ابن قتيبة - دون أن يُعرف إلام آل أمر الرجل الجريح. فحسه القصصي يأبى عليه أن يترك الحبكة دون نهاية، ولذلك نرى الصدفة العفوية الممكنة، تتدخل لانقاذ الرجل، إذ من الطبيعي الاّ تخلو الطريق من بعض السالكين بين حين وحين، ومن الطبيعي أيضا أن ينكروا مكان الكلب، حين رأوه كأنه يحفر عن قبر، فنظروا، فاذا هم بالرجل على تلك الحال فاستشالوه، فأخرجوه حيا، وحملوه حتى أدوه الى أهله".

واذا كان من الصعب أن نقرر أي الاديبين أقرب الى حقيقة ما روى أبو عبيدة. فاننا يمكن أن نلاحظ أن الفرق بين روايتي ابن قتيبة والجاحظ، يعود في أحد جوانبه الى الفرق بين من يورد الخبر وبين من يسرد حكاية قصصية.(١)

وتتبدّى موهبة الجاحظ القصصية، في هذا النوع من الحكايات المسندة، عندما يتاح للدارس أيضا أن يوازن بين حكاية من حكاياته والحكاية نفسها عند أديب آخر، [illegible] واسناد مختلف. .. ومثال ذلك حكاية شهيرة، رواها صاحب الاغاني، تصور

---

(١) بل ربما تكون حكاية ابن قتيبة هي أقرب الى حقيقة ما روى أبو عبيدة، لطبيعتها الاخبارية الموجزة، ذلك أننا نشعر أن شخصية الجاحظ واضحة في حكايته، مما يجعلنا نرجح أنه تصرف فيها قليلا بما يتوافق مع مزاجه القصصي، ولعل الذي يساعدنا في هذا الترجيح أننا نجد ابن قتيبة في الكتاب الذي روى فيه الحكاية نفسها يتّهم الجاحظ بوضع الحكايات والتزيّد في روايتها (أنظر تأويل مختلف الحديث صفحة ٤١).

الشاعر ابا حية النميري (ت ـ ١٥٨هـ) في أحد المواقف التي تظهر جبنه ، فقد لاحظنا من خلال التمعن في حكايات الجاحظ أن ثمة حكاية منها، تصور الموقف نفسه الذي تصوره حكاية أبي الفرج، ولكن باسناد يختلف ، ومن خلال شخصية أخرى غير شخصية أبي حية. وهو ما لم نر أيا من القدامى أو المحدثين قد نبّه اليه ـ بحسب ما نعلم ـ واذا كان الجاحظ أقرب زمنا الى أبي حية النميري ، واذا كان هو في "البيان والتبيين" قد توقف عنده ، وسرد بعض الحكايات المضحكة المنسوبة اليه (١)، فانه قد يبدو غريبا أن يدير الجاحظ الحكاية حول غيره ، لو كان الشائع في زمنه أنها تدور حوله حقا. ولعل هذا يرجح رأي بعض الدارسين المحدثين ، حين يذهب الى أن كثيرا من حكايات الجبن والهوج، ألصقت بأبي حية الصاقا (٢).

على أن التحقيق في الامر لا يهمنا كثيرا هنا، وانما الذي يعنينا حقا هو مدى توافر الملامح القصصية في الحكايتين. أما أبو الفرج فانه اذ يورد الحكاية يبدأها باسناد طويل على هذا النحو: "أخبرني الحسن بن علي قال: حدثنا أحمد بن زهير قال: حدثني محمد بن سلام الجمحي، وأخبرني علي بن سليمان الاخفش قال: حدثنا محمد بن يزيد، وأخبرني ابراهيم بن ايوب عن ابن قتيبة قالوا: كان لابي حية سيف يسميه لُعاب المنية ، ليس بينه وبين الخشبة فرق ، وكان من أجبن الناس قال: فحدثني جار له قال: دخل ليلة الى بيته كلب فظنه لصاً، فأشرفت عليه ، وقد انتضى سيفه لعاب المنية ، وهو واقف في وسط الدار، وهو يقول: أيها المغتر بنا ، المجترىء علينا ، بئس والله ما اخترت لنفسك . خير قليل ، وسيف صقيل ، لعاب المنية . الذي سمعت به ، مشهورة ضربته ، لا تخاف نبوته ، أخرج بالعفو عنك ، قبل أن أدخل بالعقوبة عليك . اني والله إن أدع قيسا اليك ، لا تقم لها، وما قيس؟ تملأ والله الفضاء خيلا ورجلا، سبحان الله ما أكثرها وأطيبها. .. فبينا هو كذلك ، اذ خرج كلب ، فقال: الحمد لله الذي مسخك كلبا، وكفاني حربا" (٣).

ونحن حين ندقق في الحكاية السابقة ، كما أوردها أبو الفرج، نلحظ ميلها الى المباشرة في السرد ".. وكان من أجبن الناس ، قال: فحدثني جار له قال"، كذلك فحبكة الحكاية عنده تعاني من هنات ، فهي مثلا لا تمهد التمهيد المنطقي لوقوع الشخصية في المأزق ، وانما ترينا اياه يقع فيه ، من خلال عبارات قليلة غامضة : "دخل ليلة الى بيته كلب ، فظنه لصا ، فأشرفت عليه وقد انتضى سيفه لعاب المنية ، وهو واقف وسط الدار يقول .. الخ". أما كيف دخل الكلب البيت ؟ وأين كان أبو حية حين دخل ، حتى توهمه لصا ؟. فالحكاية لا تُعنى باضاءة ذلك ، وصورة الشخصية فيها غير واضحة

---

(١) أنظر البيان والتبيين ، ج٢ ص ٢٢٩ ـ تحقيق عبد السلام هارون (٢) أنظر د.مصطفى الشكعة ، رحلة الشعر من الاموية الى العباسية ، ص ٣٤٥-٣٤٦، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧١. (٣) أبوالفرج الاصفهاني، الاغاني ج١٦ ص ٣٠٧-٣٠٨ ـ مؤسسة جمّال للطباعة والنشر ـ بيروت ـ (بلا تاريخ).

الابعاد، أو الملامح. والحكاية تفتقر الى الحوار، وأما ما يصدر فيها عن أبي حية من قول ، فهو أشبه بخطاب يلقى بليغا منمق العبارات ، مسجوع الخاتمة ، يلقيه وكأنه يستظهره استظهارا!

أما الجاحظ فيعالج الموقف نفسه باحدى حكاياته على هذا النحو: "قال بشر ابن سعيد: كان بالبصرة شيخ من بني نهشل ، يقال له: عروة بن مرثد، نزل ببني أخت له في سكة بني مازن ، وبنو أخته من قريش ، فخرج رجالهم الى ضياعهم، وذلك في شهر رمضان ، وبقيت النساء يصلين في مسجدهم، فلم يبق في الدار الا كلب يَعُسّ (١)، فرأى بيتا فدخل ، وانصفق الباب ، فسمع الحركة بعض الاماء، فظن أن لصاً دخل الدار، فذهبت احداهن الى أبي الاعز، وليس في الحي رجل غيره ، فأخبرته . فقال أبو الاعز: ما يبتغي اللص منا؟ .. ثم أخذ عصاه وجاء، حتى وقف على باب البيت فقال: ايه يا ملأمان أما والله انك بي لعارف ، واني بك أيضا لعارف ، فهل أنت الا من لصوص بني مازن ، شربت حامضا خبيثا، حتى اذا دارت الاقداح في رأسك ، منّتك نفسك الاماني ، وقلت : دور بني عمرو، والرجال خلوف ، والنساء يصلين في مسجدهم فاسرقهن. سوءة والله . ما يفعل هذا الاحرار، لبئس والله ما منتك نفسك ، فاخرج والا دخلت عليك ، فَصَرَمْتك(٢) مني بالعقوبة . .. لايم الله لتخرجن أو لاهتفن هتفة مشؤومة عليك ، يلتقي فيها الحيان: عمرو وحنظلة ، ويصير أمرك الى تَباب ، ويجيء سعد بعدد الحصى ، ويسيل عليك الرجال من هاهنا وهاهنا. ولئن فعلت لتكونن أشأم مولود في بني تميم.

فلما رأى أنه لا يجيبه أخذ باللين ، وقال: أخرج يا بني، وأنت مستور ، اني والله ما أراك تعرفني. ولو عرفتني لقد قنعت بقولي ، واطمأننت الى: أنا عروة بن مرثد، أبو الاعز المرثدي ، وأنا خادم القوم، وجلدة ما بين أعينهم (٣) ، لا يعصونني في أمر، وأنا لك بالذمة كفيل خبير، أصيرك بين شحمة أذني ، وعاتقي لا تضار. فاخرج فأنت في ذمتي ، والا فان عندي قوصرتين (٤)، احداهما لابن أختي البار الوصول ، فخذ أحدهما، فانتبذها حلالا من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وكان الكلب اذا سمع الكلام أطرق ، واذا سكت وثب يريغ المخرج. فَتَهافت (٥) الاعرابي ، ثم قال: يا ألأم الناس وأوضعهم، ألا يأني لك أنّا منذ الليلة في واد،وأنت في آخر، اذا قلت لك: السوداء والبيضاء، تسكت وتطرق ، فاذا سكت عنك تريغ المخرج ؟ .. والله لتخرجن بالعفو عنك ، أو لألجن عليك البيت بالعقوبة . .. فلما طال وقوفه

---

(١) يَعُس : يطوف ليلا ، (والفعل يوحي بأن زمن الحكاية هو الليل).

(٢) صرمتك : عاقبتك عقوبة صارمة . (٣) يقال هو جلدة ما بين العين والانف ،أي مثلها في مكان العزة والقرب. (٤) القوصرة : وعاء من قصب يجعل فيه التمر

(٥) تهافت الاعرابي : أي تساقط من فرط الخوف

جاءت جارية من اماء الحي فقالت : أعرابي مجنون . والله ما أري في البيت شيئاً . ودفعت الباب ، فخرج الكلب شداً ، وحاد عنه أبو الاعز مستلقياً . وقال: الحمد لله الذي مسخك كلباً ، وكفاني منك حرباً ، ثم قال : تا الله ما رأيت كالليلة ، ما أراه كلباً ! .."أما والله لو علمت بحاله لولجت عليه "(١).

أغلب الظن أن ثمة فرقاً بين معالجة الجاحظ للحكاية ، وبين سرد أبي الفرج لها ، فالجاحظ في حكايته قد عني عناية فائقة بالحبكة ، حتى بدت ناجمة عن تشابك منطقي لاحداث مختلفة ، ممكنة الوقوع . فقد مهد لها تمهيدا مناسبا ، حتى بدا طبيعيا في ظل ذلك الظرف وتلك الملابسات التي نراها في البداية - ان تفزع الإماء الى أبي الاعز الضيف ، لاخراج اللص واقتحام المنزل ، ما دام لم يبق من الرجال في الحي سواه .. ومن المعقول أن الضيف عروة بن مرثد لا يستطيع أن يتقاعس ، وأن يهب دون تردد ، فيأخذ عصاه .. وهو يتساءل "وما يبتغي اللص منا ؟!" ولكن ليجد نفسه في النهاية قد زُجّ به ، ووُرِّط في مأزق ، لا يدري كيف يخرج منه .. .. وصورة الشخصية في الحكاية تبدو واضحة الملامح ، تنبض بالحياة ، فهي مرسومة في براعة ، والجاحظ لا يعمد في أثناء ذلك الى المباشرة ، وانما يترك ابعاد الشخصية تتكشف شيئاً فشيئاً من خلال ما يبدر عنها من تصرف أو قول خلال صراعها للمأزق الذي تواجهه .. والجاحظ في حكايته لا يغفل عن الاشارة الى المكان والزمان . فالمكان الذي تدور فيه الحكاية هو سكة بني مازن بالقرب من البصرة ، وزمانها شهر رمضان ، في ليلة من لياليه ، يوحي بذلك الفعل "يعس" ، ومحاورة عروة للكلب أو للص الموهوم لا تسير على وتيرة واحدة - كما في حكاية أبي الفرج -(٢) لكنها تتنوع ، فتتفاوت النغمة بين حين وحين . فأبو الاعز ينزع في البداية الى التهديد ، وحين يرى لا فائدة ، يتحول الى اللين . فيعمد الى لهجة قريبة من الرجاء "أخرج يا بني وأنت مستور ، اني والله ما أراك تعرفني ، ولو عرفتني لقد قنعت بقولي ، واطمأننت الي .. الخ" . .. ثم يعاود كرة أخرى التهديد والوعيد .

والجاحظ لا يغفل في حكايته عن الكلب الذي كان يشارك عروة المأزق فهو "كان اذا سمع الكلام أطرق ، واذا سكت (عروة) وثب يريغ المخرج" ، فالكلب الذي انصفق الباب إثْر دخوله ، كان يشعر بغريزته أنه في مأزق ، ومن ثم كان يتلمس منفذا للخروج . وقد لاحظنا في حكاية أبي الفرج أن ضعف الحبكة قد نجم عنه بدوره ضعف في نهاية الحكاية . فالكلب الذي لا ندري في بدايتها كيف دخل ، حتى توهمه أبو حية لصا ، نجده يخرج بغتة ، بينما أبو حية يخاطبه ، ومن ثم نرى أبا حية يختم خطابه البليغ بعبارة مسجوعة ، دون أن نلمس أثرا من انفعال في نفسه أو في حركة جسمه في أثناء وقوع المفاجأة ، أي على هذا النحو الباهت "فبينا هو كذلك ، اذ خرج الكلب ، فقال: الحمد لله الذي

---

(١) الحيوان ، ج٢ ص ٢٣١-٢٣٣ - تحقيق عبد السلام هارون (٢) والغريب ان الابشيهي أوردالحكاية كما أوردها أبوالفرج ،لكنه جعلهاتدور على أبي حنيفة النميري لا على أبي حية (المستطرف ج١، دار احياء التراث العربي (د.ت) ص : ٢٢٩ .

مسخك كلبا، وكفاني حربا"، وأما في حكاية الجاحظ فيلاحظ أن حبكتها المتقنة قد تبعتها أيضا نهاية قوية، فالكلب المحصور نراه في الحكاية يريغ المخرج، لكنه لا يستطيع أن يفتح الباب المنصفق، وعروة بن مرشد يخاطب اللص الموهوم وهو لا يجروء على فتح الباب أيضا، ومعنى ذلك أن كليهما كان يعاني المأزق، ويتلمس سبيل الخلاص، وهنا يتدخل عامل خارجي، لم يكن بالحسبان، حين تضيق احدى الاماء ذرعاً بجبن عروة وتردده، فتندفع وتفتح الباب، حتى اذا تجلّت المفاجأة لعروة، فاننا نلحظ الجاحظ يعني بتصوير لحظة المباغتة وأثرها في حركته، وفي حركة الكلب أيضا. "ودفعت الباب، فخرج الكلب شدا، وحاد عنه أبو الاعز مستلقيا"، .. وفضلا عن العبارة المسجوعة التي يقفل بها أبو الفرج حكايته، فان الجاحظ يحرص على تصوير الواقع النفسي لشخصيته بُعَيد المفاجأة، فهو في غمرة انشداهه، يبوح بخوفه الذي كان يحاول أن يخفيه، فيقول كالمخاطب نفسه " .. تا الله ما رأيت كالليلة، ما أراه كلبا! .. أما والله لو علمت بحاله لولجت عليه".

على هذا النحو من المقابلة بين حكايات كان يرويها الجاحظ وكان يرويها أدباء آخرون أيضا، يمكن للدارس أن يستشف من خلال ذلك أن الجاحظ في حكاياته المسندة، كان يخضع الحكاية التي يسمعها لذوقه الشخصي في الغالب، ولمزاجه الفني، ويتصرف فيها حذفا واضافة وترتيباً، فلا يخرجها الا بعد أن يرضى عنها، وينفخ فيها من روحه، وهو ما دعا الحاجري الى القول "كانت الرواية عند الجاحظ خاضعة لذوقه الادبي ونزعته الفنية"(١).

** *** **

وأما النوع الثاني من حكايات الجاحظ فانه لا ينقل فيه الحكاية من غيره، لانه لا يثبت فيها اسناداً، ويدخل هو نفسه طرفاً أساسياً فيها. فهو في هذا النوع من الحكايات يحكي في الغالب احدى تجاربه الماضية، أو يصور موقفا طريفا بينه وبين أحد الاشخاص، وتتجلى براعة الجاحظ القصصية من خلال الحوار في هذا النوع. فهو حين يستهجن أمرا في شخص صادفه، أو يستطرف منه شيئا، يتوجه اليه بالسوء ال تلو السوء ال، حتى يتمكن من خلال الدعابة والاسئلة والإجابة أن يخلق الحكاية الطريفة في النهاية. ومثال ذلك هذه الحكاية التي تصور موقفا بين الجاحظ وأحد أصدقائه الذي كان يعرف منه - فيما يبدو - عنجهيته العربية، ومبالغته في الاعتداد بنسبه وبذاته. "أتيت الربيع الغنوي، وكان من أفصح الناس وأبلغهم، ومعي رجل من بني هاشم فقلت: أأبو الربيع هنا؟ فخرج الي وهو يقول: خرج اليك رجل كريم، فلما رأى الهاشمي، استحيا من فخره بحضرته، فقال: أكرم الناس رَديفاً، وأشرفهم حَليفا، فتحدثنا مليا ثم نهض

---

(١) مقدمة البخلاء، ص٢٠، ط٦

الهاشمي ، فقلت لابي الربيع : يا أبا الربيع من خير الخلق؟ قال: الناس والله .

قلت : من خير الناس ؟

قال : العرب والله .

قلت : فمن خير العرب ؟

قال : مضر والله .

قلت : فمن خير مضر ؟ قال : قيس والله .

قلت : فمن خير قيس ؟ قال : يعصر والله .

قلت : فمن يعصر ؟

قال : غنى والله ؟ قلت : فمن خير غنى ؟

قال : المخاطب لك والله .

قلت : أفأنت خير الناس ؟

قال : نعم ، أي والله .

قلت : أيسرك أن تحتك بنت يزيد بن المهلب ؟

قال : لا والله .

قلت : ولك ألف دينار ؟

قال : لا والله .

قلت : فألفا دينار ؟

قال : لا والله .

قلت : ولك الجنة ؟

.. فأطرق ، ثم قال : على أن لا تلد مني"(١)

على هذا النحو تبدو أكثر حكايات هذا النوع ، فالحوار فيه يطغى على السرد في الحكاية ، ويقوم الحوار في الغالب على السؤال والجواب ، في اطار من المعابثة والدعابة (٢) ، .. وأما القليل الباقي فنرى الجاحظ يحكي فيه بعض تجاربه الماضية .

ويلاحظ في حكايات هذا النوع ، أن الجاحظ لا يروي عن غيره ، وأنه هو الذي أنشأ الحكاية ، فهو طرف أساسي فيها ، ولكننا على الرغم من ذلك لا نستطيع أن نقرر: أحدثت الحكاية حقا أم أنها من وحي ابداع موهبة الجاحظ القصصية ؟ كذلك لا نستطيع أن نقرر أيضا ، اذا كانت الحكاية حدثت في الواقع : أحدثت على النحو الذي في الحكاية أم أن الجاحظ صاغ ذلك صياغة جديدة ، فحوّر وغيّر فيه حين كتبه ؟

وتبدو موهبة الجاحظ في ابداع حكاية الحوار في اللحظة نفسها التي كانت تقع فيها ، حين يتاح للحكاية أن يرويها الطرف الاخر الذي كان الجاحظ يحاوره ويعابثه ، نحو

---

(١) المبرد ، الكامل في الادب ، ج١ ص ٣٧ ، تحقيق لجنة من الاساتذة ، الناشر مكتبة المعارف - بيروت - ١٩٧٥ . (٢) انظر أيضا حكاية الحارس أبي خزيمة (الحيوان ج٣ ص ٢٨) والبيان والتبيين ج٤ ص ٢٤ - تحقيق عبد السلام هارون .

الحكاية التي يرويها سلام بن يزيد الاندلسي عنه، اذ يلتقي به أول لقاء، فيدهش، ويسأل سوء الا يستهجنه الجاحظ منه. وحينئذ يجبهه بأسئلة فيها تهكم ودعابة، يتبدّى فيها روح الجاحظ المعهود في أكثر حكايات هذا النوع، قال سلام بن يزيد سألت "عن منزله فأرشدت، ودخلت اليه، فاذا هو جالس، وحواليه عشرون صبيا، ليس فيهم ذو لحية غيره، فدهشت، فقلت : أيكم أبو عثمان ؟ فرفع يده، وحركها في وجهي وقال : من أين ؟.

قلت : من الاندلس.

فقال: طينة حمقاء، فما الاسم ؟

قلت : سلام.

قال : اسم كلب القرّاد. ابن من ؟

قلت : ابن يزيد.

قال : بحق ما صرت، أبو من ؟

قلت : أبو خلف.

قال : كنية قرد زبيدة، ما جئت تطلب ؟

قلت : العلم.

قال : ارجع بوقت، فانك لا تفلح.

قلت له : ما أنصفتني، فقد اشتملت على خصال أربع، جفاء البلدية، وبعد الشقة، وغرة الحداثة، ودهشة الداخل.

قال : فترى حولي عشرين صبيا، ليس فيهم ذو لحية غيري، ما كان يجب أن تعرفني بها"(١)؟!

** *** **

وأما النوع الثالث من الحكايات، فهو نوع يبدو أن الجاحظ لم يسمع فيه الحكاية من غيره، كما أنه ليس طرفا فيه. وانما يستوحي به جانبا من الواقع الاجتماعي في زمنه، أو حدثا من أحداث التاريخ الاسلامي القريبة من عصره. ولذلك فان حكايات هذا النوع هي في الغالب ثمرة تأمل وتعمق، لان الجاحظ يصور بها أخطر قضايا مجتمعه، وأكثرها تغلغلا وخفاء، ولعل الذي ساعده في ذلك أنه "استطاع أن يخالط طبقات الشعب، فيعرف دخائلها وأسرارها، وطرائقها في العيش، وما يشيع فيها من الخلق (٢). وقد أتاحت له هذه المعرفة ظروف نشأته، اذ انه "عاش حياته الاولى متصلا بالحياة العامة اتصالا وثيقا، متغلغلا بين طبقات الناس تغلغلا عجيبا، متنقلا بين هذا الاقليم

---

(١) ياقوت الحموي، معجم الادباء، ج١٦، ص ١٠٤-١٠٦ (٢) د. السيد أحمد خليل، الاتجاهات الادبية في العصر العباسي، ص ١٨٨، ط٢، دار مكتبة الجامعة العربية — بيروت (بلا تاريخ).

وذاك ، ممارسا لكثير من وجوه هذه الحياة ، مما لا يتصل بتلقي العلم والادب ، ولكنه كان كثير الاثر في أدبه وعلمه "(١).

ومما يلفت الانتباه في حكايات هذا النوع أنه مهما يكن الواقع الاجتماعي الذي تصوره قاتما ، فان موهبة الجاحظ القصصية تبدو قادرة على معالجته بأسلوب ساخر، ينتزع الضحك ، ولكنه في الحقيقة ضحك كالبكاء، لاننا نلحظ من خلال الايحاء أن الحكاية تنطوي على نقد مر للواقع الذي تستوحيه نحو هذه الحكاية التي يصور الجاحظ فيها بعض مظاهر الرق في زمانه :"من المجانين علي بن اسحق بن يحي بن معاذ، وكان أول ما عرف من جنونه أنه قال: أرى الخطأ قد كثر في الدنيا، والدنيا كلها في جوف الفلك ، وانما نوء تى منه ، وقد تخلخل وتخرم وتزايل ، فاعتراه ما يعتري الهرماء، وانما هو مجنون فكم يصبر، وسأحتال في الصعود اليه ، فاني بخرته ورَنْدجته وسويته انقلب هذا الخطأ كله الى صواب .. وجلس مع بعض متعاقلي فتيان العسكر، وجاءهم النخاس بجوار فقال : ليس نحن في تقويم الابدان ، انما نحن في تقويم الاعضاء، .. ثمن أنف هذه خمسة وعشرون دينارا، وثمن أذنيها ثمانية عشر، وثمن عينها ستة وسبعون ، وثمن رأسها بلا شيء من حواسها مائة دينار. فقال صاحبه المتعاقل: ههنا باب هو ادخل في الحكمة من هذا، كان ينبغي لقدم هذه أن تكون لساق تلك ، وأصابع تلك أن تكون لقدم هذه ، وكان ينبغي لشفتي تيك ، أن تكونا لفم تيك ، وان تكون حاجبا تيك لجبيني هذه ، فسمي مقوم الاعضاء"(٢).

والحكاية لا تقوم في بنائها على الحبكة ، فهي أشبه بمنظر يعرض الجاحظ من خلاله لفئتين من فئات المجتمع : المجانين والجواري يسوقهن النخاس للبيع ، ويلاحظ أن دور النخاس والجواري اقتصر على مجرد الظهور أمام المجانين "وجاءهم النخاس بجوار" ، لكنه مع ذلك أتاح للحكاية المفارقة المضحكة المحزنة حين راح المجانين يقوّمون أعضاء السلع البشرية تقويما غريبا. فالجاحظ الذي نراه في كثير من حكاياته الاجتماعية يوحي بضرورة تغيير بعض المظاهر السلبية التي تحول دون تقدم المجتمع، أو تمتهن كرامة الانسان، يلاحظ أنه في الحكاية السابقة ، من خلال سخريته المرة ، وجمعه بين المجانين والجواري كأنه يوحي بأن استعباد الانسان أخاه الانسان على ذاك النحو الممض ، هو محض جنون مطبق. وعلى هذا النحو من المعالجة القصصية تبدو أكثر حكايات الجاحظ الاجتماعية، فهو لا يلجأ فيها الى المباشرة أو الحدة في النقد. على الرغم من أن الجاحظ كما يلاحظ الحاجري "نقاد بطبيعته ، ولكن لين جانبه وحبه للحياة ، نكبا به كثيرا عن طريق الجد الصارم في النقد، وما يكون في هذا الطريق كثيرا من الغضب والسخط والبغضاء، وما اليها من المعاني المباينة للحب "(٣).

---

(١) د. طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره ص ١٠٠ ط٢ دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٩

(٢) البيان والتبيين ، ج٤ ص ١٦ ، تحقيق عبد السلام هارون (٣) البخلاء، المقدمة ، ص ٥٤

ويندرج في اطار هذا النوع حكايات استوحاها الجاحظ من التاريخ، فعالجها بأسلوبه القصصي، ونفث فيها من روحه المرح - وحين نتمعن في هذه الحكايات التاريخية نلاحظ أن الجاحظ فيها يهتم في الغالب بجوانب تتعلق بالحادثة، قد لا يعني بها المؤرخ كثيرا، ولكنها تهم القاص، نحو تصوير الصراع النفسي الذي يعتمل في أعماق الشخصية. ومثل رصد الخلفيات الهامشية التي تكمن وراء وقوع الحادثة مباشرة، والتي قد لا يلتفت اليها المؤرخون. ومن الامثلة البارزة على ذلك حكاية يصور بها الجاحظ قتل أبي جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني، فثمة اختلاف بين ما نجده فيها وما يرويه المؤرخون. فكتب التاريخ تذكر أن أبا جعفر قد احتال على أبي مسلم، حتى جاء مطمئنا للقائه "فأحسن المنصور استقباله في أول الامر، ثم واجهه بالتهم المنسوبة اليه، وقد أورد الطبري نص هذه المحاورة التي دارت بين الرجلين وهي في مجموعها تدل على عداوة قديمة بينهما، الا أنها تتضمن في الوقت نفسه اتهاما خطيرا لابي مسلم بمحاولة الوصول الى الخلافة بادعاء النسب العباسي، اذ يقول له المنصور: ألست الكاتب اليّ تبدأ بنفسك، والكاتب اليّ تخطب أمينة بنت علي وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس؟ لقد ارتقيت - لا أمَّ لك - مرتقى صعبا. فقال له أبو مسلم: ليس هذا يقال لي بعد بلائي وما كان مني. .. فقال المنصور: والله لو كانت أَمَة مكانك، لاجزت ناحيتها، انما عملت ما عملت في دولتنا وبريحنا. .. وبعد أن انتهى المنصور من مواجهة خصمه بالتهم المنسوبة اليه، أمر رجاله المسلحين خلف الستور بقتله في مجلسه سنة ١٣٧هـ"(١).

على هذا النحو تصور كتب التاريخ(٢) طبيعة لقاء أبي جعفر بأبي مسلم الخراساني، وأما الجاحظ فانه يصور ذلك بطريقة تكاد تختلف في كل شيء، فمن خلال حكايته نرى المنصور "لما همّ بقتل أبي مسلم، سقط بين الاستبداد برأيه، والمشاورة فيه، فأرق في ذلك ليلته، فلما أصبح، دعا باسحق بن مسلم العقيلي، فقال له: حدثني حديث الملك الذي أخبرتني عنه بحرّان، قال: .. أخبرني أبي عن الحصين بن المنذر، أن ملكا من ملوك فارس، يقال له: سابور الاكبر، كان له وزير ناصح قد اقتبس أدبا من آداب الملوك، وشاب ذلك بفهم في الدين، فوجهه سابور داعية الى خراسان، وكانوا قوما عجما، يعظون الدنيا جهالة بالدين، ويخلون بالدين استكانة لقوت الدنيا، وذلا لجبابرتها. فجمعهم على دعوة من الهوى، يكيد به مطالب الدنيا، واغتر بقتل ملوكهم لهم، وتخولهم اياهم وكان يقال: لكل ضعيف صولة، ولكل ذليل دولة، فلما تلاحمت أعضاء الامور التي لقح، استحالت حربا عوانا، شالت اسافلها بأعاليها، فانتقل العز

---

(١) د. أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والاندلسي، ص ٤٩، دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٧١.
(٢) وانظر أيضا تاريخ الامم للطبري، ج٦، ص ١٣٥ تحقيق نخبة من العلماء - مطبعة الاستقامة - القاهرة - ١٩٣٩.

الى أرذلهم، والنباهة الى أخملهم، فاشربوا له حبا مع خفض من الدنيا، افتتح بدعوة من الدين. فلما استوثقت له البلاد، بلغ سابور أمرهم، وما أحال عليه من طاعتهم، ولم يأمن من زوال القلوب، وغدرات الوزراء، فاحتال في قطع رجائه من قلوبهم، وكان يقال:

وما قُطع الرجاء بمثل يأسٍ   تُبادهه القلوب على اغترارِ

فصمم على قتله عند وروده عليه، بروء ساء أهل خراسان وفرسانهم فقتله، فبغتهم بحدث، فلم يرعهم الا ورأسه بين أيديهم، فوقف بهم بين الغربة ونأي الرجعة، وتخطف الاعداء، وتفرق الجماعة، واليأس من صاحبهم، فرأوا ان يستتموا الدعوة بطاعة سابور، ويتعوضوه من الفرقة، فأذعنوا له بالملك والطاعة، وتبادروه بمواضع النصيحة، فملكهم حتى مات حتف أنفه.

فأطرق المنصور مليا، ثم رفع رأسه، وهو يقول:

لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرع العصا   وما عُلِّم الانسان الا ليعلما

.. وأمر اسحق بالخروج، ودعا بأبي مسلم، فلما نظر اليه داخلا قال:

قد اكتنفتك خلات ثلاثٌ   جلبن عليك محذور الحِمامِ
خلافك وامتنانك ترتميني   وقودك للجماهير العظامِ

ثم وثب عليه، ووثب معه بعض حشمه بالسيوف، فلما رآهم وثب، فبدره المنصور، فضربه ضربة، طوحه منها ثم قال:

اشرب بكأس كنت تَسقي بها   أمرّ في الحلق من العلقمِ
زعمت أن الدَّين لا يُقتضى   كذبت فاستوفِ أبا مجرمِ (١)

ثم أمر، فحزّ رأسه، وبعث به الى أهل خراسان، وهم ببابه، فجالوا حوله ساعة، ثم رد عن شغبهم انقطاعهم عن بلادهم، واحاطة الاعداء بهم، فذلوا، وسلموا له، فكان اسحق اذا رأى المنصور قال:

وما ضربوا لك الامثال إلا   لتحذوَ ان حذوت على مِثالِ

وكان المنصور اذا رآه قال:

" وخلفها سابور للناس يقتدي   بأمثالها في المعضلات العظائمِ " (٢)

---

(١) ذكر الطبري هذين البيتين في أثناء رواية قتل المنصور لابي مُسلم، ولكنه ابتدأ بالبيت الثاني "زعمت أن الدين لا يقتضى" أنظر تاريخ الامم والملوك، ج٦ ص ١٣٧.

(٢) البيان والتبيين، ج٣ ص ٣٦٧ _ تحقيق عبد السلام هارون.

وهكذا من خلال الموازنة يظهر أن ثمة اختلافا في تصوير حادثة قتل المنصور لابي مسلم بين الرواية التاريخية وحكاية الجاحظ القصصية ، وذلك من حيث رصد السبب المباشر والخلفيات والحوار وطريقة القتل ، مما قد يوحي بامكانية تصرف الجاحظ في الحكاية (١). واذا كان على صعيد الفن القصصي عامة ، والقصص التاريخي خاصة ، لا يهمنا كثيرا أن نتحقق من مدى التزام القاص بالحقيقة التاريخية (٢)، فان الذي يعنينا في المقام الاول من حكاية الجاحظ هو أسلوب المعالجة القصصية ، ويتجلى أسلوبه فيها من خلال ناحيتين بارزتين: الاولى بناء الحكاية ، فهي تبدأ بداية متأزمة ، يبدو فيها أبو جعفر يعاني من صراع نفسي: أيقتل أبا مسلم أم لا ؟ ثم نرى الحكاية بعد ذلك تحمل في أحشائها حكاية أخرى ذات علاقة عضوية بها ، فهي تعمل على تطوير الحبكة ، وتساعد الشخصية في النهاية على الخروج من مأزقها ، لاننا نرى أبا جعفر بعد انتهائها مباشرة ، قد حسم الصراع في أعماقه ، وصمم على قتل أبي مسلم . .. وأما الناحية الثانية فتظهر في روح الجاحظ المرح الذي يتبدى في كل حكاية . مهما يكن الواقع الذي تستلهمه قاتما . فعلى الرغم من أن الحكاية تصور حادثا داميا - على الاقل من الناحية الانسانية - فإنّ الجاحظ يصوره بأسلوب يكاد ينسينا ما ينطوي عليه من قسوة ، وذلك من خلال تضمين الحوار أبياتا شعرية ، والايحاء بأن أبا مسلم الذي يقع عليه الهجوم هو سفاح مجرم ، يستحق القتل "اشرب بكأس كنت تسقي بها ... كذبتَ فاستوف أبا مجرم"، ثم حين يقفلها قفلة طريفة ، نرى فيها المنصور واسحق العقيلي كلما تلاقيا بعد الحادثة يتذكران الامر بالشعر .

** *** **

وبعد .. فاننا خلال التمعن في حكايات الجاحظ المختلفة ، نشعر شعورا قويا أنها في الغالب ثمرة موهبة قصصية خصبة ، كان يتمتع بها الجاحظ ، لا نستثني من ذلك

---

(١) والذي يدعونا الى أن نظن ذلك ، وان رواية الطبري أقرب الى حقيقة ما حدث ، عدة أمور منها : ان الجاحظ يروي حكايته دون اسناد ، على حين يرويها الطبري باسناد ، وأن المؤرخ يتحرى في الغالب حقيقة ما حدث أكثر من القاص .
وأن كبار المؤرخين يذهبون الى ما ذهب اليه الطبري ، فابن الاثير مثلا يروي بأن أبا جعفر قبل أن يأذن لابي مسلم بالدخول عليه ، دعا عثمان بن نهيك وأربعة من الحرس ، ثم دعا شبيب بن واج وأبا حنيفة ورجلين آخرين ثم قال لهم جميعا "كونوا خلف الرواق فاذا صفقت فاخرجوا واقتلوه". أنظر الكامل لابن الاثير ، ج٤ ، ص ٣٥٠ .

(٢) حتى أن بعض مشاهير القصة التاريخية المحدثين من أمثال : سكوت ودوماس الكبير يرى أن على القاص ألاّ يتقيد بالتاريخ البتة ، وذلك إذا وقف حجر عثرة في سبيل ظهور القصة في اطار فني حر طليق "أنظر فن القصة د. محمد يوسف نجم - ط٥ - دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٦ ". ص : ١٦٠ .

حكاياته التي كان يرويها باسناد عن غيره ، لانه يتبين من خلال الموازنة أنه كان في الغالب يتصرف في ما يروي ، وأن شخصيته القصصية المميزة تظهر فيها على نحو ما تظهر في غيرها[1]. كذلك نشعر أن حكاياته جديرة بأن تدرس دراسة متأنية مفصلة ، تشملها جميعها ، دون استثناء على اختلاف أنواعها ، أو مظانها في كتب الجاحظ ، لا أن تقتصر الدراسة فقط على نوع منها دون نوع ، أو على كتاب بعينه دون بقية الكتب . كما فعل كثير من الدارسين المحدثين ، اذ انصبت دراساته على حكايات البخلاء وحدها .

---

(١) يبدو هذا إذا لاحظنا أن الابداع القصصي ، ليس معناه "أن نخرج من العدم وجودا ، وانما الخلق في الادب وفي الفن ، وربما في كل شيء هو أن ننفخ روحا في مادة موجودة ، وليس الابتكار في الادب أو الفن أن نطرق موضوعا لم يسبقنا اليه سابق . ولا أن نعثر على فكرة لم تخطر على بال غيرنا . انما الابتكار هو أن نتناول الفكرة التي قد تكون مألوفة للناس ، فنسكب فيها من أدبنا وفننا ما يجعلها تنقلب خلقا جديدا ، يبهر العين ، ويدهش العقل ، أو نعالج الموضوع الذي كان يبلى بين أصابع السابقين ، فاذا هو يضيء بأيدينا بروح من عندنا" (أنظر فن الادب لتوفيق الحكيم صفحة ١٢). ونحن نجد الجاحظ يوحي بأن الابداع القصصي يتوقف على أسلوب اخراج الحكاية (معالجتها) ، فاذا لم يحسن راويها اخراجها فان الحكاية تخفق في رأيه ، ويخرج صاحبها منها "وعليه فضل كبير" (أنظر البيان والتبيين ، ج١ ، ص ١٤٥ - تحقيق عبد السلام هارون). ويبدو هذا المفهوم للابداع الادبي عند الجاحظ أكثر وضوحا في حديثه عن الشعر ، اذ يقرّر أن المعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي والمدني ، وانما الشأن في اقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج وفي صحة الطبع ، وجودة السبك" (الحيوان ، ج٣ ، ص ١٣١ - ١٣٢).

الفصل الثاني

حكايات الجاحظ والمضمون

====================

* مؤثرات في مضمون الحكاية عند الجاحظ

قبل ان نتحدث عن حكايات الجاحظ من حيث المضمون ، يحسن ان ننتبه الى ثلاثة أمور تتعلق بشخصية الجاحظ ، لما لها من تأثير واضح في طريقة اختيار المضمون ، وفي اسلوب المعالجة القصصية ايضا.

وأول هذه الأمور أن الجاحظ عالم طبيعة سبق هو " ومدرسته الفكرية الى توجيه النظر الى الطبيعه وتأكيد الثقه في حقائقها وبراهينها قبل بيكون بقرون " (١) ، وهو لذلك ذو منهج علمي تجريبي ، ومن أوائل من دعا الى اتخاذ الشك طريقا لليقين ، وهذا هو الشك المنهجي ، أو اتخاذ الشك منهجا ، وهو ما سبق الجاحظ اليه قبل ديكارت (٢)، وقد ادى به منهجه في الشك كما لاحظ احمد امين الى أن يقف " من ارسطو موقفا بديعا ، فاخضع آراءه للفكر ، والتجربه ، ولم يقبل بها حقائق مسلمه ، ولم يقف فكره منها وقفة المشلول المسلّم ، كما فعل اكثر الفلاسفة المسلمين، كأبن سينا وغيره ، بل ونقض بعض آرائه " (٣) ، ويلاحظ ان الجاحظ كان " اذا اتهم ارسطو ، ورفض قوله ، شد عليه وضعف امتحاناته ورماه بقوارص الكلام ، وبسميه تارة باسمه ، وتارة صاحب المنطق"(٤) ويذهب المستشرق الفرنسي شارل بلا الى ابعد من هذا ، اذ يرى ان الجاحظ " قد تنبه الى حقائق علمية لم يفطن اليها ارسطو أو غيره من العلماء، ففي الحيوان آراء عجيبه غريبه ، لا يكاد ينكرها معاصرونا في تطور الانواع وتأثير الهواء ، والتربة في خلق الانسان والحيوان وخلقهما مما غاب عن ارسطو ، ولم يتنبه اليه علماء الغرب الا في العصور الحديثة" (٥)

---

(١) د. محمد عماره ، الشك المنهجي عند الجاحظ ، ص ٣٩ ، مجلة العربي الكويتيه ، عدد (٢٢٧) ، اكتوبر ، ١٩٧٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٣٩ .

(٣) ضحى الاسلام ، ج١ ، ص ٣٩٩ .

(٤) بطرس البستاني ، أدباء العرب في الأعصر العباسية ، ج٢ ، ص ٢٧٤ .

(٥) اصالة الجاحظ ، ص ١٧ - ١٨ .

ويرى الحاجري أن لمنهج الجاحظ في الشك أثره الخطير في ادبه ، فهو المسؤول في رأيه عن هذه السخريه التي نجدها فيه (١) ، وهي سخرية واضحة في كثير من حكاياته خاصه .

وثاني هذه الامور : أن الجاحظ مفكر لا يؤمن الا بسلطان العقل ، لذلك نجده يقول : " لعمري بان العيون لتخطىء ، وان الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع الا للذهن ، وما الاستبانه الصحيحه الا للعقل اذا كان زماما على الاعضاء ، وعيارا على الحواس " (٢) ، وهذا عائد في الغالب الى نزعته الاعتزاليه ، فالمعتزله آمنوا " بسلطة العقل ، وقدرته على معرفة الحسن والقبيح " (٣) ، ولذلك " اطلقوا العنان للعقل يبحث في كل شيء من غير ان يحده حد ، أو ينهض أمامه سد ، حتى اذا وقفوا امام النقل ، سلموا بما يوافق البرهان العقلي فقط ، والا فليس ثمة داع الى قبول ما يشكون فيه " (٤) .

فالمعتزله " أول دعاة في الاسلام الى منهج النظر العقلي ، وأول من قام بتطبيق هذا المنهج " (٥) ، وقد صادف الجاحظ البصري النشأة حركة الاعتزال في ابان ازدهارها ، فتتلمذ لكبار مفكري المعتزله من امثال ابراهيم النظام وأبي هذيل العلاف وثمامه ابن اشرس ، ثم انه غدا فيما بعد أحد أئمة الاعتزال ، وصاحب فرقة من فرقها تدعى الجاحظيه (٦) .

---

(١) البخلاء ، ص ٥٥ .

(٢) التربيع والتدوير ، ص ١٤ ، تحقيق شارل بلا - المعهد الفرنسي دمشق ١٩٥٥ .

(٣) مارون عبود ، أدب العرب ، ص ٢٨٢ .

(٤) د. احمد كمال زكي ، الحياة الادبية في البصره الى نهاية القرن الثاني الهجري ، ص ٨ .

(٥) د. عبدالحكيم بلبع ، أدب المعتزله ، ص ٤١٠ - مكتبة نهضة مصر - القاهره (د. ت) .

(٦) انظر الملل والنّحل للشهرستاني ، ص ٧٥ - ٧٦ ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، ط ٢ ، دار المعرفة - بيروت ١٩٧٥ .
وخليل مردم بك ، الجاحظ ص٨ - مكتبة عرفه ، دمشق ١٩٣٠ .

وثالث هذه الامور ان الجاحظ نشأ نشأة شعبية فقيرة أتاحت له ان ينغمس في واقع عامة الناس ، وان يعايش الشعب على اختلاف طبقاته ، حتى انه كان يغشى الاسواق وهو صبي بعد ، كي " يلتمس رزقه اليومي ، فكان يقف فيها ، ويتردد ليبيع الخبز والسمك ، أو ليزاول بعض الاعمال الاخرى بين البحريين ، وفي خلال ذلك كانت مشاهد هذه الاسواق ، التي تتردد بين بصره وسمعه ، تغذو عقله ، وتثير مداركه " (١) .

وسنرى أن لهذه الأمور الثلاثة السابقة أثرها القوى في اختيار المضمون ، وطريقة معالجته القصصيه عند الجاحظ ، فاذا كان للمنهج العلمي " أثره في الابداع الفني ، لا على تكوين العقلية العلمية فحسب ، بل على اسلوب الكتابه الادبي ، وشتى المعالجات الفنية " (٢) .

فيلاحظ ان الجاحظ من خلال حكاياته المختلفة ، لا يعني بتصوير العالم الغيبي مثلا ، أو خوارق الطبيعة ، كذلك لا يسيغ الخيال الذى يتجافى مع الواقع ، ولا " يقبل الخرافه ، بل هو يهزأ بمن يقبلها "(٣).

كذلك سنرى ان الجاحظ العالم ، والمفكر المعتزلي ، هو في حكاياته لايتحرج من تصوير الواقع في مجتمعه واستيحائه مهما يكن هذا الواقع يصدم الذوق ، أو يخدش الحياء ، فالجاحظ في حكاياته - كما يقول شوقي ضيف بحق :- " يشغف بحكاية الواقع ، لا يتستر ولا يتخفى ، حتى انه ليذكر السوءات والعورات في غير مواربة ولا مداجاة فهو ذو منهج قصصي واقعي لا يداجي ولا ينافق ، بل يصف الاشياء كما هي في غير تحرج ولا تأثم " (٤) .

---

(١) د. طه الحاجري ، الجاحظ حياته وآثاره ، ص ٩٧ .

(٢) د. حسين فوزي ، بين العلم والفن ، ص ٨٠ . - محاضر الموسم الثقافي الرابع لجامعة بيروت العربية - بيروت ١٩٦٤ .

(٣) احمد امين ، ضحى الاسلام ، ج١ ، ص ٣٩٨ .

(٤) الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص ١٠١ .

وأما أثر نشأته الشعبية الفقيرة في مضامين حكاياته فيبدو من خلال حكاياته التي يستلهم بها الحياة الاجتماعية المتعامة ، اذ يخيل الينا فيها أنه " يعايش كل طائفة ويطلع على دخائلها ، ويشهد ما تجرى عليه (١) .

وحين يتمعن الدارس في الموضوعات المختلفة الكثيرة ، التي تدور حولها حكايات الجاحظ يمكنه ان يصنف هذه الحكايات من حيث المضمون ، خمسةَ انواع رئيسيه ، على الرغم من تداخل الموضوعات في بعض الاحيان . (٢)

أما هذه الانواع الرئيسيه الخمسه فهي :

١. حكايات الحب والجنس .
٢. حكايات فكرية وسياسية .
٣. حكايات اجتماعية .
٤. حكايات تاريخية .
٥. حكايات علمية .

---

(١) البخلاء ، ص ١٣٢ . تحقيق طه الحاجرى .

(٢) وهو تداخل يجد الدارس بسببه صعوبة في تصنيف بعض الحكايات لولا أنه مضطر الى ذلك توخيا للدقة في دراسة المضامين .

١ - حكايات الحب والجنس

عني الجاحظ في كثير من حكاياته بتصوير واقع العلاقات العاطفيه والجنسيه التي كانت سائده في مجتمعه ، بين الجنسين في الغالب ، أو بين افراد الجنس الواحد في بعض الاحيان ، فهو في حكايات قليلة منها يصور حب الرجل للمرأه ، وسلطان سحرها عليه ومن ابرز حكايات الجاحظ التي تصور ذلك ، حكاية تقوم على الحوار أو على السؤال والجواب بين شيخ هرم يدعى أبا المبارك الصابي، وبين مجالسيه ، والحكايه تصور تصويرا جيدا سلطان المرأه على قلب الرجل ، وحنينه الدائم اليها ، مهما تعلّ به السن ، وفيها "يظهر فن الجاحظ وصناعته ، وكأنما أراد بها ان يصور رأيه في مبلغ أثر المرأه على الرجل ، مهما حاول ان يصرف نفسه عنها ، أو يحول بين طبيعته وبينها" (١) .

وتبدأ الحكاية بأن يعرض بعض أفراد المجلس لذكر النساء، ولأثرهن في قلوب الرجال ، وحين ذاك ينفعل الشيخ الصابي بالموضوع ، فيتخلى عن صمته ، ويتوجه الى مجالسيه بالسؤال قائلا : "ألستم تعلمون أني قد أربيت على المائه ، فينبغي لمن كان كذلك أن يكون وهن الكبر ، ونفاذ الذكر ، وموت الشهوة ، وانقطاع ينبوع النطفه قد أمات حنينه الى النساء وتفكيره في الغزل ؟ !"

فيجيبه الرجال جميعا : صدقت ! وعندئذ يواصل الشيخ الصابي كلامه متسائلا ايضا : "وينبغي ان يكون من عوّد نفسه تركهن مددا ، وتخلى عنهن سنين دهرا ، ان تكون العاده ، وتمرين الطبيعه ، وتوطين النفس قد حط من ثقل منازعة الشهوة ، ودواعي الباءة ، وقد علمتم ان العاده التي هي الطبيعة الثانيه ، قد تستحكم ببعض عمد هَجْر لملامسة النساء ؟ !

قلنا : صدقت

قال : وينبغي ان يكون من لم يذق طعم الخلوة بهن ولم يجالسهن متبذلات ، ولم يسمع حديثهن وخلابتهن للقلوب ، واستمالتهن للاهواء

---

(١) د. طه الحاجري ، الجاحظ ، حياته وآثاره . ص ٤٤٢ .

ولم يرهن منكشفات عاريات ، اذا تقدم له ذلك مع طول الترك ، الا يكون بقي معه من دواعيهن شيء ؟

قلنا : صدقت !

قال : وينبغي ان يكون لمن قد علم أنه مجبوب ، وأن سببه الى خلاطهن محسوم ، أن يكون اليأس من امتن اسبابه الى الزهد والسلوة والى موت الخواطر ؟

قلنا : صدقت !

قال : وينبغي ان يكون من دعاة الزهد في الدنيا ، وفيما يحتويه النساء ، مع جمالهن وفتنة النساك بهن ، واتخاذ الانبياء لهن ، الى ان خصى نفسه ، ولم يكرهه عليه أب ولا عدو ، ولا سباه ساب ، ان يكون مقدار ذلك الزهد هو المقدار الذى يميت الذكر لهن ، ويسرّى عنه ألم فقد وجودهن ، وينبغي لمن كان في امكانه ان ينشيء العزم ، ويختار الارادة التي يصير بها الى قطع ذلك العضو ، الجامع لكبار اللذات ، والى ما فيه من الالم ، ومع ما فيه من الخطر ، والى ما فيه من المثله والنقص الداخل على الخلقه ، أن تكون الوساوس في هذا الباب لا تعتروه ؟

قلنا : صدقت !

قال : وينبغي لمن سخت نفسه عن السكن ، وعن الولد وعن ان يكون مذكورا بالعقب الصالح ، ان يكون قد نسي هذا الباب ، ان كان قد مر منه على ذكر ، هذا وانتم تعلمون أنني سَملتُ عيني يوم خصيت نفسي ، فقد نسيت كيفية الصور وكيف تروع ، وجهلت المراد منها ، وكيف تراد ، أفما كان من كان كذلك حريا ان تكون نفسه ساهيه ، لاهيه ، مشغوله ، بالباب الذى احتمل له هذه المكاره ؟

قلنا : صدقت !

قال : أو لم اكن هرما ، ولم يكن هاهنا طول اجتناب ، وكانت الاله قائمه ، أليس في أنني لم اذق حيوانا منذ ثمانين سنه ، ولم تمشل عروقي من الشراب مخافة الزياده في الشهوه ، والنقصان من العزم ، أليس في ذلك ما يقطع الدواعي ، ويسكن الحركه ان هاجت ؟

قلنا : صدقت !

قال : فاني بعد جميع ما وصفت لكم ، لاسمع نغمة المرأه فأظن أن كبدى قد ذابت ، واظن مرة انها قد انصدعت ، واظن مرة ان عقلي قد اختُلس وربما اضطرب فؤادى عند ضحك احداهن ، حتى أظن أنه قد خرج من فمي،

فكيف ألوم عليهن غيري ؟ ! " (١)

ويرسم الجاحظ في حكايات الحب صورة لعشاق النساء في مجتمعه وما كان يصطنع من وسائل في المظهر وفي السلوك العام وفي الحديث ، ليحظى باعجاب الحسان ، وذلك كالصورة التي نجدها مرسومة لعيسى بن مروان في حكايته ، حيث نراه فيها " شديد التغزل والتصندل (٢)، حتى شرب لذلك النبيذ ، وتظرف بتقطيع ثيابه ، وتغنى اصواتا ، وحفظ احاديث من احاديث العشاق ، ومن الاحاديث التي تشتهيها النساء، وتفهم معانيها " (٣).

ولا يغفل الجاحظ في هذه الحكايات عن ان يصور كيف كان عشاق النساء في مجتمعه يطاردون الجميلات في الطرقات العامه ، كل يستعمل وسائله الخاصه في التأثير عليهن ، لاجتذابهن ، يصور الجاحظ ذلك في واقعية قصصية ملموسه ، كأنها تجرى أمامنا ملء السمع والبصر ، لأن بعض هذه الحكايات من النوع الذى يكون الجاحظ نفسه طرفا فيه ، ولأن بعض من يقوم بملاحقة النساء هو من اصحابه أو من مجالسيه ، مثل داود بن المعتمر الصبيرى ، الذى يصوره الجاحظ باكثر من حكاية مشهورا في تتبع النساء ، بارعا في اصطيادهن ، ويبدو الجاحظ من خلال احدى حكايات داود هذا ، شغوفا برصد ملاحقة النساء ، وبتحرى الوسائل التي تتبع ، والكلام الذى يقال في اثناء هذه المتابعات التي تتم خلسه عن عيون الناس ومدى تأثر النساء المتبوعات بتلك الوسائل وبذلك الكلام ! " بينا داود بن المعتمر الصبيرى جالس معي ، اذ مرت ، امرأه جميله ، لها قوام حسن ' وعينان عجيبتان ، وعليها ثياب بيض ، فنهض داود ، فلم اشك أنه قام ليتبعها فبعثت غلامي ، ليعرف ذلك ، فلما رجع ، قلت له : قد علمت أنك قمت لتكلمها ، فليس ينفعك الا الصدق ، ولا ينجيك مني الجحود ، وانما غايتي أن اعرف كيف ابتدأت القول ، وأي شيء قلت لها - وعلمت أنه سيأتي بآبده ، وكان مليا بالأوابد - قال : ابتدأت القول بأن قلت لها : لولا ما رأيت عليك من سيماء الخير لم أتبعك ، قال : فضحكت حتى استندت الى الحائط ، ثم قالت : انما يمنع مثلك من اتباع مثلي والطمع فيها ما يرى من سيماء الخير ، فأما اذ قد صار سيماء الخير

---

(١) الحيوان ، ج١ ، ص١٢٦ . (٢) التصندل : التغزل مع النساء .

(٣) الحيوان ، ج٦ ، ص ٢٦٣ .

هو الذى يُطمع في النساء ، فانا لله وانا اليه راجعون ".(١) .

وفي حكاية اخرى يصور الجاحظ الغاية التي يرمي اليها داود الصبيرى وأمثاله من ملاحقة عقائل المجتمع وحرائره ، وليس الجوارى والقيان فقط ، فهم يريدون المتعه الجسديه !

ويشير الجاحظ في الحكاية وحكايات اخرى (٢) الى الامكنه التي كان يلجأ اليها في الغالب الملاحقون ، اذا ما استجابت النساء لغزلهم ومتابعاتهم ، فهي منازل اخلائهم ممن يرحبون بأية غانية طروب وتوحي هذه الحكايات بان المتابعات كانت تتم خلسة عن أعين الناس ، اذ كان المتابعون يجتهدون الا يشعروا السابله ، حين كانت النساء يستجبن فقد كانوا يدلونهن على امكنة اللقاء ، دون ان يسيروا معهن في اثناء الطريق تحسباً للمفاجأه ، وخوفا من انكشاف الأمر ، " تبع داود بن المعتمر امرأه ، فلم يزل يطريها ، حتى اجابت ، ودلها على المنزل ، الذى يمكنها فيه ما يريده ، فتقدمت الفاجره ، وعرض رجل فشغله ، وجاء الى المنزل ، وقد قضى القوم حوائجهم ، وأخذت حاجتها ، فلم تنتظره ، فلما أتاهم ، ولم يرها قال : أين هي ؟ !

قالوا : والله قد فرغنا وذهبت !

قال : فأى طريق أخذت ؟ ! قالوا : لا والله ما ندرى !

قال : فان عدوت في اثرها حتى اقوم على مجامع الطرق ، أترونى الحقها ؟

قالوا : لا والله ما تلحقها !

قال : قد فاتت الآن ؟

قالوا : نعم !

قال : فعسى ان يكون خيرا ! ". (٣)

---

(١) الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٥ - ٣٧ . لاحظ بأن الحكاية توحي بأن من سيماء الخير حقا في المرأه ، ان تصون نفسها وعرضها بحيث لا تغرى الرجال باتباعها ، ولا تطمعهم باغوائها .

(٢) انظر مفاخرة الجوارى والغلمان ، ص ٦٠ - ٦١ ، تحقيق شارل بلا ، دار المكشوف ١٩٥٧ .

(٣) الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٧ . ويعقب الجاحظ على الحكايه بقوله : " فلم اسمع قط بانسان يشك أن السلامه من الذنوب خير غيره ". واذا اضفنا الى ذلك انه يصف المرأه في الحكايه بالفاجره فمعنى ذلك ان الجاحظ يقف ضد البغاء في المجتمع .

وكما كانت المتابعات وقيادة النساء الى امكنة اللقاء تتم خفية ، فقد كان ما يتم في هذه الامكنة من معاشره محرمه يجرى خلسة عن الجيران والرقباء ، يحاذر صاحب المنزل من افتضاح الأمر ، حتى انه كان يطلق سراح المرأه الجانحه اذا ما اتفق وثابت الى رشدها في اللحظة الاخيره ، فاخذت تلح على الخروج ، عامدة الى الصياح : " علق رجل من اهل المدينه امرأه ، فطال عناؤه وشقاؤه بها ، حتى ظفر بها ، فصار الى منزل صديق له مغن ، ثم خرج يشترى ما يحتاج اليه ، فقالت له : لو غنيت لي صوتاً الى وقت مجيء صديقك ؟ فأخذ العود وتغنّى !

" من الخفَرات لم تفضح أخاها
ولم ترفع لوالدها شنارا "

فاخذت المرأة خفها ، ولبست ازارها ، وقالت : ويلي ويلي !!

لا والله لا جلست ! فجهد بها فأبَت وصاحت ، فخشى الفضيحة ،فأطلقها ، وجاء الرجل فلم يجدها ، فسأله عنها فقال : جئتني بمجنونه !

قال : ما لها ويلك ؟!

قال : سألتني ان اغنيها صوتا ففعلت ، فضربت بيدها الى خفها وثيابها ، فلبست ، وقامت تولول ، فجهدت ان اجلسها ، فصاحت ، فخليتها ،

قال : واى شيء غنيتها ؟

فأخبره ؛ فقال : لعنك الله ! حق لها أن تهرب " (١) .

والجاحظ في هذه الحكايات لا يفوته ان يصور في بعضها ما يمكن ان يتعرض له متابع النساء من احراج احيانا - وذلك إذا كان من يتابعها من الجوارى الجريئات ، فهي اذا لم ترق لها المتابعة ، كانت لا تتورع عن فضحه باسلوب وقح ، وبالفاظ جنسيه سافره ، أمام السابله من عامة الناس (٢) .

وثمة حكاية تصور هشام بن المغيره المخزومي وقد أحب ضباعة من بني عامر ، التي كانت متزوجه من عجوز يدعى عبد الله بن جدعان حتى ان عشقه لها يدفعه الى ان يرسل اليها يقول : " ما تصنعين

---

(١) مفاخرة الجوارى والغلمان ، ص ٦٠ - ٦١ . تحقيق شارل بلا .

(٢) انظر الحيوان ، ج٦ ، ص ٢٦١ .

بهذا الشيخ الكبير الذى لا يولد له ؟ قولي له حتى يطلقك ! " (١)

وحينما تطلب " ضباعة " من زوجها ان يطلقها يجيبها بقوله :

" اني اخاف عليك ان تتزوجي هشام بن المغيره !

قالت : لا اتزوجه ، قال : فان فعلت فعليك مائة من الابل تنحرينها في الجَزوره (٢)، وتنسجين لي ثوبا يقطع ما بين الأخشبين (٣)، والطواف بالبيت عُريانه " (٤) ، وعندئذ ترسل ضباعة الى هشام تخبره انها لا تطيق الشروط التي يشترطها زوجها لتطليقها ، والزواج منه ، لكن هشاما يغريها ، ويقنعها بأنه سيفي بكل الشروط قائلا : " ما أيسر ما سألك وما يكرثك (٥) ، وأنا أيسر قريش في المال ، ونسائي اكثر نساء رجل من قريش ، وأنت اجمل النساء ، فلا تأبي عليه ، فقالت لابن جدعان : طلقني ، فان تزوجت هشاما فعلي ما قلت : فطلقها بعد استيثاقه منها ، فتزوجها هشام ، فنحر عنها مائة من الجزر ، وجمع نساء فنسجن ثوباً يسع ما بين الاخشبين ، ثم طافت بالبيت عريانه ، قال المطلب ابن أبي وداعه ، لقد ابصرتها وهي عريانه تطوف بالبيت ، واني لغلام أتبعها اذا ادبرت ، واستقبلها اذا أقبلت ، فما رأيت شيئا مما خلق الله احسن منها ، واضعة يدها على ركبها وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كلّه ، فما بدا منه فلا أحلّه ،
كم ناظرٍ فيه مما يملّه ، أخثم (٦) مثل القعب باد ظلّه " (٧)

وكما يصور الجاحظ في بعض حكايات العشق حب الرجل للمرأه الجميله ، كذلك يصور في بعضها الآخر عشق المرأه للرجل الوسيم ، ونفورها من القبيح ، مهما تكن المغريات احيانا (٨)، حتى لو كانت

---

(١) القيان ، رسائل الجاحظ ، ج٢ ، ص ١٥١ ، تحقيق عبد السلام هارون .

(٢) الجزوره : سوق مكه ، وقد دخلت في المسجد لما زيد فيه .

(٣) الاخشبان : جبلان يضافان تاره الى مكه ، وتاره الى منى .

(٤) القيان ، ج٢ ، ص ١٥١ .

(٥) يكرثك : يسيئك .

(٦) اخثم : غليظ

(٧) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٥١ .

(٨) انظر حكاية المرأه التي ترفض وصال رجل قبيح ، على الرغم من المغريات الكثيره . (الحيوان ، ج٦ ، ص ٢٦٤) .

المرأه جاريــة لا تملك من أمرهــا شيئا (١) . بل اننا نلمس من خلال بعض الحكايات أن شغف المرأه بجمال المظهر دون اعتبار للجوهر هو عندها أقوى مما نلمسه عند الرجل حتى انها تظل تنشد في الغالب الرجل الاكثر وسامه ، وان تكن مرتبطه بفتى وسيم ! ففي احدى الحكايات مثلا نرى فتى قد أوهم جاريته أنه اوسم الناس ، قائلا لها : "ليس في الارض احسن مني ، ولا املح مني ، فصار عندها كذلك ، فبينا هو عندها على هذه الصفه ، اذ قرع عليها الباب انسان يريده ، فاطلعت عليه من خرق الباب ، فرأت فتى احسن الناس وأملحهم وانبلهم ، واتمهم ، فلما عاد صاحبها الى المنزل قالت له : أو ما اخبرتني أنك املح الخلق ؟ !

قال : بلى ، وكذلك أنا !

فقالت : فقد ارادك اليوم فلان ، ورأيته من خرق الباب ، فرأيته احسن منك واملح

قال : لعمري أنه لحسن مليح ، ولكن له جنيه تصرعه في كل شهر مرتين - وهو يريد بذلك أن يسقطه من عينها -

قالت : أو ما تصرعه في الشهر الا مرتين ؟ !

أما والله لو أني جنيه لصرعته في اليوم الفين (٢) .

على هذا النحو يصور الجاحظ المرأه تعشق وسامة المظهر ، وتشتهي معاشرة الرجل الوسيم ، وقد نتساءل : ما هذا الحب الذي يصوره الجاحظ في بعض حكاياته ؟ !

انه حب حسي ، وعشق مادي لجمال الجسد ، من أجل ارواء الشهوة فقط ! فأين الحب العذرى المشهور في المجتمع العربي القديم (٣) ، أو أين عشق الاعراب كما يسميه الجاحظ نفسه (٤) ؟ !

---

(١) انظر حكاية قاسم التمار والجاريه (الحيوان ، ج٦ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣) .

(٢) الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢٦٠ .

والمقصود بالصرع الوارد في نهاية الحكايه السابقه هو المضاجعه الجنسيه ، كما يخبرنا الجاحظ نفسه ، اذ يعقب على الكلمة بقوله : "ان صرع الشيطان للانسان ليس هو عند العوام الا على جهة ما يعرفون من الجماع" الحيوان ، ج٦ ، ص ٢٦٠ .

(٣) انظر الحب المثالي للدكتور يوسف خليف ، ص ٤٨ ، دار المعارف بمصر ١٩٦١ . وكتاب الحب في التراث العربي ، ص ٣٠١ د. محمد حسن عبد الله - عالم المعرفه ، رقم (٣٦) الكويت - ١٩٨١ . (٤) د. طه الحاجرى ، الجاحظ حياته وآثاره ، ص ٤٣٦ - ٤٤٣ .

اننا لا نعثر عليه في حكايات الجاحظ التي تصور الحب ، وانما نعثر فقط على حكايات الحب المادى الجسدى ـ على نحو ما رأينا ـ والتي تتخللها في بعض الاحيان الالفاظ العاريه !

وحتى انتحار العشق في حكايات الجاحظ نجد سببه في الغالب هو الحرمان من الوصال الجسدى ، فالعاشق لا يكتفي ـ كما يكتفي المحب العذرى ـ من معشوقه بالنظر فقط ، أو بالعيش معه في كنف سيد واحد وانما يريد التملك واطفاء لهيب الشهوه (١) .

وغلبة النزعة الحسيه أو الشهوانيه على الحب في حكايات الجاحظ عائدة الى سببين رئيسيين :

أما الأول فيعود الى طبيعة الجاحظ نفسه ، وهي طبيعة القاص الواقعي ، المتأثر بالمنهج العلمي على نحو ما قدمنا !

وأما الثاني فيعود الى طبيعة الواقع الذى كان يعايشه في مجتمعه ، ويستوحيه بحكاياته ، وهو واقع مجتمع البصره في الغالب الذى كان تطغى عليه نزعة مادية صرفه ، حتى ان بعض البصريين ـ كما يقول الدكتور احمد كمال زكي ـ كان " يرى في الروح جسما " (٢)، كما انهم كانوا في الغالب أهل لذه ومتعه ، يؤمن اكثرهم بأن الدنيا فرصه تنتهز ، وأن خير ما فيها لذة تختلس ، وان الدافع الى ما يصدر عنه هو المنفعه الشخصيه ، وفي حدود ذلك تقاس الاخلاق ، وتكون الانانيه محورها ، وتحصل اللذه هدفها (٣) .

ويتجلى ذلك ذلك حين نرى الجاحظ يصور ببعض الحكايات أجرأ الاحاديث والعلاقات الجنسيه في اصرح لفظ ، دون تحرج ، لأنه كان يرى " أن الشيء اذا وقع في محله ، فلا سبيل الى استنكاره ، ويسخر من الذين يتأبون ذلك ويستكرهونه ، ويقول فيهم : اكثر من تجده كذلك ، فانما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار الا بقدر هذا الشكل

---

(١) انظر مثال ذلك الحكايه التي يرويها الجاحظ عن قينه وغلام يقدمان على الانتحار غرقا ، بينما هو في حراقة محمد بن ابراهيم ، وذلك بسبب حرمان احدهما من الآخر (والحكايه رواها عن الجاحظ المسعودى في مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٤٠١ـ ٤٠٣ ، كما رواها ابن خلكان في وفيات الاعيان ، ج٣ ، ص ٤٧١ . تحقيق د. احسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٧٠). (٢) الحياه الادبيه في البصره ،ص ٨٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٨٨ .

من التصنع ". (١) .

ونظرة الجاحظ الى الجنس نظره علميه ، فهو يرى أنه نشاط طبيعي ضروري لحفظ النوع ، ولاستمرار حياة الكائنات الحيه ، وآية ذلك أن الحيوان الاعجم ، يمارسه ، بل يصارع من أجله احياناً .

ففي احدى الحكايات يصور الجاحظ بغلاً في سكة الموصل ، مشهوراً باغتصابه الجنسي لأي حيوان يصادفه ، حتى انه كان " لا يرام ولا يمانع وكان اذا انفلت من قيده وسلسلته ، وقد عاين برذونا أو بغلا أو فرسه ، اغتصبه نفسه ، واقتسره اقتسارا ، فلا ينزع عنه حتى يَكُومه (٢) ، وربما قتله ، لعظم جِرْدَانه ، وان كان عليه راكبه صرعه ، وربما قتله". (٣) .

واتفق ذات يوم ان جاء الى تلك الناحيه أعرابي ، كان يركب فرساً اعجف ، بادي الحراقيف (٤) ، فنزل عنه ليستريح ، ثم قعد يتغدى ، فبينا هو كذلك ، اذ " أقبل ذلك البغل ، كأنه جمل هائج ، أو فيل مغتلم (٥) ، فصاح الناس بالاعرابي : ويلك يا اعرابي ! فرسك والله ذاهب فقام الاعرابي اليه غير مكترث ، فحط سرجه ، وأخذ مخلاته ، وجاء البغل ، وقد ادلى ، يريد ان يركب فرس الاعرابي ، فجمع (الفرس) رجليه ، فواتر على جبهة البغل ، وعلى حجاج عينيه ، فرمحه خمس رمحات ، أو ستاً متواليات ، كلها يقع حافرا رجليه معا ، فنكص البغل شيئا يسيرا ، ثم عاوده فنثر على وجهه وحجاج عينيه مثل ذلك العدد ، وفي اسرع من اللحظ ، وفرس الاعرابي في ذلك كله واقف لا يتحلحل ، والاعرابي قد ضحك حتى استلقى ، فولى البغل يريد السكة ". (٦) .

---

(١) بطرس البستاني ، ادباء العرب في الاعصر العباسيه ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٢) كام المرأه : نكحها ، وكام الفرس انثاه : نزا عليها .

(٣) القول في البغال ، ص ٣٣ ، تحقيق شارل بلا .

(٤) الحراقيف : مجتمع رأس الفخذ ورأس الورك ، المراد : بادي الهزال .

(٥) فيل مغتلم : فيل غلبته الشهوه .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

ثم نرى الفرس بعد هذا لا يكتفي بفرار البغل بعد ان اخفق في تحقيق غايته ، وانما نجده يطارد البغل ، ليشبع حاجته الجنسيه العزيزيه ، "« فشد عليه فرس الاعرابي ، من بين يديه ، فلحقه الفرس ، فعضّه ، وكامه الفرس ، ورجع الفرس الى موضعه ، ودخل البغل السكة ، فكبروا عليه ، ونشروا عليه الروث اليابس ، وشمت به جميع الساسه ، وافتروا عليه ، فترك البغل ذلك الخلق »" (١) .

هكذا يصور الجاحظ قوه الرغبه الجنسيه في الحيوان ، وأما في الانسان فان الجاحظ في حكاياته يصور الرغبه الجنسيه قويه ملحه ، لا تنفع احياناً في كبتها او قتلها أية وسيله علميه أو كابح خلقي فبعض الساده والاثرياء في مجتمعه كان يلجأ الى اخصاء الذكور من العبيد والغلمان ، خوفاً منهم على حريمهم ، ولكن الجاحظ في احدى الحكايات، يصور أن تلك الوسيله في بعض الاحيان لم تكن ناجعه في قتل الشهوة الجنسية عند بعض الخصيان ، اذ نرى احدهم في منزل إحد الوجهاء ، أثيرا عند مولاه ، حتى انه " كان يثق به في ملك يمينه ، وفي حرمه من بنت وزوجه وأخت ، لا يخص شيئا دون شيء " (٢) ، بيد أنه يفجأ ذات يوم ، اذ يصادف مملوكه الخصي في مِرْبد الغنم " وقد شد يدي شاة ، وركبها من مؤخرها يكومها " (٣) ، فتكون صدمه مولاه شديده ، لأنه كان مطمئنا ان تابعه الخصي ليس لديه شهوه جنسيه ، ولذلك فقد كان يأتمنه على أهله " فكان يخلفه في نسائه من حرمه وملك يمينه "(٤)، وبينما هو يحدق مذهولا بتابعه الخصي ، غير المتنبّه ، الذي يواصل نشاطه الجنسي ، حانت بغته التفاتة من الخصي " فلما اثبت مولاه مر مسرعا نحو باب الدار ، ليركب رأسه ، وكان المولى اقرب الى الباب منه ، فسبقه اليه ، وكان الموضع الذى رآه منه موضعاً لا يُصعد اليه ، فحدث لشقائه أمر لم يجد مولاه معه بداً من صعوده ، فلبث الخصي ساعة ينتفض من حمى ركبته ، ثم فاظ ولم يمس الا وهو في القبر "(٥) .

---

(١) القول في البغال : ، ص ٣٤ .

(٢) الحيوان ، ج١ ، ص ١٧٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٧٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٧٢ ، فاظ : مات .

كذلك نرى في بعض الحكايات الجنسية ان اقوى رادع اخلاقي ، وهو الدين ، لا يجدى عند بعض الناس ، لكبح جماح الحاجة الجنسية الطبيعية (١) ، نحو الحكاية التي تصور فتى عراقياً ورعاً ، قد ذهب الى الحجاز لتأدية الفريضة ، وهناك في مكه يكترى دارا من امرأة سوداء تدعى «خليدة» ، فيقع معها في الفاحشة في لحظة يفقد فيها السيطرة على ارادته ، ثم يندم على ما اقترف ندماً شديداً ، والحكاية مثال جيد على حكايات الجاحظ الجنسية ، لأنها تمثل جرائته على طرق الموضوع ، واسلوبه القصصي في معالجته ، بالفاظ عارية صريحة ، دون تحرج أو مواربة . (٢)

ومن جهة اخرى ، يمكن ان نقسم الحكايات الجنسية قسمين رئيسيين : قسماً يصور العلاقات الجنسية الطبيعية ، وآخر يصور العلاقات الجنسية الشاذة !

أما العلاقات الجنسية الطبيعية ، فنقصد بها العلاقات بين الرجل والمرأة ، سواء تمت تحت ستار الزوجية أم كانت محرّمة ، فبعض الحكايات يصور الجاحظ به ما يمكن أن يدور بين الزوجين من أمور جنسية ، سواء في ذلك القول والفعل ! مبتدئاً في ذلك من المراحل الاولى للزواج متغلغلا اخيرا في اجرأ ما يمكن ان يتم بين زوجين من حديث أو فعل ! فثمة حكاية مثلا تصور اللحظات الأولى، اذ يخلو العروسان احدهما بالاخر ، والحكاية قصيرة تنطوى على مفارقة طريفة فالعروس تكتشف أن بعلها احمق ، وهي تنتظره أن يبدأها الكلام ، لكنها تنتظر طويلا دون جدوى ، وعندئذ تضطر الى ان تبدأه هي الحديث فهي لما رأت منه "ما رأت من الجفاء والجهل ، اذ جلس في ناحية منقبضاً ، مشتملا ، قالت : ضع علبتك !

---

(١) يرى علماء النفس ان ثمة حاجات يشعر بها الكائن الحي لبقاء الفرد ، كالطعام والشراب والبراز والأوكسجين ، وأن ثمة حاجة لا تحفظ بقاء الفرد بقدر ما تحفظ بقاء النوع الانساني - اوالحيواني وهذه الحاجة هي الحاجة الجنسية ، التي يقابلها دافع الى الجنس الآخر ، لقضاء الحاجة الجنسية ، وبالتالي حفظ النوع (د. فاخر عاقل ، التربية الجنسية ، (مجلة العربي العدد (١٤٢) - الكويت - مارس - ١٩٦٨ص٢٨ (٢) انظر الحكاية في مفاخرة الجوارى والغلمان، رسائل الجاحظ ،ج٢،ص ٨٧ ، تحقيق عبد السلام هارون.

قال : يدي احفظ لها ،
قالت : فاخلع نعليك !
قال : رجلاي احفظ لهما .
قالت : فضع شملتك !
قال : ظهري أولى بها ،

فلما رأت ذلك ، قامت ، فجلست الى جانبه ، فلما شمّ ريح الطيب، وثب عليها .. (١)

ثم نجد الحكاية عند الجاحظ تتقدم خطوة اخرى في هذا المجال، لتصور ما يمكن أن يحدث بين العروسين ، اذ يأويان الى الفراش ، ويلاحظ هنا ان الجاحظ يلجأ في تصوير هذا الامر الى الايحاء ، او الى التصوير غير المباشر ، نحو حكاية أبي مجيب ، الذى نراه يتزوج ابنة عم له ، فلما دخل عليها ، ثم خرج بعد حين ، راح أحد اصحابه يسائله عن نتيجة ما تم بينه وبين عروسه شعرا يقول :

" ياليت شعري عن أبي مجيب
اذ بات في مجاسد (٢) وطيب
معانقا للرشأ الربيب أأ قحم المغار في القليب
أم كان رخواً يابس القضيب ؟
قال (ابو مجيب) : بلى ! كان والله رخواً ، يابس القضيب .
والله لكأنك كنت معنا ، ومشاهدنا .. (٣)

ثم تتقدم الحكاية الجنسية بين الزوجين خطوة أجرأ ، واكثر ايغالاً في موضوع الجنس ، لتصور بلفظ صريح ، وباسلوب عار ، ما يمكن ان يخوض فيه الزوجان من حديث حول المعاشرة الجنسية ، وما يتخلل ذلك من تصرفات بهيمية ! ، نحو حكاية يدخل بها الجاحظ مخدع زوجين ، نجدهما يتناظران

---

(١) البيان والتبيين ، ج٢ ، ص٢٢٥ ، تحقيق عبد السلام هارون .
(٢) مجاسد : ثوب مصبوغ بالزعفران .
(٣) الحيوان ، ج٦ ، ص ٤٧٠ - ٤٧١ .

دون أدنى حياء ، حول موضوع اللذة في المعاشرة الجنسية ، كيف تتم ؟ وما مدى علاقتها بالعضو التناسلي عند الرجل من حيث الطول والقصر ، وعند الانثى من حيث الضيق والاتساع ؟ ، ويتخلل الحوار بين الزوجين حركات جنسية بهيمية ، وتنتهي المناظرة بتغلب الزوجة على الزوج ، اذ يورد الجاحظ من يعقب على الحكاية بقوله : "قال اليقطرى أمكنها والله من القول ما لم يمكنه"(١) . والحق ان الحكاية تعالج موضوع اللذة في المعاشرة الجنسية بمنتهى الجراءة العلمية ، وذلك من خلال الحجاج المنطقي بين المتناظرين ، وهو اسلوب يعمد اليه الجاحظ كثيرا في مختلف حكاياته ، كما هو واضح في حكايات البخلاء مثلا .

أما الحكايات التي تصور الخيانة الزوجية فإنّها نادرة في حكايات الجاحظ ، واذا كنا قد افتقدنا في السابق الحكاية التي تصور الحب العذرى، أو عشق الاعراب ، فان ثمة حكايات تصور خيانة زوجة اعرابية لزوجها ، والحكاية - كالحكاية السابقة- يرويها الجاحظ عن ابن الاعرابي ، وهي تصور الخيانة الزوجية كما يمكن ان تحدث في بيئة الاعراب ، اذ نرى فيها أعرابية "وعدت اعرابيا ان يأتيها ، فكمن في عُشَره كانت بقربهم ، فنظر الزوج فرأى شبحا في العشرة ، فقال لامرأته : ياهنتاه (٢) ان انسانا يطالعنا من العُشَرَة !

قالت : مه ياشيخ ، ذاك جان العشرة ! اليك عني وعن ولدى !

قال الشيخ : وعني يرحمك الله !

قالت : وعن ابيهم ان هو غطى رأسه ورقد .

فنام الشيخ ، وجاء الاعرابي ، فسفع برجليها ثم اعطاها حتى رضيت"(٣) .

وتصور حكايات الجاحظ الجنسية المرأة في الغالب ذات شهوة جنسية عارمه ، حتى ان بعض الحكايات يصور المرأة ذات الحسب والجمال، حين يتنافس على خطبتها المتنافسون ، تنبذ ذوى الجاه أو المال او الوسامة

---

(١) انظر الحكاية في الحيوان ، ج٦ ،ص ٤٥١ - ٤٥٢ تحت عنوان "حديث امرأة وزوجها" والحكاية مسنده الى ابن الاعرابي .

(٢) ياهنتاه : كناية عن المنادى المؤنث الذى لا تريد التصريح بأسمه .

(٣) الحيوان ، ج٦ ،ص ١٦٨ - والعُشَرَة : واحده العشر ، وهو من كبار الشجر ، له صمغ حلو ، وفيه حراق مثل القطن يقتدح به ، وهو عريض الورق ، وله سكر يخرج من شعبه ومواضع زهره (هامش الحيوان ،ج٦ ، ص ١٦٨) .

او الاخلاق ، وتختار من تسمع بمقدرته الجنسية من امرأة عجوز أو غيرها أو تختار من تتوسم هي فيه الفحولة ، حتى لو كان قبيحا أو كفيفا ! [(١)] على حين نرى جارية في احدى الحكايات تجاهر بجوعها الجنسي في اثناء المضاجعة [(٢)] .

ويلاحظ ان بعض حكايات هذا القسم يوحي بمدى اهتمام المجتمع في زمن الجاحظ بالثقافة الجنسية ،لأن ثمة حكايات تصور افراداً في ذلك العصر قد حاولوا ان يعلموا من يريد بعض اصول ممارسته وفنونه ، مثل " حُبَّي المدينية التي علمت نساء أهل المدينة القَبْع والغَرْبلة ". [(٣)]

وأما القسم الثاني من حكايات الجاحظ الجنسية ، فهو الذى يصور العلاقات الشاذة ، حيث نرى فيه بعض الرجال يريد أن يأتي النساء من غير المواضع الطبيعية التي تؤتى منها [(٤)]، وثمة حكايات فيه تصور بعض الرجال يمارس نشاطه الجنسي مع الحيوان ، مثل الكلاب والبغال [(٥)]. على حين نجد حكايات اخرى تصور العلاقات الجنسية بين الذكر والذكر أو بين اللاطة والمُخَنَّثين !

أما المخنثون فتصورهم بعض الحكايات في الغالب من الغلمان الذين اجبرتهم ظروفهم في البداية على تلقي الشذوذ الجنسي من غيرهم ، فالواحد منهم اذن هو ضحية للظلم الاجتماعي ، الذى وقع عليه ! " قال أبو البصير المنجم ، وهو عند قثم بن جعفر لغلام له مليح ، صغير السن ، ما حبسك ياحَلَقي؟! - والحلقي المُخنّث - ثم قال : أما والله لئن قمت اليك لتعلمنّ ياحلقي ، فلما كثر عليه من هذا الكلام ، بكى (الغلام)

---

(١) انظر مثال ذلك حكاية المرأة القرشية في كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان رقم (٤٢) ص ٦٧ ، تحقيق شارل بلا ، وانظر فيه ايضا حكاية المرأة المدينية رقم (٤٤) ص ٦٨ ، وحكاية المكفوف صاحب الفن في الجنس رقم (٤١) ص ٦٦ .

(٢) انظر حكاية الفتى الصلف مع جارية (الحيوان ، ج٦ ، ص ٢٦٠ ، ومفاخرة الجوارى والغلمان ، ص ٦٠ .

(٣) مفاخرة الجوارى والغلمان ، رقم (٣٦) ، ص ٦٣ ، تحقيق شارل بلا والقبع : النخير عند الجماع ، والغربله : الرهز عند الجماع .

(٤) انظر مثال ذلك الحكاية التي اوردها الجاحظ في مفاخرة الجوارى والغلمان ص ٥٨ ، تحقيق شارل بلا .

(٥) انظر مثال ذلك الحكايات التي يوردها الجاحظ في البيان والتبيين ، ج٤ ، ص ١٤ - ١٥ . تحقيق عبد السلام هارون .

وقال : ادعو الله على من جعلني حَلَقياً ".. (١) .

ثم نرى هؤلاء الغلمان في حكايات اخرى قد ألفوا هذا الشذوذ واعتادوه ، حتى انهم احياناً يتلقون التلميحات حول ذلك في قحه واستهتار !

" قال اسحاق الموصلي : نظرت الى شاب مخنث ، حسن الوجه جداً ، قد هلب لحيته ، فشان وجهه ! فقلت له : لم تفعل هذا بلحيتك ، وقد علمت ان جمال الرجال في اللحى ؟

فقال : يا أبا محمد ، أيسرّك - بالله - أنها في استك ؟!

قلت : لا والله !

فقال: ما انصفتني : تكره ان يكون في استك شيء ، وتأمرني ان أدعه في وجهي ".. (٢) .

ولعل اكثر مظهر من مظاهر الشذوذ الجنسي صورته حكايات الجاحظ هو اللواط ، ويلاحظ في هذه الحكايات ان الجاحظ يقدم شخصيات مختلفه من اللاطه في اطار ساخر ، نشعر من خلاله ، ومن خلال اسلوب المعالجه القصصي ان الحكايات تنطوي على نقد اجتماعي غير مباشر . ومن أطرف الشخصيات التي يقدمها الجاحظ : شخصية عبد العزيز بَشْكَست -

" أما علة عبد العزيز بَشْكَست فان عبد العزيز كان له مال ، وكان اذا جاء وقت الزكاه ، وجاء القواد بغلام مُؤاجَر (٣) ، قال : ياغلام ، ألك أم ؟ ألك خالات ؟!

فيقول الغلام : نعم !

فيقول : خذ هذه العشرة الدراهم ، أو خذ هذه الدنانير ، من زكاة مالي ، فادفعها اليهن ، وان شئت أن تبركني بعد ذلك من جهة المكارمه ، فافعل ! وان شئت ان تنصرف فانصرف .

يقول ذلك وهو واثق ان الغلام لا يمنعه بعد أخذ الدراهم ، وهو يعلم أنه لن يبلغ من صلاح طباع المُؤَاجَرين أن يؤدوا الأمانات ! فغبر بذلك ثلاثين سنه ، وليس له زكاه الا عند امهات المُؤاجَرين واخوانهم وخالاتهم ".. (٤) .

---

(١) الحيوان ، ج٦ ، ص ٤٨٨ - ٤٨٩ . (٢) مفاخرة الجواري والغلمان ،ص ٥٩- ٦٠ تحقيق شارل بلا . (٣) غلام مؤاجر : لفظه عباسيه يقصد بها من يستأجره اللاطه ، (الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٦) .

(٤) الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٦ : لاحظ قوله في الحكايه عن الغلمان المؤاجرين " لن يبلغ من صلاح طباع المؤاجرين ان يؤدوا الامانات " فهم في رأيه غير صالحي السلوك أو النشأه .

ولا يتورع الجاحظ عن تقديم شخصيات مستهتره من المعتزله ، ممن اشتهروا بالشذوذ الجنسي ، مثل : قاسم التَّمَّار الذى يدير الجاحظ حوله حكايات عده ، والذى يصوره لا يتحرج من المجاهره بفجوره ، حتى رويت عنه في ذلك الاقوال المضحكه نحو قوله : " التوى لي عرق حين قعدت مقعد الرجل من الغلام ، وقال في غلام له رومي : ما وضعت بيني وبين الارض اطيب منه " (١) .

وثمة حكايات تصور قاسماً التمار مشهوراً باقتراف اللواط ، حتى انه يتعرض بسبب ذلك لِلَمز الناس وتعريض الخصوم : " كان قاسم التمار عند ابن الاحمد بن عبد الصمد بن علي ، وهناك جماعة ، فأقبل وهب المحتسب يعرّض له بالغلمان ، فلما طال ذلك على قاسم ، اراد ان يقطعه عن نفسه بأن يعرّفه هو ان ذلك القول عليه ، فقال : اشهدوا جميعا أني اعفج الصبيان والتفت التفاتة ، فرأى الاخوين الهذليين ، وكانا يعاديانه بسبب الاعتزال ، فقال : عنيت بقولي : اشهدوا جميعا اني لوطي ، أى على دين لوط ، فقال القوم باجمعهم : أنت لم تقل : اشهدوا اني لوطي " (٢) ، انما قلت : انني اعفج الصبيان .

وثمة حكايات تصور اللواط قد تمكّن من بعض افراد المجتمع ، حتى أدمنه عادة مع الزمن ، فكان يتعذّر عليه ان يقلع عنه ، مهما يتعرض للاحراج أو الضغط الاجتماعي ، على الرغم من انه بشذوذه يعرض أولاده ذوى الاقدار في المجتمع للفضيحه !

" كان رجل من اللاطه ، وله بنون لهم اقدار ومروّآت ، فشانهم بمشيته مع الغلمان ، وطلبه لهم ، فعاتبوه وقالوا : نحن نشترى لك من الوصائف على ما تشتهي ، تشتغل بهن ، فقد فضحتنا في الناس !

فقال : هبكم تشترون لي ما ذكرتم ، فكيف لشيخكم بحرارة الجلجلتين ، فتركوا عتابه ، وعلموا أن لا حيلة فيه " (٣) .

والجاحظ الذى كان يرى ان العاده اذا استفحلت اصبحت في الانسان بمثابة الطبيعة الثانيه (٤) ، يصور باحدى الحكايات آفة اللواط ، تستحكم

---

(١) البيان والتبيين ، ج٤ ، ص ١٢- ١٣ . تحقيق عبد السلام هارون .

(٢) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٥٦٥ . (٣) مفاخرة الجوارى والغلمان ، ص ٥٧ . تحقيق شارل بلا .

(٤) انظر الحيوان ، ج١ ، ص ١٢٦ .

في شخص ، حتى انه لا يرعوى ، على الرغم من أنه شارف على الموت ، وعلى الرغم من رجاء جيرانه الشديد له بأن يتركه : "مرض رجل من عُتَاة اللاطة مرضاً شديدا ، فأيسوا منه فلما أفاق ، وأبلّ من مرضه ، دخل عليه جيرانه ، فقالوا : احمد الله الذى أقالك ، ودع ما كنت فيه من طلب الغلمان ، والانهماك فيهم ، مع هذه السن التي قد بلغتها !

قال : جزاكم الله خيرا ، فقد علمت أن فرط العنايه والموده دعاكم الى عظتي ، ولكن اعتدت هذه الصناعه ، وأنا صغير ، وقد علمتم ما قال بعض الحكماء ، ما اشد فطام الكبير ! قال الشاعر :

"والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه

فقاموا من عنده آيسين من فلاحه ! " (١)

على هذا النحو يصور الجاحظ الشذوذ الجنسي في مجتمعه ، وعلى الرغم من ان اكثر الحكايات التي تصوره ، ليس فيها ثمة اشارة صريحه الى موقف الجاحظ من هذا الشذوذ - اذا ما استثنينا اسلوب السخريه - غير اننا في حكايات قليله نلحظ ثمة اشارات لفظيه ، توحي بموقف الجاحظ منه ، وهو موقف من يعده آفة من آفات المجتمع ! فهو في حكاية اللوطي عبدالعزيز بشكست يخبرنا منذ البدايه أن الشخصيه تعاني من علة "أما علة عبدالعزيز بشكست" (٢) ، ثم نجد ثمة عباره تفيد بأن الغلمان المؤاجرين غير صالحي النشأة أو الطبع "لن يبلغ من صلاح طباع المؤاجرين أن يؤدوا الامانات" (٣) وهو في الحكاية السابقة يصف اللوطي المريض بأنه كان من العُتَاة (٤)، "من عتاة اللاطه" ، وهو منحرف ضال ، قد تأصلت في نفسه عادة اللواط الذميمه ، حتى انه لا تجدى معه العظه ، ولا يرجى له فلاح !" قاموا من عنده آيسين من فلاحه" .

وطرق الجاحظ لموضوع الجنس في حكاياته على النحو الواقعي الجرىء الذى نجده ، لا يشذ عما كان يفعله الادباء في عصره ، فقد

---

(١) مفاخرة الجوارى والغلمان ، ص ٥٦ - ٥٧ . تحقيق شارل بلا .

(٢) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦ .

(٤) عتا : استكبر وجاوز الحد ، والأعتاء : الدُّعّار من الرجال.

كان الخوض فيه شائعاً بينهم ، لا يجدون فيه حرجاً أو تأثّماً . (1) فثمة حكاية تصور احد كبار العلماء في زمن الجاحظ وهو القاضي ابو يوسف. (2) ، لا يتحرج من التباحث في أمور عارية ، ذات علاقة بالجنس ، على قارعة الطريق ، ولو كان من يتوجه اليه بالسؤال يريد المداعبة والمعابثة ، او يقصد مجرد الضحك من السؤال، " فبينا أبو يوسف القاضي يسير بظهر الكوفة ، وذلك بعد ان كتب كتاب الحيل، اذ عرض له ممرور ، عندنا اطيب الخلق ، فقال له : يا أبا يوسف قد أحسنت في كتاب الحيل (3) ، وقد بقيت عليك مسائل في الفِطَن ، فاذا أذنت لي سألتك عنها ، قال : قد أذنت لك فسل ! قال : اخبرني عن الحِر كافر هو أو مؤمن ؟ فقال أبو يوسف : دين الحِر دين المرأه ، ودين صاحبة الحِر ، ان كانت كافرة فهو كافر ، وان كانت مؤمنة فهو مؤمن ! قال: ما صنعت شيئا !

قال (ابو يوسف) : فقل أنت اذن اذا لم ترض بقولي !

فقال : الحِر كافر ، قال : وكيف علمت بذلك ؟

قال : لأن المرأة اذا ركعت أو سجدت استدبر الحر القبلة ،واستقبلت هي القبلة ، ولو كان دينه دين المرأة لصنع كما تصنع ، هذه واحده يا أبا يوسف !

قال : صدقت ! .... " (4)

---

(1) وآية ذلك اننا نجد ابن قتيبة ، وهو القاضي والإمام السني المحافظ يثبت في كتابه " عيون الاخبار "، حكايات جنسية بالفاظ عارية دون تحرج ،ويلفت القارىء في المقدمة الى انه لا ضير في ذلك من الناحية الدينية اذ يقول : " واذا مرّ بك حديث فيه افصاح بذكر عورة او فَرْج او وصف فاحشة فلا يحملنّك الخشوع او التخاشع على ان تصعر خدك وتعرض بوجهك فان اسماء الاعضاء لا تؤثم ، وانما المأثم في شتم الاعراض " ، انظر مقدمة عيون الاخبار ، ج١ ، صي .

(2) هو تلميذ ابي حنيفة المشهور ، ويذكر احمد امين ان الجاحظ روى عنه بعض الاحاديث (فيض الخاطر ، ج٤ ، ص ٢٩١) .

(3) هي الحيل الشرعية التي يتخلص بها من بعض الاحكام أو بعض المحظورات (الحيوان ،ج٣ ، ص ١١).

(4) الحيوان ، ج٣ ، ص ١١ - ١٢ .

٢ - حكايات فكرية وسياسية

حين نصف حكاية من حكايات الجاحظ بأنها ذات طابع فكري او سياسي لسنا نعني بذلك ان الجاحظ قد قصد بالحكاية قصداً الى الفكر أو السياسة ، أو ان مضمونها قد جار على مستوى الجاحظ القصصي المعهود في بقية الحكايات وانما نعني أن الجاحظ استوحى الحكاية من واقع فكري او سياسي كان يعايشه في مجتمعه وعصره .

والتفريق في حكايات الجاحظ بين ما هو فكري وما هو سياسي من حيث المضمون ينطوي على شيء من التعسف ، لانّ الميول السياسية هي في الاصل اتجاهات عقائدية تستند الى الفكر ، واذن فالغاية من الدقة في التمييز هي تيسير الدراسة فقط .

أما الحكايات التي يغلب على مضمونها الطابع الفكري ، فيلاحظ أنّ بعضها يدور حول ادعياء الفكر والثقافة في نظر الجاحظ ، الذي كان - كما يقول احمد امين - : تكاد معارفه تشمل معارف زمنه ، وتكاد كتبه المختلفة تشبه دائرة معارف ، تمثل اصدق تمثيل معارف العصر العباسي الاول[١] ، لكنه فيما يبدو كان يتعرض لمضايقات من بعض ادعياء الثقافة في مجتمعه ، خاصة الكتابه ، فهو في احدى رسائله يصور ادعياء الكتاب تصويرا ساخرا ، نرى الواحد منهم من خلاله « اذا وطيء مقعد الرياسة ، وحجزت السلة دونه وصارت الدواة أمامه ، وحفظ من الكلام فتيقه ، ومن العلم ملحه ، وروى لبزرجمهر امثاله ، ولاردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع أدبه ، وصير كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته ، ظن انه الفاروق الاكبر في التدبير وابن عباس في العلم بالتأويل ، ومعاذ بن جبل في العلم بالحلال والحرام ، وعلي بن أبي طالب في الجرأة على القضاء ... »[٢] ، ويلاحظ أنّ ثقافة هؤلاء الكتاب الذين يغمزهم الجاحظ هي فارسية في الغالب ، كما يلاحظ اعتداد الجاحظ بالثقافة العربية الاصيلة ، وغيرته على الدين واعلامه من المفكرين ايضا .

---

(١) فيض الخاطر ، ج٤ ، ص ٢٨٨ .

(٢) كتاب ذم الكتاب ، ص ١٩١- ١٩٢ ، رسائل الجاحظ ، ج٣ ، تحقيق عبد السلام هارون.

فهو بعد ان يصف غرور اولئك الكتاب ، يبين ان الواحد منهم ما ان يلم بشيء من ثقافته الاعجمية ، حتى يكون " أول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يظهر ظرفه بتكذيب الاخبار، وتهجين من نقل الآثار ، فإن استرجح أحد عنده شريح جرحه ، وان نعت له الحسن استثقله ، وان وصف له الشعبي استحمقه ، وان قيل له : ابن جبير استجهله ، وان قدم عنده النخعي استصغره ... "(١) .

واغلب الظن أن الجاحظ يقصد بكلامه الكتاب الشعوبيين في عصره ، كذلك نجده في الحكايات(٢) ، يعرض لادعياء الفكر من الكتاب الشيعة ، الذين كانوا في الغالب يناصبونه العداء ، بسبب فكره الاعتزالي ، مثل احمد أبن عبد الوهاب الذى " كان يطعن على الجاحظ ، ويغالي في ثلب آرائه وتنقص مذهبه ودينه "(٣) ، واحمد بن عبد الوهاب هو " أحد الوراقين من غلاة الشيعة ، ومن خصوم المعتزلة عامة "(٤) ، وقد وصفه الجاحظ بأنه " من بجيله ، ومن اصحاب صالح بن علي ، وسليمان بن وهب ، وندماء جعفر الخياط ، وقال انه من الرافضة المشبعة ، وكان بخاشنه "(٥) .

وقد استوحى الجاحظ احدى حكاياته الطويلة من هذه الشخصية ، ونقصد بها حكاية التربيع والتدوير(٦) ، وتنقسم الحكاية من حيث المضمون قسمين رئيسيين : قسماً يقدم فيه الجاحظ خصمه احمد بن عبد الوهاب ، فيصف ملامح جسمه المتنافره ، واغتراره مع ذلك بحسن قوامه وبتناسقه ، ثم يعرض

---

(١) كتاب ذم الكتاب ، ص : ١٩٢ رسائل الجاحظ ج٢ ، تحقيق عبد السلام هارون .
(٢) انظر الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٧
(٣) محمد عبد المنعم خفاجي ، ابو عثمان الجاحظ ، ص ٣٢٣ .
(٤) المرجع نفسه ، ص ٣٢٣ .
(٥) د. شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص ١١٣ .
(٦) نؤثر ان نسميها حكايه لا رساله كما هو شائع ، لأنه لدى دراستها من حيث الشكل الفني - كما سنرى في الفصل القادم - يتبين ان الجاحظ قد انتهج فيها اسلوبا قصصيا من حيث رسم الشخصية ، والحبكة والخاتمة ينتهجه في الكثير من حكاياته القصيرة .

بعد ذلك لادعائه العلم والفكر ، على الرغم مما ينطوي عليه فكره من جهل ، فيقول : " وكان ادعاؤه لاصناف العلم ، على قدر جهله بها ، وتكلفه للابانه عنها على قدر غباوته عنها ! ... وكان كثير الاعتراض لهجا بالمراء ، شديد الخلاف ، كلفا بالمجاذبه ، متتابعا في العنود مؤثرا للمغالبه ، مع اضلال الحجة ، والجهل بموضع الشبهة "(١).

ثم يمضي الجاحظ على هذا النحو يصور باسلوبه الساخر ، فكر خصمه ، وما ينطوي عليه من تناقض بين الحقيقة والوهم ، الى ان يجاهر في نهاية القسم الاول بالسبب الذى دعاه الى تأليف حكاية حوله ، وهو تعرض احمد بن عبد الوهاب له ، وتعالمه عليه ، فيقول : " فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا ، وكدنا نعتاد مذهبه ، وتألف سبيله ، رأيت ان اكشف قناعه ، وابدى صفحته للحاضر والبادى ، وسكان كل ثغر ، وكل مصر ، بأن اسأله عن مائة مسألة ، أهزأ فيها ، واعرف الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كان في مكه ، ليكفوا عنا غَرْبَه ، وليردوه بذلك الى ما هو أولى به " (٢) .

وأما القسم الثاني فهو يتضمن الحكاية نفسها التي يستوحي بها الجاحظ ما ذكره في القسم الاول عن احمد بن عبد الوهاب مستعينا على ذلك بثقافته اليونانية ، كما يرى الدكتور شوقي ضيف ، فالجاحظ في رأيه قد بنى الحكاية على فكره استعارها من فكرة الاوساط اليونانية ، المعروفة في الاخلاق ، لكن بعد ان حوّرها وعدلها " (٣)، والحكاية من النوع الذى يكون الجاحظ نفسه طرفا فيه ، وهو ما يصور به الجاحظ في الغالب تجارب شخصيه ماضيه ، أو مواقف طريفه مرّ بها ، ويلاحظ ان حكايات هذا النوع ... تميل الى الحوار والاعتماد على السؤال والجواب ، ... وحكاية التربيع والتدوير مع انها اطول حكايات الجاحظ الا انها لا تشذ عن هذا النهج ، فالجاحظ يستهجن من ابن عبد الوهاب غروره الشديد بحسن جسمه ، وبغزير علمه ، فيأخذ يلقي عليه اسئله فكريه وعلميه عسدة ، دون ان يتلقى أجوبة عنها ! ... ويرى بعض الدارسين المحدثين ان الاسئله المائه التي يلقيها الجاحظ في حكاية التربيع والتدوير تمثل أبرز الاسئلة العلمية والفكرية التي كانت تشغل

---

(١) التربيع والتدوير ، ص ٥١ ، تحقيق شارل بلا

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦ .

(٣) الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص ١١٤ .

بال العلماء والمفكرين في زمنه ، لانها تتناول معظم انواع المعلومات في عصره ، من تاريخية وجغرافية ، وفلكية ، وادبية ، وعقلية ، وفقهية وسحرية ، مما يدل على موسوعية اطلاعه .. (١) .

ويرى المستشرق الفرنسي شارل بلا ان الجاحظ وان قصد ظاهريا ان يقمع مراء خصمه احمد بن عبد الوهاب ، وان يكشف جهله بما يلقيه عليه من اسئلة فكرية وعلمية ، فقد قصد في الحقيقة ان يلفت نظر المفكرين والعلماء في زمنه الى ان كثيرا مما يسلمون بصحته هو باطل، عند امعان النظر فيه ، ومن ثم بدا ما يلقيه " اسئلة عويصة ، تتعلق بالظواهر الطبيعية ، والتاريخ القديم ، واساطير ينقلها الرواة ، فتصير حقائق ، وغير ذلك من المعضلات التي كان من عاصر الجاحظ ، لا يتفكرون فيها ، مكتفين راضين بالحلول التقليدية الجامدة ..(٢) ، وتبدو الاسئلة العلمية والفكرية تتوالى على ابن عبد الوهاب بين الحين والحين في الحكاية على هذا النحو : " فياقعيد الفلك : كيف امسيت ؟ وياقوة الهيولي : كيف اصبحت ؟ ويانسر لقمان : كيف ظهرت ؟ ويا أقدم من دوس ، ويا أسن من لُبَد ! حدثني كيف رأيت الطوفان ؟ ومتى كان سيل العَرِم ؟ ومذ كم مات أعوج ؟ ومتى تبلبلت الالسن ؟ وما حبس غراب نوح ؟ وكم لبثتم في السفينة ؟ ومذ كم كان زمان الختان ، ويوم السلان ، ويوم خزاذ ووقعة البيداء ؟..(٣)... جعلت فداك ! من أبو جُرْهم ؟ ومن رهط الدجال ؟ وهل تعرف له شبيها ؟ اين طويس ؟ وما قصة ابن صائد ؟ وممن سَوْش المنتظر ؟ وخبرني عن هرمس : أهو ادريس ؟ ، وعن ارميا : أهو الخضر ؟ (٤) .

وكيف كان بدء أمر البدّ في الهند ، وعبادة الاصنام في الامم وقصة عمر بن لحي في العرب ... ؟ ..(٥) ، على ان الجاحظ لا يطيل كثيرا في طرح الاسئلة المتتالية ، مخافة الاثقال على القارئ واملاله ، لذلك يَعْمِد بين فترة واخرى ، الى معاتبة خصمه باسلوب ضاحك ساخر ، متظاهراً أنه يوافقه

---

(١) انيس المقدسي ، تطور الاساليب النثرية في الادب العربي ، ص ١٨٢ ، ط ٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت - ١٩٦٨ .

(٢) اصالة الجاحظ ، ص ٢٣ .

(٣) التربيع والتدوير ، ص ٢٦ . تحقيق شارل بلا .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣ .

على وهمه بأنه متناسق الجسم ، غزير العلم ، داعيا اياه الى عدم الالتفات الى كل من يقول غير ذلك ، نحو قوله : " وما يهمك من اقاويلهم ويتعاظمك من اختلافهم ، والراسخون في العلم ، والناطقون بالفهم يعلمون ان استفاضة عرضك قد ادخلت الغيم على ارتفاع سمكك ، وأن ما ذهب منك عرضا ، قد استغرق ما ذهب منك طولا ، ولئن اختلفوا في طولك ، لقد اتفقوا في عرضك ، واذا قد سلموا لك بالرغم شطرا ، ومنعوك بالظلم شطرا ، فقد حصلت ما سلّموا ، وأنت على دعواك فيما لم يسلموا ..."(١).

وهكذا تستمر الحكاية الطويلة حتى النهاية بين اسئلة علمية وفكرية جادة ، وتهكم طريف ، فتثير فينا الضحك والتفكير معا.

واغلب الظن أننا لو حذفنا القسم الأول ، الذى يجاهر فيه الجاحظ باسلوب مباشر بحقيقة رأيه في ابن عبد الوهاب وبمقصده الاساسي من وضع الحكاية لما استطعنا أن نتعرف حقيقة رأيه فيه ، وحقيقة مراميه البعيدة في الحكاية من أول وهلة ، واغلب الظن أننا سنتابعه حتى النهاية ، ونحن نتوقع من هذا الذى يخاطبه ويسائله ان يتحرك للاجابة ، ولكن لنُفْجأ في ختام الحكاية بأن من يخاطبه لا يجيب ، وبأن الجاحظ -على الرغم من تظاهره بالاقتناع بغزارة علمه - كان واثقا منذ البداية من أنه لا يستطيع أن يجيب ، ولكنه لا يجاهر بذلك الا في نهاية الحكاية اذ يقول :

" وقد سألتك ، وان كنت أعلم انك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيرا ، فأن اردت ان تعرف حق هذه المسائل وباطلها ، وما فيها من خرافة ، وما فيها محال ، وما فيها صحيح ، وما فيها فاسد (٢) ، فالزم نفسك قراءة كتبي ، ولزوم بابي ". (٣)

---

(١) التربيع والتدوير ، ص ١٤ ، تحقيق شارل بلا . (٢) وقول الجاحظ بأن بعض ما عرض له من مسائل فكرية أو علمية باطل ، أو خرافة أو محال، أو فاسد ، يقوى رأى شارل بلا السابق : وهو انه لم يقصد من القاء المسائل خصمه احمد بن عبد الوهاب وحده ، وانما قصد ان ينبه مفكرى عصره وعلماءه الى ان كثيرا من المسائل الفكرية والعلمية التي يسلمون بها حقائق ، جدير بمعاودة النظر منهم . (٣) التربيع والتدوير ، ص ٩٧ .

ثم يدعوه الى ترك التشيع واتباع مذهب المعتزلة .(١)

على هذا النحو يعرض الجاحظ في الحكاية لأهم المسائل الفكرية والعلمية في زمنه ، وأما قول شارل بلا :ان الجاحظ اذ طرح المسائل فانه "لم يقل لنا ما هي الحلول التي يقترحها ، والاجوبة التي يؤثرها"٠(٢) فمرده الى السهو عنده ، فقد رأينا كيف يحيل الجاحظ خصمه الى كتبه المختلفة لمعرفة إجابة المسائل جميعها ! مبينا أن بعضها من الخرافات التي كانت شائعة في مجتمعه ، ولقد لاحظنا ان الجاحظ في الحيوان وهو يتحدث في أحد المواضع عن الخرافات الشائعة التي تتعلق بالحيوان ، قد اشار الى حكاية التربيع والتدوير ، فقال عند "الحديث عن مسخ الضب والجري ، وعن مسخ الكلاب والحكأة ، وان الحمام شيطان"٠(٣). ((انه من جنس المزاح الذى كتبنا به الى بعض اخواننا ممن يدّعي علم كل شيء ، فجعلنا هذه الخرافات ، وهذه الفِطَن الصغار من باب المسائل))(٤).

ويعرض الجاحظ ببعض الحكايات لادعياء الفقه في زمنه ، الذين يتعلقون بمظاهر سطحية ، متوهمين أنها المؤهلات الحقيقة ، التي تجيز لهم ان يدّعوا العلم في الفقه ، فيرسم لهم صورة ساخرة ايضا نحو الصورة التي رسمها لشخص يدعى عبدالله الكرخي اللحياني ، اذ نراه فيها قد "تحول الى الخُرَيبة(٥) فادعى أنه فقيه ، وظن أن ذلك يجوز له ، لمكان لحيته وسمته ، ... فالقى على باب داره البواري(٦) وجلس ، وجلس اليه بعض الجيران ، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبدالله رجل أدخل اصبعه في أنفه ، فخرج عليها دم ، أي شيء يصنع؟ قال : يحتجم ، قال : قعدت طبيبا أو قعدت فقيها ؟!(٧) ، ولا يغفل

---

(١) يجدر بنا أن نلحظ ان الجاحظ يصدر في خلافه مع الفرق الاسلامية الاخرى عن مبادئه الاعتزاليه ، أما أهم مبادئ المعتزلة فهي القول : ان القرآن مخلوق مُحْدَث وليس بقديم . وان الله لا يُرى يوم القيامة ، وان المؤمن المذنب في منزله بين منزلتين (ليس بمؤمن ولا بكافر) ، وان اعجاز القرآن بالصرفه ، فلو لم يصرف الله العرب عن معارضته لاتوا بما يعارضه ، وان من دخل النار لا يخرج منها (انظر ثمرات الاوراق ، ابن حجه الحموى ، صححه وعلق عليه محمد ابو الفضل ابراهيم ، الناشر مكتبة الخانجي - القاهره - ١٩٧١) ص : ١٨ .

(٢) اصالة الجاحظ ، ص ٢٤

(٣) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٠٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٣٠٨ .

(٥) الخريبه : موقع بالبصره عنده كانت وقعة الجمل بين علي وعائشه.الحيوان ج٣ص٨٠

(٦) البواري : الحصر . (٧) الحيوان . ج٣ ، ص ٧-٨ .

الجاحظ بعض جهلاء الأخباريين والقُصّاص في زمنه ، وما يروى هؤلاء من حكايات تتضمن احيانا خرافات لا يقرّها الجاحظ العالم ، ولذلك يعرض لها باسلوب يوحي بالتكذيب والهزء ، نحو قوله "« زعم بعض المفسرين واصحاب الاخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر ، فعطس الأسد عطسة ، فرمى من منخريه بزوج سنانير ! فلذلك السّنور اشبه شيء بالاسد ،.. وسلح الفيل زوج خنازير ، فلذلك الخنزير اشبه شيء بالفيل ! »" (١). فالجاحظ العالم الطبيعي ، الذى يحدثنا في كتابه " الحيوان " عن تجاربه العلمية التي كان يجريها على الحيوانات والحشرات ، لمعرفة بعض حقائقها (٢). لا يسيغ هذا الاسلوب الخرافي في تعليل خلق السنور والخنازير ، ولذلك ابتدأ الحكاية بالفعل "زعم" ، كما انهاها بالسخرية والضحك ((... قال كيسان : فينبغي ان يكون ذلك السنور آدم السنانير ، وتلك السنوره حواءها ! قال ابو عبيده لكيسان : أو لم تعلم أنت ان لكل جنس من الحيوان آدم وحواء ؟ ! ، وضحك القوم !)) (٣) .

ولا يفوت الجاحظ المعتزلي المتكلم ان يصور ببعض الحكايات جهلاء المتكلمين وما يصدر عنهم من سخف في بعض الاحيان . كحكاياته مثلا عن أبي احمد التّمّار مع صاحب الحمام (٤)، وجينما جلس يقص ويعظ (٥). وكحكايته عن أبي لقمان ، الذى كان يجالس المتكلمين ، حتى اذا سئل ذات يوم عن الجزء الذى لا يتجزأ أجاب : "« الجزء الذى لا يتجزأ هو علي بن ابي الخطاب عليه السلام ، فقال له ابو العيناء محمد : أفليس في الارض جزء لا يتجزأ غيره ؟!

قال : بلى ، حمزه جزء لا يتجزأ ، وجعفر جزء لا يتجزأ .

قال : فما تقول في العباس ؟ !

قال : جزأ لا يتجزأ .

قال : فما تقول في أبي بكر وعمر ؟

قال : أبو بكر يتجزأ ، وعمر يتجزأ .

---

(١) الحيوان ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

(٢) انظر الحيوان ، ج٥ ، ص ٢٤٨ ، ص ٢٥٢ ، و ج٦ ، ص ٣٩٩ .

(٣) الحيوان ، ج١ ، ص ١٤٦ .

(٤) انظر الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٩٤ .

(٥) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٢٩٧ .

قـال : فما تقول في عثمـان ؟
قـال : يتجزأ مرتين ، والزبير يتجزأ مرتين .
قـال : فأي شيء تقول في معاويـه ؟
قـال : لا يتجزأ ، ولا لا يتجزأ ". (١)

ثم يعقب الجاحظ على حكاية أبي لقمان الذى يبدو متشيعـاً ، بقوله : "فقد فكرنا في تأويل كلام أبي لقمان حين جعل الامام جزءاً لا يتجزأ الى أى شيء ذهب ؟ ، فلم نقع عليه الا أن يكون ، كان أبو لقمان اذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذى لا يتجزأ ، هاله ذلك ، وكبر في صدره ، وتوهم أنه إلباب الاكبر من علم الفلسفـه " (٢) .

ويصور الجاحظ بعض الحكايات تصويرا ساخرا سذاجة الفكـر الشعبي الغالب في مجتمعه ، وايمان كثير من الناس بالخرافات ، مما يتيح الفرصة للمشعوذين لخداعهم وابتزازهم ، كالايمان بالرُّقْيُه مثلا ! ففي حكايـة ((سُكَّر الشطرنجي)) نراه يعطي أحد الحواة درهما ، ويقول له : ((خذ مني هذا الدرهم ، وارقني رُقْيه لا تضرني معها حيّة ابدا)) (٣). لكن رقيه الحاوى لا تنفعه ، اذ تعضه احدى الحيات عضة تكاد تقضي عليه لولا اسعافه ! ... ويصور الجاحظ المشعوذين يسخرون من سذاجة عقول بعض الناس ، فيقومون بخداعهم وابتزازهم : ((قال الجاحظ : كان رجل يرقى الضرس ، يسخر بالناس ، ليأخذ منهم شيئا ، وكان يقول للذى يرقيه : اياك ان يخطر على قلبك الليله ذكر القرد ، فيبيت وَجِعا ، فيبكر اليه فيقول : لعلك ذكرت القرد ، فيقول : نعم ، فيقول : من ثمّ لم تنفع الرُّقيه)) (٤) .

وفي حكاية اخرى نرى المشعوذ أبا حكيم الكيميائي ، وقد أخذ يعرض مزاعمه عن قدراته الخارقة امام جماعة من الناس ، فيهم بعض علماء المعتزلة مثل الجاحظ ، وثمامه بن اشرس ، فيقابله اكثرهم بالضحك والاستهزاء ، ثم يتركونه ، فلا يبقى الا واحدا منهم جالسا ، ويدعى ابن سافرى ، الذى ينخدع بكلام المشعوذ على ما يبدو فيأخذ ابا حكيم الى البيت قائلا : احببت ان تخرج

---

(١) انظر الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٧ - ٣٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٣٧
(٣) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ١٤٧
(٤) ابن الجوزى ، اخبار الاذكياء ، ص ١١٠، تحقيق محمد مرسي الخولي ، معهد المخطوطات - جامعة الدول العربية - القاهره - ١٩٧٠ .

البعوض من داري ، فأما الذباب فاني احتمله)) [(١)]، فيطلب منه أبو حكيم لقاء ذلك خمسين دينارا ، لاخراج البعوض بوساطة العمّار (الجن) الذين يسكنون بيته ، فيعطيه المبلغ ودنانير اخرى يخطئ بها ، فيغنمها منه أبو حكيم دون ان يفعل شيئا في البعوض ، فيصبح أبن سافرى بعد ذلك عرضة للسخرية والتقريع من ثمامة بن اشرس وغيره .

وتدور حكايات الجاحظ عن المعلمين في الغالب حول غفلتهم ، وعدم جدارتهم بالمهنة ، وما ينطوي عليه فكرهم من جهل ! وهو لا يقصد بالحكايات كبار المعلمين من امثال الكسائي ، ومحمد ابن المستنير (قطرب) ، أو ازدراء مهنة التعليم التي يقدّر دورها في تقدم المجتمع وتأخره ،[(٢)] وانما يقصد بها معلمي القرى والكتاتيب الذين كانوا يتصدون للمهنة الجليلة وهم غير مؤهلين ، فتكون النتيجة أنهم يضرون الناشئة ، بما ينطوي عليه فكر أحدهم من جهل وقلة ذكاء :

" قيل ان معلما جاء الى الجاحظ فقال : أنت الذى صنعت كتاب المعلمين تعيبهم ، قال : نعم ! قال : وذكرت فيه بعض المعلمين ، جاء الى الصياد ، وقال: ايش تصطاد طريا أم مالحا ؟ قال : نعم ! قال: ذلك أبْله ، ولو كان فيه ذكاء كان يقف فينظر ، أن خرج طرى علم أو خرج مالح علم " .[(٣)]

أما الحكايات السياسية : فيحتوي الجاحظ بها أبرز مظاهر الواقع السياسي في عصره ، مثل قيام الدولة العباسية ، ويصور الاحزاب أو الاجناس التي كانت تناهض بني العباس أو تؤيدهم .

فثمة حكاية يصور الجاحظ بها أحد الوصوليين السياسيين في بداية العصر العباسي ، يطمع في حُظْوة من الدولة الجديدة ، متخذا من شعارها مظهرا له ، " فاذا هو اسود ولحيته سوداء ، وثيابه سود ، وعمامته سوداء ، وسرجه اسود ، وسمور سرجه اسود ، وهو على برذون أدهم ، وقد ركبه غبار ، فقلت : اعوذ بالله من هذا الزي ، أهل خراسان الذين هم اهل الدعوة ،[(٤)] ومخرج الدولة ،لا يتكلفون جميع هذه الخصال كلها

---

(١) الحيوان ، ج٣، ص ٣٨٥ (٢) انظر فصول مختارة من كتب الجاحظ ، ص ١٧، فصل من كتاب المعلمين ، اختيار عبيد الله بن حسان على هامش كتاب الكامل للمبرد ، ج١ ، ط١ - مطبعة التقدم العلمية ١٣٢٣ هـ .

(٣) ابن الجوزي ، اخبار الحمقى والمغفلين ،ص ١٤٢ (٤) المقصود الدعاة للعباسيين ،والضميرفي قلت يعودعلى من يروي للجاحظ الحكاية فهو يبدأها بقوله (حدثني صديق) .

لانفسهم ، واكتفوا بسواد ثيابهم .. (١) ، ثم نرى في نهاية الحكاية الهدف الذى يطمح اليه هذا الرجل من وراء تمسّحه بالسواد - اللون الذى اختاره العباسيون من بين الالوان ليميز دولتهم الجديدة - فالرجل المُجلّل نراه في ختام الحكايه .. يتعرض لصاحب الاخبار ، طمعا في ان يرفع خبره ، فينال بذلك مرتبه (قال) فقلت له : والله ان هذا الزى لقبيح من أهل هذه الدوله، فما ظنك بانسان يَحامي مره ، وشَبّمي مره ، والله ان لو رفعت في الخبر ، لارتفعت معك ، حتى اخبر عنك ..(٢) .

وتصور بعض الحكايات احداثاً سياسيه بارزه في صدر الدوله العباسيه ، مثل حكاية قتل المنصور لابي مسلم (٣) ، وثمة حكاية تصور الصراع بين الامين والمأمون على السلطة ، ويمكننا من خلال الحكاية ان نرصد ميل الجاحظ الى المأمون في هذا الصراع (٤)، اذ انها تلقب الأمين بالمخلوع ، وتصوره يتماجن في احلك ظروف الصراع ، ففي حين تكون جيوش اخيه المأمون تحيط ببغداد نراه يرتاد الحانات ، ليخالط اصحاب القمار والنرد والنبيذ ! "لا حدثني ابراهيم بن هانىء قال : حدثني سعيد بن جابر قال : لما كادت الاجناد تحيط ببغداد من جوانبها ، قال لنا المخلوع : لو خرجنا هكذا الى قُطْربُل (٥) على دوابنا ، ثم رجعنا من فورنا كان لنا في ذلك نُشْرة (٦)، قال : فلما صرنا هناك هجمنا على موضع خمارين ، فرأى أناسا قد تطافروا (٧) من بعض تلك الحانات ، فسأل عنهم ، فاذا هم اصحاب قمار ونرد ونبيذ ! فبعث في اثارهم ، فردوا ! وقال لنا : أشتهي ان اسمع حديثهم وارى مجلسهم وقمارهم ، قال : فدخلنا الى موضعهم ، فاذا تخت النرد قطعة لبد ، واذا فصوص النرد من طين ، بعضه مسوّد ، وبعضه

---

(١) القول في البغال ، ص ١٢٦ ، تحقيق وتعليق شارل بلا .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٧

(٣) مرت بنا الحكاية في السابق ، انظر الفصل الاول . نظرة عامةفي حكايات الجاحظ . (٤) من المعروف ان الخليفة المأمون كان احد علماء المعتزله وكان معجبا بكتب الجاحظ ، كما يخبرنا الجاحظ نفسه في البيان ، وقد قربه وولاه ديوان الرسائل ، ومن ثم ليس غريبا ان يميل الجاحظ اليه .

(٥) قُطْربل : قريه بين بغداد وعكبر ينسب اليها الخمر (الحيوان ج٥ ص ٣٨١)

(٦) النشره : في الاصل ضرب من الرقيه ، والعلاج يعالج به المجنون المريض .

(٧) تطافروا : تواثبوا .

متروك ، واذا الكعبان من عروة كوز محككة ، واذا بعضهم يتكىء على دَنّ خال وتحتهم بَوَار قد تَنَشَّرت (١). قال : فبينما هو يضحك منهم ، اذ رأيت قملة تدبّ على ذيلّه ! فتغفلته ، وأخذتها ، فرآني وقد تناولت شيئا فقال لي، أي شيء تناولت ؟ فقلت : دُويبة دبّت على ذيلك من ثياب هؤلاء ، قال: وأي دابة هي ؟ قلت قملة ! قال : أرنيها ، فقد والله سمعت بها ! قال : فتعجبت يومئذ من المقادير : كيف ترفع رجالا في السماء ، وتحط آخرين في الثرى "، (٢)

وثمة حكايات يعرض الجاحظ بها للفرق التي كانت تناصب الدولة العباسية العداء ، مثل الشيعة والخوارج ، فالجاحظ الذى كان يلقى المضايقات احيانا من بعض الشيعة ، يبدو في الكثير من حكاياته يسخر من التشيع عامه - ويقف منه في وضوح موقف الناعي على اصحابه ، وذلك لسببين رئيسيين : الأول فكرى ، لانه معتزلي ، والثاني سياسي ، لأنه كان مناصرا للخلافة العباسية ، حتى انه استطاع بدهائه ان يكتسب ودّ خلفائها ووزرائها على اختلاف ميولهم .(٣) فالجاحظ كان من ابرز الكتاب السياسيين للدولة العباسية ، حتى كانت رسائله السياسية كما يقول شارل بلا : اشبه بالمقالات الافتتاحية التي تنشرها بعض الصحف، تأييداً لسياسة الحكومة "(٤) .

والشيعة كانوا يناصبون الدولة العباسية العداء ، ولذلك نجد الجاحظ في بعض حكاياته يصورهم تصويرا يثير دهشة القارىء واستهزاءه ويبين له مدى انحرافهم عن جادة الدين الحنيف ، وشدة كراهيتهم لكبار الصحابة ومن ابرز الامثلة على ذلك حكايته عن المتشيع " خشنام بن هند " ، فهو كان اذا " اراد ان يسمي ابا بكر أو عمر قال : الجِبت والطاغوت ومُنكر ونكير ، وافٍ وثُّفٍ وكسير وعوير ، وكان لا يزال يدخل داره حمار كسّاح (٥) ويضربه مائة عصا ، على ان أبا بكر وعمر في جوفه " (٦) .

---

(١) تنسرت : انتشرت

(٢) الحيوان ، ج ٥ ، ص ٣٨١ - ٣٨٢ .
ولاحظ ان قفله الحكايه توحي في وضوح الى التفاوت الكبير بين مستوى معيشة الطبقة الحاكمة ومعيشة عامة الناس في عصر الجاحظ .

(٣) احمد امين ، فيض الخاطر ، ج ٤ ، ص ٢٩ .

(٤) اصالة الجاحظ ، ص ١٦ (٥) الكساح : الزبال .

(٦) الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٠ .

ثم نرى خشنام بعد ذلك لا ينادي ابنه الا بعد ان يقذف أمه بالزنا ، حتى اذا انتقده الجاحظ ذات يوم قائلا :((ويحك بأى شيء تستحل ان تقذف أمه بالزنا ؟ ! قال لو كان عليّ في ذلك حرج لما قذفتها !)) فيسأله الجاحظ : ((فلم تزوجت امرأة ليس في قذفها حرج ؟ قال : اني قد احتلت حيلة ، حتى حلّ لي من اجلها ما كان يحرم ! قلت : وما تلك الحيله ؟ !)) .. وهنا يخبره أنه طلّق أم ابنه ذات مره ، ثم استطاع خلال ذلك أن يضاجعها قبل أن يعيدها الى عصمته ثانية ، ثم يقول له : " انى والله ما اشك ان الله اذا علم أني لم أزن بها تلك المره الا من خوف الاثم ، اذا قذفتها أنه سيجعل تلك الزنيه له طاعه ، فقلت : أنت الآن على يقين ان زناك طاعه لله تعالى ؟ ! قال : نعم " .. (١)

واغلب الظن ان الحكايه هي من وضع الجاحظ ، ذلك أنها غير مسنده ، وان الجاحظ يدخل نفسه طرفا فيها يحاور ويسأل ، وأنها تتسق مع حكايات آخرى يعرّض فيها الجاحظ بالشيعه ، فهو في حكايه اخرى مثلا ، يغمز الشيعه من خلال شيخ أباضي يضطرب في اثناء تذكرّه ، فيقول : " وقد ذهب عني اسمه وكنيته ".(٢) . ثم يخبرنا عن هذا الشيخ أنه جرى ذات يوم شيء من التشيع والشيعه امامه ، فأنكر ذلك ، واشتد غضبه عليهم قال الجاحظ : (فتوهّمت ان ذلك انما اعتراه للأباضيه (٣) التي فيه وقلت : وما علي ان سألته ؟ فانه يقال : ان السائل لا يعدمه ان يسمع في الجواب حجه أو حيله ، او مُلحه : فقلت : وما انكرت من التشيع ومن ذكر الشيعه ؟ قال : انكرت منه مكان الشين في اول الكلمه ، لأنني لم اجد الشين في اول كلمة قط الا وهي مسخوطه ، مثل : شؤم وشر ، وشيطان وشغب ، وشح وشمال وشجن وشجب وشين ، وشراسه وشنج

---

(١) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

(٣) الاباضيه : اشهر فرق الخوارج لانهم لا يزالون حتى يومنا هذا يسكنون في عمان وزنجبار وشمال افريقية ، والاباضيه هم اصحاب عبدالله بن اباض ويبرأون من تسميتهم بالخوارج ويقولون : نحن اباضيه كالشافعيه والحنفية والمالكية ويرفضون اقتصار الامامة على قريش .
 انظر كتاب نشأة الحركة الاباضية للدكتور عوض خليفات ص ٧٥ - ٨٥ ، (دار الشعب - عمان ١٩٧٨) . وكتاب اسلام بلا مذاهب للدكتور مصطفى الشكعه ، ص ١٥٧ ، (دار النهضه ، بيروت (د . ت)).

وشك وشوكه وشبت وشرك وشارب وشطير وشطور ، وشعره ، وشاي وشتيم وشيطرج (١)، وشنعه وشناعه وشأمه وشوصه (٢) وشتر وشحوب وشجه وشطون ، وشاطن وشن وشلل وشيص (٣) وشاطر وشاطره وشاحب .

قلت له : ما سمعت متكلما قط يقول هذا ، ولا يبلغه ، ولا يقوم لهؤلاء القوم قائسه بعد هذا "" (٤) ، وحين ندقق في الاسماء الشينيه الثمانية والثلاثين ، التي توردها الحكايه نشعر ان بعضها لا يتأتى الا لبصير في اللغة كالجاحظ نفسه ، وقد اورد ابن قتيبه الحكايه واسندها الى الجاحظ (٥) ، كما اوردها ابن عبد ربه في العقد الفريد واسندها اليه ايضا (٦) .

والجاحظ الذى كان في الغالب يواكب بقلمه مختلف التطورات السياسية التي كانت تطرأ في زمنه على الخلافة العباسية ، لا يغفل عما طرأ عليها في زمن الخليفة المعتصم ، حين استبدل العنصر التركي بالفارسي ، لذلك فقد ألف رسالة يمدح بها اخوال الخليفة ، وجند الدولة الجدد ، تحت عنوان: ((مناقب الاتراك)) ، ويقول في مقدمتها : "« هذا كتاب كنت كتبته أيام المعتصم بالله رضي الله عنه ، فلم يصل اليه لاسباب طويله »"(٧)، وقد ضمن الرساله عدة حكايات يصور في مجملها شجاعة الجندى التركي ، واكتمال الصفات العسكريه الممتازه فيه اكثر من غيره ، فثمة حكاية تصور قادة الدولة المشهورين ، وهم مجتمعون في أسدار العامة للخلافة ، وبيناهم كذلك "" اذ خرج رسول المأمون فقال لهم : نقول لكم متفرقين ومجتمعين ، ليكتب كل رجل منكم دعواه وحجته ، وليقل : أيما أحب الى

---

(١) الشيطرج : نبت يوجد بالقبور الخراب ، رائحته ثقيله حاده وطعمه مر
(٢) الشوصه : وجع البطن ، أو ريح تعتقب في الاضلاع أو ورم في حجابها .
(٣) الشيص : ارد أ التمر ، ووجع الضرس أو البطن .
(٤) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٢ - ٢٣ .
(٥) انظر عيون الاخبار ، ج١ ، ص ٥٦ .
(٦) انظر العقد الفريد ، ج ١ ، ص : ٣٥٤ .
(٧) مناقب الاتراك ، رسائل الجاحظ ، ج١ ، ص : ٣٦ . تحقيق عبد السلام هارون .

كل قائد منكم اذا كان في عدته من صحبه وثقافته ، أن يلقى مائة تركي أو مائة خارجي ؟ " (١) ، فيكون الجواب لانْ نلقى مائة تركي أحب الينا من ان نلقى مائة خارجي ، هكذا يقول القادة جميعهم ، الا واحدا منهم يدعى حميد بن عبد الحميد ، فانه يبقى صامتا ، حتى يفرغ الجميع من حججهم التي يسوقونها لتسويغ تفضيلهم ، وحينئذ يقول : " بل القى مائة خارجي احب اليّ ، لأنني وجدت الخصال التي يفضُل بها الخارجي جميع المقاتله غير تامه في الخارجي ، ووجدتها تامه في التركي " (٢) ، ثم يأخذ بعد ذلك يعدد ميزات الشجاعة في الاتراك ، ويحاور زملاءه حواراً طويلا ، يقنعهم اخيرا بأن شجاعة الاتراك ترجح على شجاعة الخوارج حتى اذا " انتهى الخبر الى المأمون قال : ليس بالترك حاجة الى حكم حاكم بعد حميد ، فان حميدا قد مارس الفريقين وحميد خراساني ، وحميد عربي ، فليس للتهمة عليه طريق " (٣) ، والجاحظ في حكاياته عن الاتراك لا يكتفي بمجرد الكلام والثناء ، بل يصور ما يفعله الجندي التركي في الميدان ، فثمة حكاية تصور مبارزة بين تركي مشرك ، وفارس مسلم ينتخبه القائد العربي من بين جيشه ، وكله ثقة أنه يفي باضعاف التركي لاكتمال شروط الفارس فيه ! فيتجاولان ساعة ثم يستطيع التركي في النهاية ان يستدرج الفارس المسلم الى مكان ، يمكنه فيه من قتله ، وأخذ سلاحه وفرسه ايضا ! (٤) .

وتصور حكاية اخرى فرسان الترك يغيرون على أحد الحصون الاسلامية ويحيطون به ، ولكن الحصن يمتنع عليهم ، لولا ان فارساً يرى شيخاً داخل الحصن " يطّلع اليهم من فوق ! فقال له التركي : لئن لم تنزل اليّ لاقتلنّك قتلة ما قتلتها أحدا ! فنزل اليه ، وفتح له الباب ! ودخلوا الحصن واكتسحوا كل شيء فيه ، فضحك من نزوله اليه ، وفتحه له وهو في أحصن موضع ، وامنع مكان ، قال (الفضل بن عباس) (٥) : ثم اقبل به الى حصن أنا فيه ، فقال : اشتروه مني ، قلنا : لا حاجة لنا في ذلك ، قال : فاني ابيعه بدرهم فرمينا اليه بدرهم ، فخلى سبيله ، ثم أدبر عنا ، ومضى مع اصحابه ، فما لبث الا قليلا ، حتى عاد الينا ، فوقف حيث نسمع كلامه ، فراعنا ذلك ! فأخرج

---

(١) مناقب الاتراك ، رسائل الجاحظ ، ج١ ، ص ٣٩ ، تحقيق عبد السلام هارون.
(٢) المصدر نفسه ، ص ٤١ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٦٠ - ٦١ .
(٥) هو الراوى الذى يسند اليه الجاحظ الحكاية في البداية .

الدرهم من فمه ، وكسره بنصفين ، وقال : لا يسوى درهما ، وهذا غبن فاحش فخذوا هذا النصف ، وهو على كل حال غال جدا بالنصف الآخر ، قال : فإذا هو أظرف الخلق ..»..(١) .

نخلص مما سبق الى ان موقف الجاحظ المعتزلي في حكاياته ذات الطابع الفكري هو موقف المعترض الساخر ، مما يشيع بين الناس من افكار باطلة ، ومعتقدات خرافيه ، وتصرفات خاطئه ، تنطوي على جهل شديد !.

واما موقفه في حكاياته ذات الطابع السياسي فهو موقف المناصر للخلافة العباسيه ، المبرز فضائل رجالها ، ولكن هذا الموقف لا يدل بالضرورة على ممالأته ، [illegible] ذلك أنّ الخلافة العباسية بدءا من عهد المأمون وحتى مجيء المتوكل ، قد تبنت فكر المعتزلة ، وقربت اليها كبار علمائهم ونمت بعضهم من امثال احمد بن أبي دؤاد مناصب رفيعة .

---

(١) مناقب الاتراك ، ج١ ، ص ٣٦ ، رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون .

٣ - حكايات اجتماعية

يصف الجاحظ أدبه بأنه " سوقي ملوكي ، وخاصي عامي "(١).

وهذا القول ينطبق ايضا على حكاياته ، لانها تستوحي المجتمع على اختلاف فئاته وطبقاته ، فتصور الحمالين والكناسين (٢) مثلما تصور الخلفاء والامراء (٣) وتجمع بين ابناء الطبقات الاجتماعيه المتفاوتسه في اطار الحكايه الواحده (٤) ويلاحظ ان الجاحظ فيني بعض حكاياته يعني عناية خاصة بتصوير فئات اجتماعيه كانت لا تحظى باوضاع كريمه في مجتمعه ، ويمكن ان نقسم هذه الفئات - بحسب الحكايات التي تصورها - قسمين : قسمًا منها فُرض عليه وضعه ، ولا حيلة له فيه مثل : الجوارى والغلمان والقيان والعبيد ، وقسمًا آخر جنح الى وضعه بمحض اختياره ولم يفرضه عليه أحد مثل اللصوص والمكدين ، ..

وحين نتمعن في الحكايات التي تصور الجوارى والغلمان والقيان ، نجدها تصور هذه الفئات مسلوبة الحرية والارادة ، تباع بيع الاغنام او السلع ! وقد مرت بنا الحكاية التي تصور بعض المجانين يقوّمون اثمان الجوارى تقويما مضحكا مبكيا حينما يجيئهم النخاس بهن ! (٥) . وفي حكاية اخرى نرى قاسمًا التَّمَّارَ قد دخل منزل الخَوارزمي النخاس ، فرأى عنده جاريه جميله ! " فقال لها : اشتريك ياجاريه ؟ فقالت افتح كيسك تسر نفسك ، ودخلت الجاريه فنزل النخاس ، فاشتراها وهي لا تعلم ، ومضى الى المنزل ودفعها الخوارزمي الى غلامه ، فلم تشعر الجاريه ، الا وهي في جوف بيته ، فلما نظرت اليه ، وعرفت ما وقعت فيه ، قالت له : ويلك ، والله لن تصل اليّ الا بعد ان اموت ، والله ان زلت منذ رأيتك ودخلت الى الجوارى ، اصف لهن قبحك وبلية امرأتك بك ، فاقبل عليها يكلمها بكلام المتكلمين ، فلم تقبل منه .. (٦) . ثم نراها تغافله وتهرب بغتة عائدة الى بيت الخوارزمي النخاس ، لتجرب حظها في البيع مرة اخرى ! ..

---

(١) البيان والتبيين ، ج٣ ، ص ٣٧٤ .
(٢) انظر الحيوان ، ج٣ ، ص ١٧ ، ص ١٣ - ١٥ .
(٣) انظر البيان والتبيين ، ج٢ ، ص ٢٦١ .
(٤) مثل حكاية الامين والخمارين التي مرت بنا قبل قليل .
(٥) انظر البيان والتبيين ، ج٤ ، ص ١٦ .
(٦) الحيوان ، ج٦ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

واكثر الحكايات التي تدور حول الجوارى تصور العشق الحسي لجمال جسد الجاريه ، والعلاقات الجنسية معها ! على نحو ما رأينا في حكايات الحب والجنس السابقه ، ونحن نفتقد في هذه الحكايات الحكاية التي تصور طبيعة عملهن في البيوت في ذلك العصر ! أو التي تصور اوضاعهن حين كن يبلغن مرحلة الشيخوخة والعجز . او اى وضع انساني آخر ، ومعنى ذلك ان حكايات الجوارى تدور جميعها حول بيعهن في الاقل ، وحول عشقهن ، وممارسة الجنس معهن في الاكثر ، وتصور بعض الحكايات ما كانت تلاقيه الجاريه احيانا من مهانة ، حتى في اثناء المضاجعة ، اذ كانت تعامل احيانا خلال ذلك كأنها بهيمه ... [1]. وموقف الجاحظ من الجوارى والساده والنخاسين، لا يبدو جليا في اكثر الحكايات التي تجمع بينهم ، بيد أننا في حكايات قليلة نجد الجاحظ يوحي ايحاء قويا بتعاطفه مع الجوارى لدى النخاسين الذين كانوا يعرضونهن للبيع كالسلع ، كما في حكاية المجنون والجوارى والنخاس [2] ، أو يوحي بتعاطفه وإياهن لدى الساده الأثرياء ، الذين كانوا يشترونهن للمتعة الجسديه ، دون النظر الى أنهن مخلوقات انسانيه لهن مشاعر ورغبات ، كما في حكاية قاسم التمار والجاريه الهاربه [3] .

واما الحكايات التي تصور القيان فهي قليلة ، اذا ما قورنت بحكايات الجوارى ، وتصور هذه الحكايات القليلة القينه مسلوبة الحريه والاراده ، تُباع وتُشرى وتُهدى مثلها مثل الجوارى ، فيستمتع منها سيدها بالغناء فضلا عن الجنس ! ((... اشترى بعض ولاة العراق قينه بمال كثير فجلس يوما يشرب ، وأمرها ان تغنيه ، فكان أول صوت تغنّت به :

أروح الى القصاص كل عشيةً
ارجيّ ثواب الله في عدد الخطا

فقال للخادم : ياغلام ، خذ بيد هذه الزانيه فادفعها الى حرزة القاص ، فمضى بها اليه ، فلقيه بعد ذلك ، فقال : كيف رأيت تلك الجاريه ؟ فقال : ما شئت ـ اصلحك الله ـ غير أن فيها خصلتين من صفات الجنه ، قال: ويلك ما هما ؟ ! قال : البرد والسعه ›› [4] .

---

(١) الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢٦٠ .
(٢) البيان والتبيين ، ج٤ ، ص ١٦
(٣) الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢٦٢ .
(٤) مفاخرة الجوارى والغلمان ، ص ٦٠ ، تحقيق شارل بلا .

وتصور احدى الحكايات اقدام قينه على الانتحار أمام سيدها ، وذلك بسبب المعاناه والحرمان الجسدي ممن تحب ، لانها مملوكه ، مما يدفع بفتاها الى الانتحار ايضا وراءها ، لأنه مملوك للسيد نفسه ! وتبدأ الحكاية حين يخرج الجاحظ من قصر المتوكل بسرمن رأى ، فيلتقي محمد بن ابراهيم وهو يريد الانصراف الى مدينة السلام (بغداد) ، فيعرض عليه الخروج معه ، والانحدار في حراقته ، ... ثم لما وصلت السفينة فم نهر القاطول ، أشار محمد بن ابراهيم بنصب ستاره ، ثم أمر بالغناء : " فاندفعت عوّاده فغنت :

كل يوم قطيعةٌ وعتابُ　　ينقضي دهرنا ونحن غِضابُ
ليت شعري أناخصصت بهذا　　دون ذا الخلق أم كذا الاحبابُ

وسكتت ، فأمر الطنبوريه فغنت :

وارحمتا للعاشقينا　　ما ان أرى لهم معينا
كم يهجرون ويصرمون ويقطعون فيصبرونا

فقالت لها العوّاده ، فيصنعون ماذا ؟ قالت : هكذا يصنعون وضربت بيدها الى الستاره ، فهتكتها ، وبرزت كأنها فلقة قمر ، فالقت نفسها في الماء ، وعلى رأس محمد غلام يضاهيها في الجمال ، وبيده مِذَبَّة فأتى الموضع ، ونظر اليها ، وهي تمر بين الماء وانشد :

أنت التي غرقتني　　بعد القضا لو تعلمينا

والقى نفسه في اثرها ، فأدار الملاح الحراقه ، فاذا بهما معتنقان ثم غاصا فلم يريا " (١) .

ونجد الجاحظ يذهب في كتاب القيان ، الى أن القينه قلما تخلص في عشقها ، لانّ طبيعة وضعها الاجتماعي لا تساعد على ذلك ، فهي " مجبوله على نصب الحبالة والشرك للمترّبطين " (٢) ، ولذلك فانها في الغالب تتظاهر بالشوق والهوى لمن تودّ اصطياده ، حتى اذا " احست بأن سحرها نفذ منه ، وأنه قد تعقّل في الشرك ، تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمته ان الذى بها اكثر مما به ، وتقسم له انها مدّت الدواة بدمعتها وبلت السَّحاة بريقها " (٣) .

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج٣ ص ٤٧١ (تحقيق د. احسان عباس ، دار صادر - بيروت - ١٩٧٠) . وانظر المسعودى في مروج الذهب ج٢ ص ٤٠٠ - ٤٠٣

(٢) كتاب القيان ، رسائل الجاحظ ، ج٢ ص ١٧٠ ، تحقيق عبد السلام هارون .

(٣) المصدر نفسه ، ج٢ ص ١٧١ .

ثم نرى الجاحظ بعد ذلك يلتمس لها العذر ، فيبين أنها تفعل ذلك مرغمة ، اذ " كيف تسلم القينه من الفتنه او يمكنها أن تكون عفيفه ، وانما تكتسب الاهواء ، وتتعلم الالسن والاخلاق بالمنشأ ، وهي تنشأ من لدن مولدها الى اوان وفاتها ، بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللعب والاخانيث ، وبين الخلعاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه الى ثقه ولا دين " (١).

على هذا النحو يبدو موقف الجاحظ صريحاً في تعاطفه مع القيان، واما سخريته فتبدو " سخريه ممزوجه بالحزن النبيل " حين يشير الى ان القينه التي تحاول ان تحافظ على عفتها ، وتمنع يد اللامسين والعابثين ، لن يكون باستطاعتها ان تتقن صناعتها ، فالقائمون على فن الموسيقى والغناء لن يمنحوها اسرار الصناعه ، الا اذا أباحت نفسها لهم "..(٢) .

واما الحكايات التي تدور حول الغلمان فتصور فضلا عن قضايا بيعهم واشترائهم – طبيعة اعمالهم في بيوت مواليهم ، ومعاناتهم في اثناء ذلك ، ومحاولة بعضهم التمرد ، والوانا مختلفة من سلوكهم ، وطرق تفكيرهم فأسيادهم كانوا يشرونهم في الغالب للقيام باعمال البيوت ، وفي مقدمة هذه الاعمال الطبخ ، وتصور بعض الحكايات تذمر بعض الغلمان حين يعرضه الدلال للبيع ، فيأخذ أحد الساده يلح عليه بالاسئلة ، ليتعرف على مدى قدرته على الخدمه ، وذلك قبل ابتياعه " أتي المثنى ابن بشر بسندى ، ليشتريه على انه طباخ ، فقال المثنى : كم تحسن ياغلام من لون ؟ فلم يجبه ، فأعاد عليه وقال: ياغلام كم تحسن من لون ؟ فكلم غيره وتركه ، فقال المثنى في الثالثه : ما له لا يتكلم ؟ ! ياغلام : كم تحسن من لون ؟ فقال السندى : كم تحسن من لون ، كم تحسن من لون !! .. وأنت لا تحسن ما يكفيك أنت ، قال حسبك الآن ، ثم قال المثنى للدلال : امض بهذا عليه لعنة الله ..(٣) ، وتصور بعض الحكايات ما كان يمكن ان ينال الغلام من عنت سيده ، اذا ندت منه هفوة ، على الرغم من اخلاصه ، ومهارته في الطبخ والخبز ، الامر الذى كان يضطره احيانا الى محاولة الهرب ! " حدثني ثمامه قال : جاءنا رجل بغلام سندى ، يزعم أنه طباخ حاذق ، فاشتريته منه

---

(١) كتاب القيان ، ج٢ ص ١٧٦
(٢) د. محمد حسن عبد الله ، الحب في التراث العربي ، ص ١٢٦ – ١٢٧ .
(٣) الحيوان ، ج ٦ ص ٤٨٩ .

فلما امرت له بالمال ، قال الرجل : انه قد غاب عنا غيبةً فان اشتريته على هذا الشرط ، والاّ فاتركه ، فقلت للسندى : أكنت أبقت قط ؟ ، قال : والله ما أَبَقتُ قط (١) ! فقلت : انت الآن قد جمعت مع الإباق الكذب : قال : كيف ذلك قلت : لأن هذا الموضع لا يجوز ان يكذب فيه البائع ، قال : جعلني الله تعالى فداءك : أنا والله اخبرك عن قصتي " .. كنت أذنبت ذنبا كما يذنب هذا وهذا من جميع غلمان الناس ، فحلف بكل يمين ، ليضربني اربعمائة سوط ، فكنت ترى لي أن اقيم ؟ ! قلت : لا والله ، قال : فهذا الآن إباق ؟! قلت : لا " ، قال : فاشتريته فاذا هو احسن الناس خبزا ، واطيبهم طبخا (٢)!

والحكاية توحي بضرورة معاملة الغلام المملوك معاملة انسانية رحيمة وعدم القسوة عليه ! .

وثمة حكايات تصور أنفة بعض الغلمان وكبرياءه على الرغم من انه لا يملك من أمره شيئا ، فأنفته هي أنفة مسلوب الاراده ، وكبرياؤه هي كبرياء المغلوب على أمره ، ومن ثَمّ فانهما تبدوان مستهجنتين طريفتين ، حين تصدران عن الغلام المملوك . قال الجاحظ "„ أتيت باب السعداني ، فاذا غلام له مليح ، كان يتبع دابته ، فقلت له : قل لمولاك : ان شئت بكرت الي وان شئت بكرت اليك قال : أنا ليس أكلّم مولاى ! ومعي ابو القنافذ ، فقال ابو القنافذ : ما نحتاج مع هذا الخُبْر الى معاينه „ "(٣).

وحتى عند عرضهم للبيع يصورالجاحظ بعضهم يحاول ان يضع شرطاً يسراه ضرورياً كي يرضى بان تتم الصفقة ، "„ حدثني الحسن بن المرزبان قال : كنت مع اصحاب لنا ، اذ أتينا بغلام سندى يباع ، فقلت له : اشتريك ياغلام ؟ فقال : حتى اسأل عنك ! „ " (٤) .

بل نجد منهم من لا يتورع عن رد الاهانة الى سيده باسلوب مُفحم : "قال رجل لغلام ذات يوم : يافاجر ! قال (الغلام) : جعلت فداك مولى القوم منهم „ " (٥) ، كذلك نرى بين الغلمان من يحيل بشقاوته وبتمرده حياة مولاه غماً ونكدا . الى درجة تدفع مولاه الى اعطائه حريته في

---

(١) الإباق : هرب العبد من سيده ، وأَبَق يأبِق من بابي ضرب يضرب .
(٢) الحيوان ، ج ٦ ، ص ٤٨٩ — ٤٩٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٤٨٨
(٤) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٤٨٩
(٥) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٤٩٠ .

بعض الاحيان ، ان لم يستطع بيعه ! فثمة حكايه طويله ممتازه ، تصور أحد العبيد ويدعى (رَوْح بن الطائفيـه) قد كسب مع الزمن ثقة مولاته حتى فوضت اليه كل شيء من أمرها . وذات يوم يذهب الى السوق ليشترى غلاما ، فيصادف غلاما حسنا ، معروضا للبيع بثمن زهيد ، هو عشرة دنانير ، فيشتريه ، وهو يتوجس منه ، وفي المنزل تعجبه مهارته في الطبخ والعمل والخدمه ، ولكنه مع الايام يكتشف سبب زهد من باعه به ، فهو كان اذا ارسل الى مكان ما ومعه نقود ، ينتهز ذلك فرصة ويهرب !.. يتكرر منه ذلك ثلاث مرات ، وفي كل مره يرده النَّاشِد ،[1] ليحتال حيلة جديدة ، تسوغ سبب محاولته ! ولكنّ رَوْحا في المرة الثالثة يقول للغلام : "اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى ، فقال : أنت عبد ، فكيف يجوز عتقك ؟ (قال) : قلت : فأبيعك بما عز او هان ، فقال : لا تبعني حتى تعدّ طباخا ، فانك ان بعتني لم تتغذ الا بخبز وباقلاء ، قال : فتركته"..[2] ، ولكن الغلام لا يترك بعد ذلك شقاوته وخبثه ، قال روح "ومرت بعد ذلك أيام ، فبينا أنا جالس يوما ، اذ مرّت عليّ شاة لبون ، كريمة الدَّر ، كنا فرقنا بينها وبين عناقها فاكثرت في الثغاء ، فقلت كما يقول الناس ، وكما يقول الضَّجِر : اللهم العن هذه الشاه ، ليت ان الله بعث انسانا ذبحها أو سرقها ، حتى نستريح من صياحها ، فقال : فلم ألبث الا بقدر ما غاب عن عيني ثم عاد فاذا في يده سكين وساطور ، وعليه قميص العمل ، ثم أقبل عليّ فقال : هذا اللحم ما نصنع به وأى شيء تأمرني به ؟ فقلت : وأى لحم ؟ قال : لحم هذه الشاة ! قلت : وأيما شاة ؟ ! قال : التي أمرت بذبحها ؟ قلت : واى شاة أمرت بذبحها ؟ ، قال اليس قد قلت الساعه ، ليت ان الله تعالى قد بعث اليها من يذبحها أو يسرقها ؟ فلما اعطاك الله تعالى سؤلك صرت تتجاهل ! قال روح : فبقيت والله لا اقدر على حبسه ولا على بيعه ولا على عتقه"..[3] .

واغلب الظن ان الجاحظ في الحكاية السابقة يقصد الى مفارقه طريفه ، توحي بسخريته من العبودية ، وانقسام الناس في المجتمع الى طبقة اسياد وطبقة أتباع ، فروح هو في الاصل عبد ، ولكنه يكاد ينسى ذلك ، لأن سيدته تتركه يدير شؤون بيتها كيفما يشاء ، ولذلك يحاول أن يأخذ من الغلام وضع السيد ، حتى اذا زهد فيه ، بسبب إباقه ومشاكسته ، واراد ان يهبه حريته ، هناك يجبهه

---

(١) الناشد : يقال للذى يطلب الضاله ، وينادى بها ، وللذى يعرف الضاله .
(الحيوان ، ج٦ ، هامش ص ٤٩١).

(٢) المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٤٩٢

(٣) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٤٩٣ .

الغلام بحقيقة وضعه قائلا : انت عبد ، فكيف يجوز عتقك ؟ ! .

واما القسم الثاني من الحكايات فيدور حول فئات اجتماعية لا تحظى بمنزلة كريمه في المجتمع ولكنهامع ذلك جنحت اليها بعض اختيارها مثل اللصوص والمُكدّين ، ولكنّ المؤسف حقا ان الدارس يفتقد معظم هذه الحكايات اليوم ، لأنها تقع ضمن كتاب اللصوص الذى قلنا : أنه ما زال مفقودا ، لم يعثر عليه الباحثون بعد ، ولكن الدارس مع ذلك يستطيع من خلال ما كتب عنه ،ومن خلال بعض الحكايات القليلة التي وصلت عن طريق الجاحظ نفسه ، والتي تدور حول اللصوص ان يتبين اسلوب الجاحظ القصصي في استيحاء واقع التلصص في زمنه ، فالحكايات تدور في الغالب حول الحيل التي كان يلجأ اليها اللصوص في اثناء السرقة ! وهذا ما دعا البغدادى الى مهاجمة الجاحظ ، والقول عنه : انه في كتاب حيل اللصوص قد علمّ الفسقه وجوه السرقه (١) .

ولكن مهما يكن من اللهجة المتحاملة في هذه العبارة ، فهي تشير اشارة ما الى المنحى الذى نحاه الجاحظ في تأليف الكتاب (٢) ، وثمة حكاية في كتاب الحيوان تصور احدى حيل اللصوص في سرقة الدابة من صاحبها ، قد توحي شيئا ما بطبيعة ما تصوره حكايات اللصوص في الكتاب المفقود ، يقول الجاحظ " .. ونحن نرى كل من كان في يده كيس أو درهم ، أو حبل او عصا ، فانه متى خالط عينيه النوم ، استرخت يده ،وانفتحت اصابعه ، ولذلك يتثاءب المحتال للعبد ، الذى في يده عنان دابة مولاه ، ويتناوم له ، وهو جالس ، لأنّ من عادة الانسان ، اذا لم يكن بحضرته من يشغله ، ورأى انسانا قبالته ، يتثاءب او ينعس ، ان يتثاءب وينعس مثله ، فمتى استرخت يده او قبضته عن طرف العنان ، وقد خامره سُكْر النوم ، ومتى صار الى هذا الحال ، ركب المحتال الدابه ومر بها " (٣) .

كذلك يورد الجاحظ في كتاب الحيوان وصيّة طريفه لعثمان الخياط يوصي بها الشطار واللصوص قائلا : ((.. اياكم اياكم وحب النساء ، وسماع ضرب العود ، وشرب الزبيب المطبوخ ، وعليكم باتخاذ الغلمان ، فان غلامك هذا انفع لك من اخيك ، واعون لك من ابن عمك ، وعليكم بنبيذ التمر

---

(١) الفرق بين الفرق ، ص١٠٦. تحقيق طه عبد الرؤوف سعد. الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع - القاهره - (د. ت) .

(٢) طه الحاجرى ، تعليقات وشروح على كتاب البخلاء ، ص ٢٤٧ .

(٣) الحيوان ، ج٢ ، ص ٤٠٩ .

وضرب الطنبور ، وما كان عليه السلف ، واجعلوا النقل باقلاء ، وان قدرتم على الفستق والريحان شاهسفرم (١) ، وان قد رتم على الياسمن، ودعوا لبس العمائم ، وعليكم بالقناع ، والقلنسوه كفر ، والخف شرك ، واجعل لهوك الحَمام ، وهارش الكلاب ، واياك والكباش ، واللعب بالصُقوره والشّواهين واياكم والفهود ، فلما انتهى الى الديك ، قال : والديك فان له صبرا ونجده وروغانا وتدبيرا ، واعمالا للسلاح ، وهو يبهر بهر الشجاع ، ثم قال : وعليكم بالنرد ، ودعوا الشطرنج لاهّلها ، ولا تلعبوا بالنرد الا بالطويلتين، والود ع رأس مال كبير ، وأول منافعه الحذق باللقف ، ثم حدثهم بحديث يزيد ابن مسعود القيسي "" (٢) .

ومن خلال الحيلة السابقة ، ووصية زعيم اللصوص عثمان الخياط ، ومن خلال ما ذكرته الكتب القديمه عن كتاب اللصوص (٣)، والاستئناس بالاسلوب القصصي المعهود لدى الجاحظ في مختلف حكاياته ، يمكن للدارس ان يتصور شيئا مما الطريقة التي عالج بها الجاحظ حيل اللصوص وحكاياتهم في عصره ، وهو ما دعا الحاجري الى القول :

"بأن كتاب اللصوص هذا كان من أهم كتب الجاحظ الفنية ، ولعله لم يكن يقل خطرا عن كتاب البخلاء في تصويره لبعض نواحي المجتمع الاسلامي المعقد في تلك الفترة من الزمن ، وما كان يداخله من الشرور الاجتماعية الملازمة ، التي لا تخلو منها مثله ، تصويرا فنيا رائعا ،يجمع بين الدقة في الوصف والاسترسال في التفصيل روح الفكاهه والسخريه التي تستغل بعض نواحي الضعف ، ومظاهر الغفلة ، فتتخذها موضوعا لها "(٤) .

ومثلما أورد الجاحظ في كتاب الحيوان وصية لزعيم اللصوص ، فقد اورد في كتاب البخلاء وصية لعريف المُكدّين : والكُدْيه تتقارب من حيث العرف والاصطلاح من اللصوصيه ، لأنه ليست التكديه "مجرد السؤال والاستجداء كما قد تفيد هذه الكلمة بمعناها اللغوى الساذج ، فقد أخذت معنى اصطلاحيا معقدا متعدد الوجوه كثير الدلالة ، فاصبحت تتضمن معنى الاحتيال للمال،

---

(١) نوع من الريحان يقال له : الريحان السلطاني (الحيوان ، ج٢ ، ص٣٦) .

(٢) الحيوان ، ج٢ ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٣) انظر في كتاب (حكايات الشطار والعيارين) ما كتبه د.محمد رجب النجار، بعنوان :(كتاب اللصوص للجاحظ ، أو دستور الشطار والعيارين)(ص ٥٤- ٥٩) وكذلك تعليقات الحاجرى عليه في البخلاء (ص ٢٤٨ - ٢٥٠) .

(٤) طه الحاجرى ، تعليقات وشروح على البخلاء ، ص ٢٥٠ .

بمختلف الوسائل والاساليب غير المشروعة ، من استخدام القوة والاستلاب بالعنف والغلبه ، الى استغلال غفلة الجماهير وغرائز الرحمة والرقه "(1) .

وفي حكاية خالد بن يزيد او خالويه المكدى نسمعه يقول ، حين يضطر الى تعريف بني تميم بنفسه : " لم يبق في الارض مكد الا وقد أخذت العرافة عليه (٢)، ثم نراه بعد ذلك على فراش الموت ، يوصي ابنه راسما بذلك صورة للمكدي في زمنه ((يا ابن الخبيثه ، أنا لو ذهب مالي لجلست قاصاً ، أو طفتُ في الافاق ، كما كنت مكديا ، اللحيه وافره بيضاء ، والحلق جهير طل ، والسمت حسن ، والقبول عليّ واقع ، ان سالت عيني الدمع اجابت ، والقليل من رحمة الناس خير من المال الكثير ، وصرت محتالاً بالنهار واستعملت صناعة الليل ، أو خرجت قاطع طريق ، (٣) أو صرت للقوم عينا ولهم مجهرا ، سل عني صعاليك الجبل ، وزواقيل الشام ، وزط الاجام ، ورؤوس الاكراد ، ومردة الاعراب ، وفتاك نهر بط ، ولصوص القفص ، وسل عني القيقانيه والقطريه ، وسل عني المتشبهه ، وذباحي الجزيره ، كيف بطشي ساعة البطش ، وكيف حيلتي ساعة الحيله "(٤) ، والوصيه طويله ، ومنها يمكن ان نستخلص ان المكدى كان يجمع بين التحايل في التسول ، وسلب المال بالسرقه ، والاستيلاء عليه بالبطش ، وقبل الوصيه نجد خالويه المكدى يعدد بعض انواع المكدين الذين كانوا يتمايزن بحسب انواع الحيل التي كانوا يلجأون اليها في اثناء التسول ، فحين يسكن خالويه في منازل بني تميم ، يسأله بعضهم ذات يوم هل تعرف المكدين ؟ فيجيب : " وكيف لا اعرفهم ، وانا كنت كاجار (٥) في حداثة سني ، ثم لم يَبقَ في الارض مخطراني (٦) ، ولا

---

(١) طه الحاجري ، البخلاء ، ص ٣٠٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٤٦ .

(٣) لاحظ قوله : (وصرت محتالا بالنهار ، واستعملت صناعة الليل ، او خرجت قاطع طريق) مما يرجح تقارب التكديه من اللصوصيه من حيث العرف .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) كاجار : نوع من المكدين لم يعرض الجاحظ لحيلته بالشرح .

(٦) المخطراني : المكدى الذى يتظاهر ان لسانه قد قوّره بابك الخرّمي، ثم يفتح فاه ، كما يصنع من يتثاءب ، فلا نرى له لسان البته .

مستعرض (١) الا فقته ، ولا شحاذ ، ولا كاغاني (٢)، ولا بانوان (٣) ، ولا قرسي (٤) ، ولا عوّاء (٥) ، ولا مشعب (٦) ، ولا فلور (٧) ، ولا مزيدى (٨) ولا اسطيل (٩) الاوكان تحت يدى ، ولقد اكلت الزكوري (١٠) ثلاثين سنه ، ولم يبق في الارض كعبي (١١) ولا مكد الا وقد أخذت العرافه عليه .... الخ " (١٢).

ثم نجد الجاحظ بعد ذلك يشرح حيل من ذكر من اصناف المكدين، كل بحسب اسمه ، وحين نتمعن في الحيل المختلفة لاصناف المكدين الذين يذكرهم في الحكايه نعجب في الغالب من اهتمامه الرائد بهذه الفئه المنبوذه ، التي كانت تعيش على هامش المجتمع ، ومن تغلغله في عالمها الغريب ، ذلك انه يخبرنا بعد الشرح أنه يعرف من انواع هذه الفئة ، اكثر مما اورد في الحكايه ، وذلك اذ يقول : " هذا تفسير ما ذكر خالويه فقط ، وهم (المكدون) اضعاف ما ذكرنا في العدد ، ولم يكن يجوز ان نتكلف شيئا ليس من الكتاب في شيء " (١٣) .

وللجاحظ كتاب في المكدين ، وهو فيما يبدو حكايات تصور حيلهم ، على غرار كتابه حيل اللصوص ، لأننا نجد البغدادى بعد ان يهاجم كتاب اللصوص ، يواصل الهجوم ، فيذكر : ان له كتاب حيل المكدين (١٤) .

---

(١) المستعرض : من يعترض الطريق وهو في ثياب صالحه ، ثم يسأل في حياء وخفيه .
(٢) الكاغاني : من يتجنن ويتصارع ويزبد ويسأل .
(٣) البانوان : من يطرق البيوت ويقول : بانوا ، ومعناه بالعربيه يامولاى .
(٤) القيرسي : من يعصب ساقه وذراعه ثم يسأل .
(٥) العواء : المكدى الذى يسأل بصوته الحسن بين المغرب والعشاء .
(٦) المشعب : من يحتال للصبي العمى او العضد ليسأل به .
(٧) الفلور : من يحتال لخصيته حتى يريك أنه آدر ، والمرأه تحتال لفرجها.
(٨) المزيدى : من يحمل الدرهم ومعه طفل لقيط ويسأل .
(٩) الاسطيل : المكدى المتعامي .
(١٠) الزكورى : خبز الصدقه .
(١١) الكعبي : عريف المكدين بعد خالويه ، ويدعى أبي بن كعب الموصلي.
(١٢) البخلاء ، ص ٥٠ .
(١٣) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .
(١٤) الفرق بين الفرق ، ص ١٠٦ .

وموقف الجاحظ من فئتي اللصوص والمكدين لا يبدو واضحا ، لأن النصوص القليلة التي بين ايدينا حولهما لا تسعف ، وذلك ناجم عن افتقاد كتابي اللصوص والمكدين اللذين لم يعثر عليهما الباحثون بعد .

ويعني الجاحظ في بعض حكاياته بتصوير السلوك الغريب أو الشاذ لبعض الأفراد أو الفئات في المجتمع . وحكاياته التي تصور ذلك تبدو نوعين : نوعًا يعني بتصوير تصرف مستهجن ، يبدو غريبا ان يصدر عن صاحبه ، لانّ سلوكه العام طبيعي ، ومن ثمّ فان صدور تصرفٍ غريب ما عنه يبدو مستهجنا قياسا على باقي تصرفاته ، ولا يُبرّره سوى أنه يعود الى شيء من التعقيد في نفس صاحبه ، وقد يتكرر هذا التصرف غير العادى منه ، حتى يصبح عادة أو صفة من الصفات المميزه لشخصيته .

ونوعًا آخر من الحكايات يصور تصرفًا غريبًا ، لكنه لا يبدو مستهجنا اذ يصدر من صاحبه ، لانّ صاحبه معروف في الغالب بتصرفاته الغريبه ، التي تدل على أنه يعاني من آفة عقليه ،كأن يكون مُوسْوسا أو أبله أو مجنونا ، ومعنى ذلك ان النوعين من التصرف الشاذ اللذين تصورهما بعض حكايات الجاحظ ، أحدهما يرجع اساسا الى آفة في النفس ، بينما الثاني يعود الى آفة في العقل .

أما النفس البشريه فيصورها الجاحظ في بعض الاحيان غامضه أو معقدة المنازع والاهواء ، تندّ عنها احيانا بعض التصرفات الغريبة التي لا يملك لها صاحبها تعليلا منطقيا معقولا حين يسأل عنها . فثمة حكايه مثلا: يلاحظ ان الجاحظ أوردها مرتين : مره في الحيوان (١) ، ومره في البيان والتبيين (٢) ، وهي تدور حول تكني أحد العجم بكنيه عربيه قحه ، هي (ابو خُزيمه) على الرغم من أنه حارس ، ألكن فقير ، مما يثير فضول الجاحظ وحب استطلاعه ، لأن الكنيه هي كما يقول : " كنية زُرارة بن عدس ، وكنية خازم بن خزيمه ، وكنية حمزه بن ادرك ، وكنية فلان وفلان .. ، وكل هؤلاء ، إما قائد متبوع ، واما سيد مطاع ، ومن أين وقع هذا العِلج الألكن على هذه الكنيه ؟ (قال الجاحظ) فدعوته ، فقلت له هذه الكنيه

---

(١) انظر الحيوان . ج ٣ ، ص ٢٨ .

(٢) انظر البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٢٤ . تحقيق عبد السلام هارون.

كناك بها انسان أو كنيت بها نفسك ؟

قال : لا ولكني كنيت بها نفسي ،

قلت : فلم اخترتها على غيرها ؟

قال: وما يدريني ؟

قلت : ألك أبن يسمى خزيمه ؟

قال : لا !

قلت : أفكان أبوك أو عمك أو مولى لك يسمى خزيمه ؟

قال : لا

قلت : فاترك هذه الكنية ، واكتن بأحسن منها ، وخذ مني دينارا !

قال : والله ولا بجميع الدنيا "(١)

وفي حكاية اخرى نرى رجلا يمر على آخر يدعى الزيادي "، وهو جالس في يوم غَمِق (٢) حار ، وَمِد (٣) ، على باب داره في شروع نهر الجَوبار(٤) بأرديه ، و ذلك البحر يَنجُر في أنفه (٥) " ، وهنا يتذكر الرجل المار الأمر الغريب الذى أتاه الزيادي منذ مده ، اذ باع داره في وسط البصرة ، وآثر السكنى في هذه المنطقة الموحشة ، فيدفعه حب الاستطلاع حينئذ الى التوجه اليه بالقول : "بعت دارك ، وحظك من دار جدك زياد بن أبي سفيان ، وتركت مجلسك في سَاباط غَيث (٦) ، واشرافك على رحبة بني هاشم ، ومجلسك في الابواب التي تفتح على رحبة بني سليم ، وجلست على هذا النهر في مثل هذا اليوم ، ورضيت به جارا ؟ ! "، (٧) فيقتصر جواب الزيادي على القول : " نلت أطول آمالي في قرب هؤلاء البزّازين "،(٨) فيستغرب الرجل منه الجواب الذى لا يشفي غليلا ، ولا يقدم تسويغاً معقولا ، فيقول له : لو كنت بقرب المقابر فقلت : نزلت هذا الموضع للاتعاظ به ، والاعتبار كان ذلك وجهاً ، ولو كنت بقرب الحدادين ، فقلت : لأتذكر بهذه النيران والكيران (٩) ، نار جهنم ، كان ذلك قولا ، ولو كنت اشتريت دارا بقرب العطارين فاعتللت بطلب رائحة الطيب ، كان ذلك وجها ، فأما قرب البزازين فقط ، فهذا ما لا اعرفه ، أفلك فيهم دار غله ، أو هل لك عليهم ديون حالّة ، أو هل لك فيهم أو عندهم غلمان يؤدون الضريبة ، أو هل لك معهم شركة مضاربة ؟ !

---

(١) البيان والتبيين ، ج٤ ، ص ٢٤ (٢) غَمِق : كفرح ، ذو ندى وثقل ، أولريحه خمة وفساد (٣) ومد : اليوم الامد ، ذو الومد بالتحريك ، وهو الندى يجيء في صميم الحر من البحر (٤) الجوبار : محلة باصبهان (٥) الحيوان ، ج٣، ص ٢٨ (٦) الساباط : السقيفه بين دارين تحتها طريق نافذ

(٧) الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٨ (٨) المصدر نفسه ،ج٣، ص ٢٨ ، والبزاز :بائع الثياب او متاع البيت (٩) الكيران: جمع كير وهو الزق ينفخ فيه الحداد .

قال : لا !
قلت : فما ترجو اذن من قربهم ؟ !

فلم يكن عنده الا : نلت آمالي بقرب البزازين ".. (١) .

وثمة حكايات تصور عادات شاذه لافراد من المجتمع ، يكرّر الواحد منهم تصرفا ما غير طبيعي المره تلو الاخرى ، دون ان يستطيع تسويغ ذلك منطقيا ، نحو حكاية تصور شابا حسن الهيئة ، تتملكه عادة شاذة منكره ، يكرر من خلالها تصرفا غريبا ، لا يدور بخلد أحد من سكان الحي الذى يقطنه أنه يأتيه ، فهو ((.. يشتهي ريح الكرياس (٢) ، لا يشفيه دونه شيء ، فكان قد أعد مِجْوباً أو سكة حديد في صورة المبرد ، فيأتي الكراييس ، التي تكون في الازقة القليلة المارة ، فيخرق الكرياس ، ولا يبالي أكان من خزف أو من خشب ؟ ثم يضع منخريه عليه ، حتى يقضي وطره ، فلقي الناس من سيلان كراييسهم شراً ، حتى عثروا عليه ، فما منعهم من حبسه الا الرحمة له من تلك البليه مع الذى رأوا من حسن هيئته ، فقال لهم : ياهؤلاء لو مررتم بي الى السلطان ، كان يبلغ من عقابي اكثر مما أبلغ من نفسي ؟! قالوا : لا والله ، وتركوه ! ".. (٣) .

والجاحظ في حكاياته التي تصور العادات الشاذه ، نجده يقرّر ضمنيا من خلال الحكايات : بأن العادة السيئة متى ما استحكمت اصبحت طبيعة ثانيه لصاحبها (٤) ، وهو يعني بتصوير صفات نفسية مرذوله ، تبدو من وجهة عامه آفات اجتماعية مثل : النفاق الذى يصوره بالحكاية تصويرا ساخرا ، على نحو ما رأينا في حكايته عن الرجل الذى يتخذ من مظهر السواد مذهبا له في كل شيء ، وذلك كي ينال حظوة من الدولة العباسية (٥) . وفي حكاية اخرى شبيهة تصور أحد اشياع العباسيين من العجم وقد تعارب في مظهره ومسكنه ومعيشته ، " فاذا هو قد ضرب خيمة ، واذا حوله غنيمات ، واذا في الدار بعير أجرب ، وريح الهناء (٦) والقطران ، فدعا بالطعام ، فاذا

---

(١) الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٨ .
(٢) الكرياس : وسمي كرياسا لما يعلق به من الاقذار ، فيركب بعضه بعضا ويتكرى .
(٣) الحيوان ، ج٥ ، ص ٤٦٨ - ٤٦٩ .
(٤) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ١٢٧ .
(٥) القول في البغال ، ص ١٢٦ - ١٢٧ . تحقيق شارل بلا .
(٦) الهناء : ضرب من القطران .

خبزه قد ثرد نصفها في لبن ، وكسر بين ايدينا (١) النصف الاخر ، ثم دعا بالنبيذ ، فاذا هو في عُس خشب ، واذا نبيذ تمر ، ثم دعا بنُقل فاذا باقِط ومُقل وتنوّم (٢) ، ثم دعا بريحان ، فاذا خزامى وعبير شان وشيح ...".(٣).

ومن الصفات المرذوله ، التي تعود في الغالب الى تعقيد في النفس ، والتي صورها الجاحظ ايضا ، الجبن (٤)، والكذب(٥) بيد ان ابرز صفه ، قد توفر قصصيا عليها ، وابدع في تصويرها من خلال حكايات كثيره هي صفة البخل ، فكتاب البخلاء - كما يقول مارون عبود - : " تناول ناحيه واحده من النفس هي البخل ، فقلبها على جميع وجوهها ، ونظر اليها من كل جانب ، ثم يغالي مارون عبود ، فيقول بعد ذلك : " فلو طلبنا اليوم الى اكبر علماء النفس ان يحلل نفسية البخيل ، ما استطاع ان يفعل مثل الجاحظ في البخلاء ، لا من حيث التحليل الدقيق ، ولا من حيث الفن الرائع ، واذا ضاهاه أحد في فن القصص ، قصر عنه في الفكاهة والسخر العميق" (٦) .

وقبل ان نعرض لحكايات البخلاء ، من المهم أن نتنبّه الى ان الجاحظ صور ببعض الحكايات تأثير الفقر في النفس الانسانيه ، فهو في احدى الحكايات يصور صديقه ابراهيم النظّام وهو يعاني ظرف فقر مدقع ، اذ اضطرته صروف الدهر ان يغترب ذات مره ، ليقاسي الوحشة والبؤس ، وليجوع حتى يضطر الى أكل الطين ، كما يخبرنا النظام نفسه في الحكايه (٧) . وفي حكايه اخرى نرى اعرابيين فقيرين ، قد أصابهما جدب السنه ، فانحدرا الى العراق مفلسين ، وكان اسم احدهما " حيدان " ، وبينا هما يتماشيان في السوق

---

(١) ضمير المتكلم يعود على من يروى عنه الجاحظ الحكايه ، وهو عمرو القصامي الشاعر . (٢) تنّوم : ضرب من الشجر .

(٣) القول في البغال ، ص ١٢٧ ، تحقيق شارل بلا .

(٤) كما رأيناه يفعل ذلك في حكاية عروه بن مرثد والكلب (الحيوان ج٢ ، ص ٢٣١).

(٥) من كتب الجاحظ التي ما زالت مفقوده كتاب المسائل ، وقد عالج فيه الجاحظ صفة الكذب في الناس ، ويوحي حديث الجاحظ عنه ان طابعه قصصي على نحو معالجته لموضوع اللصوصيه والبخل (انظر البخلاء ، ص ٥ ، تحقيق الحاجري)

(٦) أدب العرب ، ص ٢٨٦ .

(٧) انظر الحكايه تحت عنوان "النظام وعدم ايمانه بالطيره" (الحيوان ، ج ٣ ، ص ٤٥١ .

جائعين مقرورين فاذا فارس قد أوطأ دابته رجل حيدان ، فقطع اصبعا من اصابعه ، فتعلقا به حتى أخذا منه ارْش (١) الاصبع ، وحين صار المال في ايديهما ، قصدا لبعض الكرابج ، فابتاعا من الطعام ما اشتهيا، فلما أكلا شعرا بالارتياح ، حتى ان صاحب حيدان لما شبع انشأ يقول :

فلا غَرَثٌ ما كان في الناس كربجٌ وما بقيت في رجل حيدان إصبعٌ (٢)

وتبلغ احدى الحكايات الأوج في تصوير أثر الفقر الشديدفي نفوس بعض الناس ، حين نرى أعرابيه بائسه ، ترحب بالمال ، ولو جاءها عن طريق تقطيع جوارح ابنها ، فقد كان لها " ابن شديد العرامه ، كثير التلفت الى الناس ، مع ضعف أسر ودقه عظم ، فواثب مرة فتى من الاعراب ، فقطع الفتى أنفه ، وأخذت غنيه (أمه) دِيَة أنفه ، فحسنت حالها بعد فقر مدقع ثم واثب آخر ، فقطع أذنه فأخذت الديه ، فزادت دية أذنه في المال ، وحسن الحال ، ثم واثب بعد ذلك آخر ، فقطع شفته ، فلما رأت ما قد صار عندها من الابل والغنم والمتاع ، والكسب بجوارح ابنها ، حسن رأيها فيه ، فذكرته بارجوزه لها ، تقول فيها :

احلف بالمَرْوة يوما والصفا إنك خير من تفاريق العصا (٣)

على هذا النحو يصور الجاحظ تأثير الفقر والجوع في الناس تصويرا ساخرا، وهو تأثير خليق أن يترك في بعض النفوس شيئا من التعقيد ، يدفعها الى ان تحس حرصا غير عادى على المال ، اذا ظفرت به ، فتقتر في انفاقه ، وتضن به كل الضن .

ولا يفوت الجاحظ في كتاب البخلاء أن يصور دور الفقر في تكوين صفة البخل في نفوس بعض البخلاء، كذلك لا يفوته ان يشير الى تأثير عوامل اخرى في ذلك ، نحو المنشأ وطريقة التربيه ، وطبيعة المكان والظروف الاجتماعية والاقتصادية المحيطة .

ففي حكاية الكندى ، وهو من اشهر بخلاء الجاحظ - ثمة اشارة صريحة الى أثر الفقر في نفس من يكابده ، ودوره في توليد الحرص فيها ، فالكندى يقول رادا على من يرمونه بالبخل : " تسمون من منع المال من وجوه الخطأ ، وحفظه اشفاقا من الذلة بخيلا ، وتريدون بذلك

---

(١) الارش : الديه تؤدى عن عضو من اعضاء الجسم .

(٢) البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٥٠ . تحقيق عبد السلام هارون .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

ذمة وشينه ؟! ، وتسمون من جهل فضل الغنى ، ولم يعرف ذلة الفقر جوادا تريدون بذلك حمده ومدحه ؟! "(١) .

فالحرص في الانفاق اذن هو بسبب الاشفاق من ذلة الفقر !

وفي حكاية أبي سعيد المدائني ، نراه يعلل حبه للمال، وميله الى التقتير في الانفاق بقوله :

" احببت الغنى ، بفضل بغضي للفقر ، وابغضت الفقر بفضل أنفتي من احتمال الذل " (٢) .

فبخله اذن ليس بسبب حبه المال ، وانما بسبب كراهيته الفقر وذله !

وأما اثر التربيه والمنشأ في تكوين صفة البخل ، فيوحي الجاحظ به حين يتفق ان يترعرع الناشيء في احضان أب بخيل ، اذ يعوّده الحرص ، ويغرس في نفسه حب المال ، ويحذره من مكايدة الفقر ، كما رأينا خالويه المكدى يفعل ، حتى آخر لحظة من لحظات حياته ، اذ يوصي ابنه وهو على فراش الموت بحفظ المال : " .. أوصيك بحفظه .. أنا لو ذهب مالي لجلست قاصا ، أو طفت الافاق ـ كما كنت ـ مكديا ، سل عني صعاليك الجبل ، ومردة الاعراب ، ولصوص القفص ، كم سجن قد كابدته ". الخ "(٣).

ونرى في نهاية الحكاية ان ابنه المُوصى الذى عاش في كنفه ، قد افلحت تربيته كما أرادها له أبوه ، لأنه ما ان يفرغ خالويه من وصيته ، حتى نراه قد " مات من ساعته ، وكفنه ابنه ببعض خلقاته ، وغسله بماء البئر، ودفنه من غير أن يضرح له ، او يلحد له ، ورجع ، فلما صار الى المنزل ، نظر الى جرة خضراء معلقه ، قال : أى شيء في هذه الجره ؟! قالوا : ليس اليوم فيها شيء ، قال : فأى شيء كان فيها قبل اليوم ؟! قالوا : سمن : قال: وما كان يصنع به ؟ قالوا : كنا في الشتاء نلقي له في البرمه شيئا من دقيق ، نعمله له ، فكان ربما يرقّه بشيء من سمن ، قال : يقولون ولا يفعلون، السمن أخو العسل ، وهل أفسد الناس اموالهم الا في السمن والعسل ؟ والله اني لولا ان للجرة ثمنا لما كسرتها الا على قبره ، فخرج فوق أبيه ، وما (كان) يظن أن فوقه مزيدا " (٤) .

---

(١) البخلاء ، ص ٩٠ . (٢) المصدر نفسه ، ص ١٤١ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٩ـ ٥٠ (٤) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

وتصور حكاية اخرى بخيلا قد بلغ الغاية في البخل ، حتى انه كان يناجي الدرهم قبل ان يحبسه في كيسه مناجاة العاشق المشتاق ، ولما مات ، ظن اتباعه من الخدم والموالي أنّهم استراحوا منه ، لكنهم يدهشون اذ يتبين لهم أن ابنه اشد منه بخلا ، حتى انه حين يتحرى طريقة عيشه منهم ، يتّهمه بالسرف قائلا في غضب "لو علمت ذلك ما صليت عليه !" (١).

واما عامل البيئة وأثره في تكوين صفة البخل ، بحيث تكون غالبة على اكثر السكان الذين يعيشون في نطاقها ، فالجاحظ يوحي به في حكاياته التي تصور بخل أهل خراسان عامه ، ومرو خاصه ! لأن في بعض الحكايات اشارات واضحه الى ذلك ، فثمة حكايه تصور أثر البيئة المكانية في تكوين صفة البخل لا يقتصر على الانسان فقط ، وانما يتعداه الى الحيوان والطير ايضا "قال ثمامه : لم ار الديك في بلدة قط الا وهو لافظ يأخذ الحبة بمنقاره ، ثم يلفظها قدام الدجاجه الا ديكة مرو ، فاني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب ، قال : فعلمت ان بخلهم شيء في طباع البلاد ، وفي جوهر الماء ، فمن شمّ عمّ جميع حيوانهم" (٢).

وفي حكاية اخرى نرى من خلالها ضيفا يحل على شيخ من أهل مرو، فيدخل صبي المضيف ، فيأخذ الضيف يحاوره ، قال : "فقلت اما عابثا واما ممتحنا، اطعمني من خبزكم ، قال : لا تريده هو مر ، فقلت : فاسقني من مائكم ، قال : لا تريده هو مالح ، قلت : هات لي كذا وكذا ! قال : لا تريده هو كذا وكذا ، الى ان عددت اصنافا كثيرة ، كل ذلك يمنعنيه ويبغضه الي ! فضحك أبوه وقال : وما ذنبنا ؟ هذا من علمه ما تسمع ؟ ، يعني ان البخل طبع فيهم ، وفي اعراقهم وطينتهم" (٣) ، ولعل ما في الحكايتين يمثل في الغالب رأى الجاحظ في أثر البيئة الشحيحة الموارد أو القوت على نفسية ما يقطنها من الاحياء ، لأننا نجد للجاحظ العالم في الحيوان "اراءعلميه حول أثر التربه والهواء في جسم الانسان ومزاجه (٤).

---

(١) البخلاء ، ص ١٣٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٨
(٤) انظر اصالة الجاحظ لشارل بلا ، ص ١٧ - ١٨ .

اما موقف الجاحظ من البخلاء فهو موقف المفكر المستنير ، العالم بأن ما يعتور سلوكهم من شح ، هو عائد في الغالب الى تعقيد في نفوسهم ، لا حيلة لهم فيه ، ومن ثم نراه في حكاياته لا يعمد الى ذم البخلاء واعابتهم وانما يتركهم في الغالب يدافعون عن حرصهم الشديد دفاعا قويا يقوم على الحجة والمنطق (١) ، وهذا ما دعا بعض الدارسين المحدثين مثل : احمد العوامرى وعلي الجارم وعبد العزيز البشرى الى القول : ان الجاحظ نفسه كان بخيلا ، وآية ذلك تلك الحراره التي يسوق بها حجج البخلاء (٢) ، وهو قول لا يدل على فقه بطبيعة العمل القصصي ، أو درايه باسلوب الجاحظ .

فالجاحظ عالم الكلام ، المتمرس بالمناظرات ، يلاحظ انه في حكاياته يبرز في الغالب لكل شخصيه مهما يكن مذهبها أو صفتها ، الحجج والمبررات القوية ، التي تمكنها من الدفاع عن موقفها ، وتسويغ ما تأتيه من اقوال وافعال ! لا يقتصر اسلوب الجاحظ هذا على الحكايات وانما يتعداه الى المواضيع الفكرية الجادة ، فهو ينحو في اثناء معالجتها نحوا كلاميا منطقيا ، مهما يكن الموضوع الذى يطرقه ، حتى لو كان دقيقا خطيرا ، مثل موضوع الرد على النصارى ، وهو اكثر ما أغاظ ابن قتيبه منه ، حين هاجم اسلوبه عامه ، ثم قال عنه : " .. ويعمل كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين فاذا صار الى الرد عليهم تجوّز في الحجه ، كأنه انما اراد تنبيههم على ما لا يعرفون ، وتشكيك الضعفة على المسلمين .. " (٣).

فلا غرابة اذن أن يبرز الجاحظ حجج البخلاء المنطقية في اثناء تسويغ حرصهم الشديد ، ذلك أنه في مقدمة كتاب البخلاء يذكر ان من اقترح عليه تأليف الكتاب قد طلب اليه أن يذكر احتجاج الاشحاء (٤) ،واذن فابراز الجاحظ منطق البخلاء القوى في الحكايات هو " مظهر من مظاهر الموهبه الفنيه القويه ، لا أثر من آثار بخله وكزازة يده ، والاّ وجب ان تخلع على رجل الفن الواحد جميع الصفات المتناقضه ، التي وصف بها شخصياته وابرزها فيها .. " (٥) .

---

(١) انظر مثال ذلك في البخلاء الصفحات : ٩٠ ، ١٥٤ ، ١٦٩ ، ١٨٦ .

(٢) انظر تقديم الحاجرى للبخلاء ، ص ٣٤

(٣) تأويل مختلف الحديث ، ص ٤١

(٤) المصدر نفسه ، ص ١

(٥) طه الحاجرى ، مقدمة البخلاء ، ص ٣٤ .

بيد ان قولنا عن الجاحظ : انه ينظر الى البخل بوصفه تعقيدا نفسيا ، لا حيلة لصاحبه فيه ، لا يتناقض مع القول : انه في حكاياته يوحي بالتنفير من هذا التعقيد وبأنه يعده صفه ذميمه (.

ويوحي الجاحظ بذلك من خلال السخريه التي تمور في الحكايات ، وهي سخرية لا يخص بها عربيا دون عجمي ، ولا يفرق فيها بين صاحب مذهب فكري ، وآخر ، فهو فيها " يسخر من بخل أبي الهذيل العلاّف وعلي الاسواري ، وهما من أئمة المعتزله ، الذين ينتسب اليهم ، وكذلك يسخر من بخل الاصمعي العربي وأبي سعيد المدائني الشعوبي [١] ، وهذا من شأنه ان يضعف الرأى الذى يذهب اليه بعض الدارسين المحدثين ، والذى يقول : ان الجاحظ ألف كتاب البخلاء ، ليسخر فقط من بخل العجم ، الطاعنين في صحة حكايات الكرم المنسوبة الى العرب [٢]، والارجح ان نزعته الفنية هي التي حفزته على وضع الحكايات [٣] وانه استوحى بها الواقع المادى الذى بدأ يطغى على المجتمع في عصره [٤] ، أما موقف الجاحظ من هذا الواقع المادى أو البخل فهو موقف الذامّ المنفّر لا نستند في تقرير ذلك على ما نجده في الحكايات من ايحاء وسخريه فقط ، وانما على اشارة صريحة أيضا - وردت في المقدمه - يفيد الجاحظ فيها ان من الاهداف التي توخّاها من وضع حكايات البخلاء هو تحصين عرض القارىء من الذم ، مثلما حصّن ماله في كتاب حيل اللصوص من السرقة ، يقول : " وأنى ان حصّنت من الذم عرضك ، بعد ان حصنت من اللصوص مالك ، فقد بلغت لك ما لم يبلغه أب بار ، ولا أم رؤوم " [٥] ، فبروز ظاهرة البخل جديرة ان تلفت انتباه الجاحظ ، وتحرك موهبته القصصية ، مثلما لفتت انتباهه قبل ذلك ظاهرة انتشار اللصوصية والاحتيال ، فاستوحاها بحكايات ، وآية ذلك ان الجاحظ يقول عن البخلاء في تعجب وتساؤل : " ما الشيء الذى خبل عقولهم ، وافسد اذهانهم ، واعشى تلك الابصار ، ونقض ذلك الاعتدال ؟ ، وما الشيء الذى له عاندوا الحق ، وخالفوا الأمم ؟ وما هذا التركيب المتضاد ، والمزاج المتنافي ، ؟ وما هذا الغباء الذى جنبه فطنة عجيبة ؟ ، وما هذا السبب الذى خفي به الجليل الواضح ، وأدرك به الجليل الغامض "؟! [٦] .

---

(١) طه الحاجرى ، مقدمة البخلاء ، ص ٣٣ .

(٢) د. وديعه طه نجم ، الجاحظ ، ص ٩٧ .

(٣) طه الحاجرى ، مقدمة البخلاء ، ص ٣٣

(٤) د. عمر فروخ ، تاريخ الادب العربي ، ص ٣٨

(٥) البخلاء ، ص ٤ .

(٦) البخلاء ، ص ٢ .

ويلاحظ ان الجاحظ حين يرسم شخصية البخيل بكل أبعادها ، لا يترك صفة البخل تحجب ما قد تتمتع به الشخصية من صفات اخرى محببة ، أو ملكات عقلية ممتازه ، وحتى البخل نفسه فان الجاحظ يصوره باسلوب طريف ، حتى أننا نشعر أنّ " بخلاء أبي عثمان محببّون الينا ، لا يتركون في اذهاننا أثرا لاشمئزاز أو كراهيه ، لكثرة ما اضفى عليهم من مرح نفسه ، وخفة روحه "(١).

فالبخل عنده، اذن هو شيء من التعقيد قد يعتور النفس البشريه ، ولكن دون ان يشوه الشخصية الانسانية ، أو يطغى على الصفات الحميدة الاخرى ، ومن ثم نجد بين بخلائه الحكيم كالكندى ، والاديب كسهل بن هارون ، واللغوى كالاصمعي ، والمتكلم كأبي هُذَيل العلّاف ، كما نرى الجاحظ لا يتحرج من الثناء على بعض بخلائه ، نحو قوله عن الكندى : " لله در الكندى ما كان أحكمه ، واحضر حجته ، وانصح جيبه ، وأدوم طريقته "(٢) ، أو قوله عن الحزامي : " أما أبو محمد الحزامي ، فانه كان ابخل من برأ الله ، واطيب من برأ الله "(٣) ، أو قوله عن احمد بن خلف " ومن طياب البخلاء احمد بن خلف اليزيدى "(٤) ، فهو يجمع في الشخصية الواحدة بين صفة البخل وصفة الطيبة دون أن يستشعر تناقضا ، والذى يدل على أن قضية البخل عند الجاحظ قضية نفسية محضة ، أنه يصور بعض البخلاء لا يشعر أنه بخيل ، بل يعتقد أنه متلاف للمال ، وذلك على الرغم مما يعرف عنه من رجاحة العقل ، وغزارة العلم ، مثل ابي هذيل العلاف ، وهو من كبار أئمة المعتزلة واحد اساتذة الجاحظ ، فقد كان معروفا بين اصحابه بالبخل ، ولكنه مع ذلك كان يظن أنه مبذّر ، حتى انه كان يجلس بين اصحابه ويقول : إني رجل منخرق الكفين ، لا أليق شيئا ، ويدى هذه صنّاع في الكسب ، ولكنها في الانفاق خرقاء ، كم تظن من مائة ألف درهم ، قسمتها على الاخوان في مجلس "(٥) فيتضاحك اصحابه من كلامه ، دون ان يفطن الى سبب ذلك !

---

(١) جورج غريب ، الجاحظ .. دراسة عامه ، ص ٨٢ .

(٢) البخلاء ، ص ٩٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٤١ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

والجاحظ في حكايات البخلاء ، يرسم احيانا صورا طريفة من التعقيد النفسي لبعض بخلائه ، كالصورة التي نجدها لاحمد بن الخاركي البخيل النقّاج (١) أو كالصورة التي يرسمها لعبد الملك بن قيس ، الذى كان بخيلا على الطعام ، جوادا في اعطاء الدراهم ! حتى انه حين حل ضيف عليه ذات يوم ، أعطاه ألف درهم ، وصرفه دون تقديم طعام ، "فاحتمل غرم الف درهم ، ولم يحتمل أكل رغيف" (٢) ، ومثل الصورة التي نراها لسليمان الكثرى ، الذى كان لشدة بخله لا يضحك ، فلما سئل عن سبب ذلك ؟ أجاب : "ان الذى يمنعني من الضحك ان الانسان أقرب ما يكون من البذل ، اذا ضحك ، وطابت نفسه" (٣) اذن فالبخل عند الجاحظ علة نفسية ، يمكن ان تزول اذا طابت النفس ، وإلاّ فإنّ المبتلى بها يظل يميل الى الحرص الشديد ، في أمور البذل والانفاق، لا تعصمه من ذلك رجاحة عقله ، أو غزارة علمه ، أو وفرة أدبه .

ومثلما يصور الجاحظ ما يصدر عن تعقيدات النفس من تصرفات وعادات مستنكره ، يصور ايضا ما ينجم عن الآفات العقلية من سلوك غريب ، فهو في حكايات عدة يصور بعض المجانين والممرورين والنوكي والموسوسين ممن عرفهم او سمع بهم في مجتمعه ، ويمكن ان نقسم حكاياته حول هذه الفئة التي تعاني من آفات عقلية قسمين :

قسمًا من الحكايات يصور هذه الفئات وهي في حلقات العلم والادب .

وآخر يصورها وهي في الاماكن العامه .

أما الحكايات التي تصور الحمقى والممرورين في حلقات العلم والأدب فتبدو مشحونة بكثير من أسباب الضحك ، لانّها تعتمد في اساسها على الجمع بين نقيضين :

الاول - الخوض في امور العلم والادب ، وهو يحتاج الى فطنة او سلامة عقل.

والثاني - الحمقى أو المَمْرورين ، وهم لا يملكون الاّ القليل منها.

ومن ثم يبدو طريفا ان نراهم يخبطون في مسائل العلم والفكر والأدب المختلفة

---

(١) البخلاء ، ص ١٢٥ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٢ .

دون ادراك او تبصّر نحو الحكايــه التي تصور أبا لقمان الممرور ، وقد اخذ مقعد المتكلم ، حتى اذا سئل عن الجزء الذى لا يتجزأ أجاب : انه علي بن أبي طالب مما دعا بعض المتكلمين من الحضور كأبي العيناء الى متابعته ومعابثته !(١) ، وفي حكاية اخرى نرى أحد الحمقى ، ويدعى أبا سعيد الرفاعي ، وقد جلس مجلس القاص أو الأخباري ، حتى اذا سئل عن الدنيا والدَّابِيَه (٢) ، اجاب : " أما الدنيا فهذه التي أنتم فيها ، وأما الدابيه ، فهي دار بائنه من هذا الدار ، لم يسمع اهلها بهذه الدار ، ولا بشيء من أمرها ، الا أنه صح عندنا ان بيوتهم من قِثّاء ، وسقوفهم من قثاء وانعامهم من قثاء. قالوا له : يا أبا سعيد ، زعمت ان أهل تلك الدار لم يسمعوا بهذه الدار ، ولا بشيء من امرها ، ونراك تخبرنا عنهم باخبار كثيره؟ قال : فمن ثمة اعجب زياده " (٣) . وتصور بعض الحكايات الاهتمامات العلمية السخيفة أو الغريبة لهؤلاء النفر من ضعاف العقول المتعالمين ، نحو حكاية تصور احد الموسوسين وقد شغله سؤال علمي ، ظل يسأل العلماء عنه مدة عشرين عاما ، دون ان يظفر له بجواب شاف ، واخيرا يقصد الى " نوفل " عريف الكناسين وحوله كل كناس بالكرخ ، فيتوجه اليه بالسؤال الذى يقلقه قائلا : " ما بال بنت وردان (٤) تدع قعر البئر ، وفيه كر (٥) خراء وهو لها مسلم ، وعليها موفر ، وتجيء تطلب اللطاخه التي في است احدنا ، وهو قاعد على المقعدة ، فتلزم نفسها الكلفه الغليظه ، وتتعرض للقتل ، وانما هذا الذى في استاهنا قيراط من ذلك الدرهم ، وقد دفعنا اليها الدرهم وافيا وافرا ؟! .

فضحك القوم ، فحرك نوفل رأسه ثم قال : أتضحكون ؟ قيد والله سأل الرجل ، فأجيبوا ! وأما انا فقد -والله- فكرت فيها منذ ستين عاما(٦)؛ ثم يأخذ الكناسون بعد ذلك يدلون بآرائهم ، محاولين اجابة السؤال ، واخيرا يقع أحدهم على جواب يعجب الموسوس ، فيقول فرحا : " لا تعرف مقدار العالم ، حتى تجلس الى غيره ، أنتم اعلم اهل امدره ، ولقد سألت علماءها منذ عشرين سنه ، فما تخلص أحد منهم الى مثل ما تخلصتم اليه ، وقد - والله- أنتم عيني ، وطاب بكم عيشي ، وقد علمنا ان كل شيء يستلب استلابا الذ واطيب ، ولذلك صار الدبيب الى الغلمان ، على جهة القهر ألذ واطيب ، وكل

---

(١) مرت بنا الحكاية عند الحديث عن الحكايات الفكرية والسياسيه ، وانظر الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٧ . (٢) الدابيه : لا أصل لها ، واتى بها السائل لمجرد الضحك .

(٣) البيان والتبيين ، ج٢ ، ص ٣٤٤ . تحقيق عبد السلام هارون .

(٤) بنت وردان : الخنفسه . (٥) كر : مكيال في العراق .

(٦) الحيوان ، ج٣ ، ص ١٣ .

شيء يعيبه الرجل ، فهو أعز عليه من المال الذى يرثه أو يوهب اليه !"(١)

وقد نجد الممرور لا يتهيب من اعتراض طريق أكابر العلماء في عصره ، ليسألهم اسئلته العلمية الخالمة ، على نحو ما رأينا أحد الممرورين يفعل ، اذ يعترض سبيل القاضي أبي يوسف ، ثم يأخذ يسائله على قارعة الطريق(٢)، وفي حكاية اخرى نرى ممروراً آخر يدعى أباسيف يقتحم حلقة فتيان من المسجديين، وبينهم الجاحظ ، وكان ما زال في حداثة سنه - كما يخبرنا - ، فيقطع عليهم بدخوله الحديث ، ليعلن اليهم أنه اكتشف احدى الحقائق العلمية الخافية ، اذ انه يبدأهم بالقول : " والله الذى لا اله الا هو ، ان الخرء لحلو، ثم والله الذى لا اله الا هو ان الخرء لحلو ، ثم والله الذى لا اله الا هو ان الخرء لحلو ، يمينا باته ، يسألني الله عنها يوم القيامة " (٣) ، وحينئذ ينبرى له الجاحظ بين الفتيان ، ليقول له : " اشهد انك لا تأكله ، ولا تذوقه ، فمن أين علمت ذلك ؟! فان كنت علمت أمرا ، فعلمنا مما علمك الله ! قال : رأيت الذبان يسقط على النبيذ الحلو ، ولا يسقط على الحازر (٤) ، ويقع على العسل ، ولا يقع على الخل ، وأراه على الخرء، اكثر منه على التمر ، أفتريدون حجة أبين من هذه ؟ (قال الجاحظ) فقلت : يا أبا سيف ، بهذه وشبهه يعرف فضل الشيخ على الشباب ".(٥)

ويلاحظ من خلال حكايات هذا القسم شيوع اسلوب الاستقراء العلمي، والاستنتاج المنطقي في حلقات العلم ، ابان زمن الجاحظ ، حتى بين من يتردد على هذه الحلقات من الحمقى والموسوسين والممرورين .

وأما القسم الثاني من حكايات المجانين والحمقى فيصور تصرفاتهم الغريبة في الطرقات والاماكن العامة ، والمدهش حقا أن الجاحظ قد عني في كتبه بالمجانين واخبارهم عناية فائقة فهو في البيان والتبيين مثلا قد سمى بعض مشاهيرهم فقال : " ومن المجانين والموسوسين والنوكى :(٦) ابن فنان وصباح

---

(١) الحيوان ، ج٣ ، ص ١٥ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١١ - ١٢
(٣) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٣٦٠ .
(٤) الحازر : الحامض الشديد الطعم
(٥) الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٦١ .
(٦) النوكى : الحمقى.

الموسوس ، وديمموس اليوناني ، وأبو حيه النميرى ، وأبو يلس الحاسب وجعيفران الشاعر وجرنفش ، ومنهم سارية الليل ، ومنهم ريطه بنت كعب ابن سعد بن تميم بن مره وهي التي نقضت غزلها انكاثا ، فضرب الله تبارك وتعالى بها المثل ، وهي التي قيل فيها : خرقاء وجدت صوفا ؛ ومنهم دغه وجهيزه ، وشوله ، وذراعه المعديه ""(١) .

ثم يسرد الجاحظ بعد ذلك حكايات عن بعض المجانين الذين شاهدهم أو سمع باخبارهم في مجتمعه ، نحو قوله : عن جعيفران الموسوس : "أما جعيفران الموسوس ، فشهدت رجلا اعطاه درهما وقال : قل شعرا على الجيم ، فانشأ يقول :

عادني الهم فاعتلج	كل هم الى فرج
سل عنك الهموم بالكأس والراح تنفرج	

وهي ابيات ، وكان يتشيع ، قال له قائل : أتشتم فاطمة وتأخذ درهما ،قال : لا بل أشتم عائشة وآخذ نصف درهم ، وهو الذى يقول :

" ما جعفر لابيه	ولا له بشبيه "
" أضحى لقوم كثير	فكلهم يدعيه "
هذا يقول بنيي	وذا يخاصم فيه
والأم تضحك منهم	لعلمها بأبيه " (٢)

---

(١) البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٢٢٥ (تحقيق عبد السلام هارون) .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ (تحقيق عبد السلام هارون) .

ذهب الاستاذ حسن الامين في مقالة كتبها تحت عنوان " جعيفران الموسوس" الى ان ابا الفرج الاصفهاني هو اول من كتب عن الشخصيات الشعبية مثل جعيفران الموسوس ، واول من تغلغل في الحياة الشعبية وعني بها ، (انظر مجلة العربي الكويتيه - العدد (٨٩) ابريل ١٩٦٦ ص ٤٥) . ولا شك ان ما ذهب اليه يجانب الحقيقة ، وقد رأينا الجاحظ يتحدث عنه حديث من شاهده ، ومن جهة آخرى يكاد يجمع الدارسون المحدثون على ان الجاحظ هو اول من تغلغل في الحياة الشعبية ، واول من عني بأدب الجماعات العاميه في ادبنا (انظر مقالة محمد خليفه التونسي ، المعرفه الانسانيه بين الروايه شفويا والتدوين كتابيا ، العربي الكويتيه ، عدد (٢٨٧) ، اكتوبر - ١٩٨٢) . ص : ١٤٦ .

وقد اورد الجاحظ بعض الحكايات عن أبي حيه النميري ، ووازن بينه وبين جعيفران فقال : " أما أبو حيه النميري فانه أجن من جعيفران، وكان اشعر الناس ، وحدثني أبو المنجوف قال : قال أبو حيه ، عنّ لي ظبي فرميته فراغ عن سهمي ، فعارضه والله السهم ، ثم راغ فراوغه حتى صرعه ببعض الجنارات ، وقال : والله رميت ظبيه ، فلما نفذ السهم ذكرت بالظبيه حبيبة لي فشددت وراء السهم ، حتى قبضت على قذذه ! وكان يكلم العمّار ، ويخبر عن معارضته الجن .. "(١) .

ويلاحظ ان الجاحظ في اثناء حديثه عن ابي حيه لم يشر الى جبنه ، ولم يذكر الحكايه التي أوردها ابو الفرج عنه ، والتي تصور خوره ، اذ دخل كلب منزله فتوهمه لصا ! وانما ادار الجاحظ الحكايه حول شخصية اخرى تدعى عروة بن مرشد (٢) .

ولم يغفل الجاحظ في حكاياته عن المجانين والنوكى بعض حمقى العجم الذين كانوا يعيشون في مجتمعه ، مثل ديمموس اليوناني - الذى أورد حوله بعض الحكايات والنوادر ، ثم قال : ان حوله تروى " اكثر من ثمانين نادره ، ما منها الا وهي غرة ، وعين من عيون النوادر .. (٣) .

ومثلما يعرض الجاحظ لمجانين وحمقى البصره ، يعرض ايضا لمجانين وحمقى الكوفه ، فيعدّد مشاهيرهم مثل : عينادة ، وطاق البصل،وبهلول(٤)

أما موقف الجاحظ من هذه الفئات التي تعاني من علل عقليه فلا يبدو واضحا في اكثر حكاياته عنها ، ولكننا في حكايات قليلة نشعر أنه يوحي بضرورة صونها من معايشة الناس ؛ ذلك أنها تضطر أحيانا الى الذود عنها فترد ردا مؤذياً للذوق العام .

---

(١) البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٢٢٩ (تحقيق عبد السلام هارون).

(٢) انظر الحيوان ، ج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٣) الحيوان ، ج ١ ص ٢٨٩

(٤) انظر البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٢٣٠ (تحقيق عبد السلام هارون) .

نحو حكاياته عن مجنون الكوفه بهلول اذ يقول : " ومن مجانين الكوفه " بهلول " وكان يتشيع ، قال له اسحق بن الصباح اكثر الله في الشيعه مثلك ، قال : بل اكثر الله في المرجئه مثلي ، واكثر في الشيعة مثلك .

وكان جيد القفاء ، فربما مر به من يحب العبث ، فيقفذه ، .. فحشا قفاه خرءا ، وجلس على قارعة الطريق ، فكلما قفذه انسان تركه حتى يجوز ثم يصيح به : يافتى ! شمّ يدك ، فلم يعد بعده أحد يقفذه ، وكان يغني بقيراط ، ويسكت بدانق ! وكانت بالكوفه امرأه رعناء يقال لها : مجيبه ، فقفذ بهلولا فتى كانت مجيبه ارضعته ، فقال بهلول : كيف لا تكون أرعن وقد ارضعتك مجيبه ، فوالله لقد كانت تزق لي الفرخ فأرى الرعونه في طيرانه " (١)

وبعد فان حكايات الجاحظ الاجتماعية تعكس مدى تغلغل الجاحظ في الواقع الشعبي لمجتمعه ، ولعل ابرز ما يمكن ان يلاحظ على هذه الحكايات جميعها أنه لم يصور بها الواقع الاجتماعي السوي . وانما شغف بتصوير كل واقع غريب ، فصوّر العادات المنكره ، والصفات المذمومه ، والفئات المستلبة الحريه أو الجانحه ، أو المنبوذه ، فكأنه فعل ذلك ، لأنه اراد من خلال الايحاء والضحك ان يلفت قارئه الى علل ومظاهر سلبيه كانت تعتور حياة المجتمع ، فالجاحظ هو في حكاياته الاجتماعية ، كما يقول الدكتور احمد محمد الحوفي بحق ، قد أولى الاحوال الشاذة في المجتمع عنايته ، فتحدث مثلا عن البخلاء حديث الأديب المفتن ، وتحدّث عن المجانين والحمقى ... الخ " (٢) .

---

(١) البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٢٣١ . تحقيق عبد السلام هارون .

(٢) الجاحظ ، ص ٩٥ .

٤ - حكايات تاريخيه

يلاحظ دارس حكايات الجاحظ ذات الطابع التاريخي ثلاث ملاحظات عامه ، الاولى : ان هذه الحكايات مستوحاه في الغالب من العصر الاسلامي، اذ قلما نعثر بينها على حكاية تستوحي العصر الجاهلي ، وان كانت ثمة حكايات قليلة جدا ، تصور باسلوب ساخر بعض الاساطير القديمه [١].

وأما الملاحظة الثانية : فهي اننا لا نستشعر من خلال الحكايات أى تحامل سياسي ، حتى حين تصور الحكايه أحد الخلفاء أو الولاة الامويين ، وعلى النقيض من ذلك ، فاننا نجد الجاحظ في بعض حكاياته عن الامويين يبرز جوانب مشرقه من شخصياتهم . فشخصية معاويه بن ابي سفيان المشهورة بالحلم والاناه ، يمكن أن نتبين بعض ملامحها من خلال حكاية تصور موقفا له مع أحد الجهال ، ويدعى " ربيعة بن عسل " ، اذ تصوره الحكايه قد وفد عليه ، فقال له معاويه : حاجتك ؟

قال: زوجني ابنتك !

قال (معاويه) : اسقوا ابن عسل عسلا .

فأعاد عليه العسل ثلاثا ، فتركه وقد كاد تنقد بطنه .

قال (ربيعه) : فاستعملني على خراسان .

قال : زياد أعلم بثغوره !

قال : فاستعملني على شرطة البصره !

قال : زياد أعرف بشرطته !

قال : فاكسني قطيفه أو هب لي مائه ألف جذاع لداري

قال : (معاويه) : وأين دارك ؟

قال : بالبصره

قال : كم ذرعها ؟

قال : فرسخين في فرسخين .

قال (معاويه) : فدارك في البصره أم البصره في دارك ؟ ! [٢]

---

(١) نحو حكاية تعرض لسفينة نوح (الحيوان ، ج ١ ، ص ٢١) .
واخرى تعرض للقمان بن عاد وما جرى له مع النساء
(الحيوان ، ج١ ، ص ٢١) .

(٢) البيان والتبيين ، ج٢ ، ص ٢٥٩ ، وانظر حكاية اخرى عن معاويه (البخلاء ، ص ٧١) .

وفي حكاية اخرى نرى الحجاج كريما ، حتى انه لا يتغدى حين يحل موعد الغداء ، الا بعد ان يقول لجنوده " اطلبوا من يتغدّى معي " (١) ، وعندما يأتونه باعرابي صائم ، ويأخذ يجيبه باسلوب خشن ، نرى الحجاج يحلم عنه ، ثم يتركه وشأنه ! (٢) بل اننا نجد الجاحظ الكاتب السياسي لا يتحرج - وهو الذى يعيش في ظل دوله قامت على انقاض الدوله الاموية - من كيل الثناء لعبد الملك بن مروان في احدى الحكايات ، اذ يبدأها بالقول عنه " كان عبد الملك بن مروان شديد اليقظة ، كثير التعاهد لولاته ،فبلغه ان عاملا من عماله قبل هديه ، فأمر باشخاصه اليه ، فلما دخل عليه ، قال له : أقبلت هديه منذ وليتك ؟ قال : يا امير المؤمنين ، بلادك عامره ، وخراجك موفور ، ورعيتك على افضل حال ، قال : اجب فيما سألتك عنه ، أقبلت هديه منذ وليتك ؟

قال نعم : قال : لئن كنت قبلت ولم تعوّض انك للئيم ، ولئن أنلت مهديك لا من مالك أو استكفيته ما لم يكن يستكفاه ، انك لجائر خائن ، ولئن كان مذهبك أن تعوّض المهدى اليك من مالك ، وقبلت ما اتهمك به عند من استكفاك، وبسط لسان عائبك ، واطمع أهل عملك انك لجاهل ، وما فيمن أتى أمرا ، لم يخل فيه من دناءة أو خيانة ، أو جهل مصطنع ، نحيّاه عن عمله " (٣) .

وأما الملاحظة الثالثة - فهي ان الجاحظ في هذه الحكايات لا يُعني بتمحيص حقائق الاحداث كما يفعل المؤرخ ، وانما يُعني بتصوير مواقف انسانيه الطابع ، أو تنطوى على مفارقات طريفه ، أو تسلط الاضواء على اشياء تكمن وراء احداث مشهوره ، لم يلتفت اليها المؤرخون : ويمكننا ان نلاحظ من خلال اسناد بعض هذه الحكايات أنها كانت في الغالب تتناهى الى اسماع الجاحظ عن طريق بعض الاخباريين المشهورين في عصره ، مثل ابي الحسن المدائني والهيثم بن عدى ولننظر مثال ذلك الى هذه الحكاية المسندة الى الهيثم بن عدى والتي تصور حدثا طريفا على هامش معركة القادسية الشهيرة : " قال الهيثم ، قال ابن عباس : لم يكن في العرب أمرد ولا اشيب أشد عقلا من السائب بن اقرع ،

---

(١) البيان والتبيين ، ج ٤ ص ٩٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٩٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٨٩ . تحقيق عبد السلام هارون .

لاحظنا في الحكايات السياسية ان الجاحظ كان مناصرا للخلافة العباسية ، أما ابرازه في حكاياته جوانب مشرقه لبعض خلفاء بني اميه ، فيمكن تفسيره بميله المعروف الى العرب ضد حركة الشعوبيه التي اخذت تقوى في زمنه .

قال : حدثني الشعبي ان السائب شهد فتح مهرجان قذق ، ودخل منزل الهرمزان، وفي داره الف بيت ، فطاف فيه ، فاذا ظبي من جص في بيت منها مادّ يده فقال : أقسم بالله ، انه يشير الى شيء انظروه ! فنظروا فاستخرجوا سفط كنز الهرمزان ، فاذا فيه ياقوت وزبرجد ، فكتب فيه السائب الى عمر، وأخذ منه فصّا أخضر ، وكتب الى عمر ، ان رأى امير المؤمنين ان يهبه لي فليفعل ، فلما عرض عمر السفط على الهرمزان قال : فأين الفص الصغير؟ قال عمر : سألنيه صاحبنا فوهبته له ، فقال : ان صاحبك بالجواهر لعالم (١).

وفي حكاية اخرى تدور حول سقوط الدولة الأموية ، نجدها لا تعزو ذلك الى سبب من الاسباب المشهورة التي يرددها المؤرخون في كتبهم ، وانما ترد ذلك الى تنافس شخصي بين واليين أمويين ، هما نصر بن سيار ويزيد ابن عمر ، " وذلك أن نصر بن سيار كان صاحب خرسان ، قبل خروج ابي مسلم وقوة أمره ، الى ان قوي عليه ، حتى هرب منه ، وذلك انه وان كان واليا لاربعة خلفاء ، فانه كان مأمورا بمكاتبة صاحب العراق ، وان كان صاحب العراق لا يقدر على عزله ، وقد كان يزيد بن عمر يخاف ان يولّي مكانه نصر بن سيار أو مسور بن عمرو بن عباد فاحتال في المسور ، ولم تمكنه الحيلة في نصر ، فكان اذا كتب اليه بالرأى الذى يحسم به من أسباب قوة المسوّده (٢) كتب بذلك الى يزيد ، فكان يزيد لا يرفع خبره ، ولا يمده بالرجال طمعا في ان يهزم أو يقتل ، ونسي يزيد انّ غلبة أبي مسلم على خراسان ، سبب لغلبته على الجبال ، واذا استحكم له ذلك ، لم يكن له همة الا صاحب العراق ، فلما طوى أخبار نصر سد وجه الرأى والتدبير على مروان ، حتى كان الذى كان " (٣) .

واكثر حكايات الجاحظ ذات الطابع التاريخي، يجمع بين أحد الحكام وبين فرد من افراد عامة الشعب من خلال موقف ما ،وبعض هذه الحكايات يوحي بالتفاوت الكبير في مستوى المعيشه بين طبقتي الحاكم والمحكوم ، مثل الحكايه التي تجمع بين الأمين والخصارين ، والتي ينهيها راويها بقوله : " فتعجبت يومئذ من المقادير ، كيف ترفع رجلا الى السماء ، وتحط آخرين في الثرى" (٤)

---

(١) المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٦٣ .

(٢) المسوّده : اصحاب الدعوة العباسية .

(٣) القول في البغال ، ص ٥٥ - ٥٦ ، تحقيق شارل بللا .

(٤) انظر الحيوان ، ج٥ ، ص ٣٨٢ .

وتصور حكاية اخرى والي مكه نافع بن علقمه عنيفا ، سفاكا للدماء ، قد أرهب بظلمه وبطشه الناس ، حتى انه كان شاهرا سيفه لا يغمده وذات يوم " بلغه ان فتى من بني سهم يذكره بكل قبيح ، فلما أتي به ، وأمر بضرب عنقه !

قال الفتى : لا تعجل عليّ ودعني أتكلم !

قال : أو بك كلام ؟ !

قال (الفتى) : نعم وأزيد يانافع ، وليت الحرمين تحكم في دمائنا وأموالنا وعندك أربع عقائل من العرب ، وبنيت ياقوتة بين الصفا والمروه - يعني داره - وأنت نافع بن علقمه بن نضله بن صفوان بن محرث احسن الناس وجها ، واكرمهم حسبا ، وليس لنا من ذلك الا التراب ، فلم نحسدك على شيء منه ، ولم نَنْفسه عليك ، ونفست علينا أن نتكلم ؟ !

فقال (نافع) : تكلم حتى ينفك فكاك (١) .

فنقمة الشاب في الحكاية سببها - فضلا عن بطش الوالي وظلمه - هو التفاوت الكبير بين مستوى معيشة الوالي ومستوى معيشة الشاب بوصفه واحدا من عامة الناس ، والاشارة الى ذلك واضحة ، فالوالي قد بنى بين الصفا والمروه داراً كأنها ياقوته ، في حين يجاهر الشاب بالقول له " ليس لنا من ذلك الا التراب " .

وقد يكون الموقف في الحكاية بين الحاكم والفرد طابعه على النقيض من الموقف في الحكاية السابقة . أى يكون طابعه وديا ، ولكن الشخص يتصرف تصرفا لا ينم على اللباقة والفطنة ، مما يوقعه في مأزق حرج ، ومثال ذلك حكاية تصور الخليفة أبا جعفر المنصور وقد هش لفتى هاشمي ، دخل عليه ، فاحترمه ، ثم تبسّط معه ، حتى انه دعاه لمشاركته الطعام ، لكن الفتى الغر ، الذى تنقصه الكياسة ، يعتذر بقوله : قد تغديت يا أمير المؤمنين: فتغيظ قلة لباقته الربيع وزير أبي جعفر ، حتى انه يدفع الفتى من قفاه هو والحجّاب ، عندما يستأذن الفتى وينصرف ، مما يدفع عمومة الفتى الى رفع شكوى الى المنصور ، احتجاجا على ما اقترفه وزيره ، " فقال المنصور : ان الربيع لا يقدم على مثل هذا الا وفي يديه حجه ، فان شئتم اغضيتم على ما فيها ، وان شئتم مسألته وانتم تسمعون ، قالوا : فاسأله : فدعا الربيع ، وقصوا قصته ، فقال الربيع : هذا الفتى كان يسلم من بعيد

---

(١) البيان والتبيين ، ج١ ص ٣٩٣ . تحقيق عبد السلام هارون .

وينصرف ، فاستدناه أمير المؤمنين ، حتى سلم عليه من قريب ، ثم امره بالجلوس ثم تبذّل بين يديه ، وأكل ، ثم دعاه الى طعام ليأكل معه من مائدته ، فبلغ به الجهل بفضيلته المرتبه التي صيّره فيها ، الى ان قال حين دعاه الى غدائه ، قد تغديت واذن لمن عنده لمن تغدى مع امير المؤمنين الا سدّ خلة الجوع ، ومثل هذا لا يقوّمه القول دون الفعل ! " (١).

والحكاية كما رأينا تصور الوزير الربيع يطالب من يحظى بمقابلة الخليفة بضرورة مراعاة آداب القصر ، حتى لو كان قريبا للخليفه . يعزز هذا أنه في حكاية أخرى يطالب فتى هاشميا آخر بذلك دخل على المنصور ، فتبسط معه المنصور ايضا ، وسأله عن وفاة ابيه ، والوزير الربيع حاضر ، فأجاب الفتى : " مرض ابي رضي الله تعالى عنه يوم كذا ، ومات رضي الله تعالى عنه يوم كذا ، وترك رضي الله تعالى عنه من المال كذا ، ومن الولد كذا فانتهره الربيع وقال : بين يدى أمير المؤمنين توالي بالدعاء لأبيك ؟!

فقال الشاب : لا ألومك ، لأنك لم تعرف حلاوة الاباء !

قال (ابراهيم بن السندى) : فما علمنا أن المنصور ضحك في مجلسه ضحكا قط ، افترّ عن نواجذه الا يومئذ "(٢) .

ومن جهة اخرى نلحظ حكايات قليلة من حكايات الجاحظ تجمع في اطارها بين العرب والعجم من خلال أمر من الامور ، سواء أكان الأمر طابعه العداء ، أم الصفاء في ظلال الاسلام الذى قد يجمع بينهما .

أما الحكايات التي تجمع بين العرب والروم فتصورعداء الرومللعرب وتحيّنهم الفرص المواتية للاغارة على بلادهم ، ومثال ذلك حكاية تصور الروم يتربصون الدوائر ببلاد العرب ، في وقت كانت تشتغل فيه حرب اهلية بين عبد الملك ومصعب ، لأنه " لما تشاغل عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزبير ، اجتمع وجوه الروم الى ملكهم فقالوا له : قد امكنتك الفرصة من العرب بتشاغل بعضهم ببعض ، لوقوع بأسهم بينهم ، فالرأى لك أن تغزوهم الى بلادهم ، فانك ان فعلت ذلك بهم نلت حاجتك ، فلا تدعهم حتى تنقضي الحرب التي بينهم ، فيجتمعوا عليك ، فنهاهم عن ذلك ، وخطّأ

---

(١) البيان والتبيين ، ج٢ ص ٣٢٨ ، تحقيق عبد السلام هارون .

(٢) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٣٢٨ ، وانظر ايضا حكاية معاويه بن مروان مع الطحان (البيان والتبيين ، ج٢ ص ٢٦١) ، وحكاية الرشيد مع ابي شعيب القلال (البيان ، ج٢ ص ٢٦١) ، تحقيق عبد السلام هارون .

رأيهم ، فأبوا عليه الا أن يغزوا العرب في بلادهم ، فلما رأى ذلك أمر بكلبين ، فحرّش بينهما ، فاقتتلا قتالا شديدا ، ثم دعا بثعلب فخلاه ، فلما رأى الكلبان الثعلب تركا ما كانا فيه ، واقبلا عليه حتى قتلاه ، فقال ملك الروم : كيف ترون ؟ هكذا العرب تقتتل بينها ، فاذا رأوا ذلك تركوا ذلك ، واجتمعوا علينا فعرفوا صدقه ، ورجعوا عن رأيهم " (١).

وتصور بعض الحكايات العرب وهم يحاربون الاتراك الوثنيين(٢). أو وهم يحاورونهم حول الاسلام ، ليستجيبوا أخيرا ، وليدخلوا في الدين الحنيف(٣). وأما الحكايات التي تجمع بين العرب والفرس المسلمين فهي لا تصور أي عداء، وانما تصور مفارقات طريفه ، تقوم في الغالب على اختلاف العادات وتباين الامزجه ، الى درجة أننا نجد صاحب الاهواز الفارسي في احدى الحكايات حين يحكي احدى تجاربه مع العرب يبدأ الحكاية بالقول : " ما رأينا قوما اعجب من العرب ، اتيت الاحنف بن قيس ، فكلمته في حاجه لي الى ابن زياد ، وكنت قد ظلمت في الخراج فكلمه ، فاحسن الي ، وحط عني ، فاهديت اليه هدايا كثيره ، فغضب وقال: إنا لا نأخذ على معونتنا اجرا ، فلما كنت في بعض الطريق ، سقطت من ردائي دجاجه فلحقني رجل منهم ، فقال : هذه سقطت من ردائك ، فأمرت له بدرهم ، ثم لحقني بالأُبُلّه (٤) ، فقال : أنا صاحب الدجاجه ، فأمرت له بدراهم ، ثم لحقني بالاهواز : فقال : أنا صاحب الدجاجه ، فقلت له : ان رأيت زادى بعد هذا كله قد سقط ، فلا تعلمني ، وهو لك " (٥) .

---

(١) الحيوان ، ج٢ ص ١٧٢ .

(٢) انظر مثال ذلك رسالة مناقب الاتراك ، رسائل الجاحظ ، ج١ ص٦٠ ، ص٨٤ ، تحقيق عبد السلام هارون .

(٣) انظر مثال ذلك ، المصدر السابق ، ج١ ص ٧٧ - ٨١ .

(٤) الابله : بلد بالعراق على شاطئ دجله .

(٥) الحيوان ، ج٢ ص٣٦٠ - ٣٦١ .

٥ - حكايات علمية

يُعني الجاحظ في بعض حكاياته بتصوير الحيوان والطير والحشرات، وهو يصدر في هذه الحكايات عن رؤية عالم الطبيعة ، الذى لا ينفك يتحدث عن بعض تجاربه العلمية عليها ، نحو تجربته على الافاعي والشبح والسذاب[١]، أو جمعه بين العقارب والفئران في اناء زجاجي [٢]، او الجمع بين الجرذان والسنانير [٣] .

ومعنى ذلك ان رؤية عالم الطبيعة تتضافر مع موهبة القاص في حكايات الجاحظ العلمية ، ويلاحظ ان بعض هذه الحكايات يرصد في دقة أوضاعا وحركات وحقائق معينه تتعلق ببعض الحيوانات أو الحشرات ، على حين ان بعضها الآخر يحاول في سخريه ان يبطل بعض المعتقدات الشائعه حول حيوانات أو حشرات معينه .

ففي بعض الحكايات مثلا نرى ثمامه بن اشرس ، وهو احد علماء المعتزله المشهورين ، يولي وهو في السجن اهتمامه بفأرين ، يراهما كل يوم يخرجان من جحريهما ، فتثور في ذهنه تساؤلات علميه ، تدفعه الى رصد حركاتهما، ومحاولة فهمهما وتحليلها ، يفعل ذلك شأن العالم في مختبره !

.. « كنت في الحبس وحدى ، وكان في البيت الذى أنا فيه جحر فأر، يقابله جحر آخر ، فكان الجرذ يخرج من أحد الجحرين ، فيرقص ويتوعد ، ويضرب بذنبه ، ثم يرفع صدره ، ويهز رأسه ، فلا يزال كذلك حتى يخرج الجرذ الذى يقابله ، فيصنع كصنيعه ، فبينما هما اذ عدا أحدهما ، فدخل جحره ، ثم صنع الآخر مثل ذلك ، فلم يزل ذلك دأبهما في الوعيد وفي الفرار ، وفي التحاجز وفي ترك التلاقي ، الآني في كل مره ، أظن الذى يظهر لي من احدهما واجتهادهما، وشدة توعدهما ، أنهما سيلتقيان بشيء أهونه العض والخمش ، ولا والله ان التقيا قط ، فعجبت من وعيد دائم ، لا ايقاع معه ، ومن فرار دائم لا ثبات معه ، ومن هرب لا يمنع من العوده ، ومن اقدام لا يوجب الالتقاء ، وكيف يتوعد

---

(١) الحيوان ، ج٦ ص ٣٩٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ج٥ ص ٢٤٨ .
(٣) المصدر نفسه ، ج٥ ص ٢٥٢ .

صاحبه ، ويتوعده الآخر ؟ وبأى شيء يتوعده ، وهما يعلمان أنهما لا يلتقيان أبدا ؟ ! فان كان قتالهما ليس هو الا الصخب والتنييب (١). فلم يفر كل واحد منهما حتى يدخل جحره ؟! وان كان غير ذلك ، فأى شيء يمنعهما من الصدمه وهذا أعجب ".. (٢) .

وكثير من حكايات الجاحظ العلمية يدور حول الذباب ، والبعوض اللذين كانت تعاني منهما البيوت في عصر الجاحظ ومجتمعه فيما يبدو ! ففي حكاية أبي حكيم الكيماشي ، رأينا كيف يقع احد الناس في حبائله ، حين يزعم أنه يستطيع اخراج البعوض بوساطه العمار (الجن) ، فتكون النتيجه ضياع مال الرجل ، دون ان يخرج البعوض من بيته (٣) .

وفي حكاية اخرى تعكس مدى سيطرة الاسلوب العلمي في استنباط الحقائق من خلال التجارب في مجتمع البصره ، نرى رجلا قد هزّه اكتشاف حقيقة علمية هامه في نظره ، فيندفع بسبب ذلك الى مجلس اصدقائه ، ليبادرهم بهذا السؤال:
" هل تعرفون الحكمه التي استفدناها من الذباب ؟
قالوا : لا ! قال : بلى ، انها تأكل البعوض وتصيده وتلقطه وتفنيه "(٤).

ثم يشرح لهم كيف اكتشف الحقيقة عن طريق المصادفه ، أول الامر ثم أخذ يكرر التجربه المره تلو الأخرى ، حتى تجلت له الحقيقة العلمية الخافية ! فقد كان من عادته اذا اراد القائله ، أن يأمر خدمه باخراج الذباب وطرح الستر ، واغلاق الباب ، قبل ذلك بساعه ، لكنه حين كان يقيل ، كان يعاني دائما من البعوض ، يقول : " كنت ادخل القائله فيأكلني البعوض أكلا شديدا فأتيت ذات يوم المنزل في وقت القائله ، فاذا ذلك البيت مفتوح ، والستر مرفوع وقد كان الغلمان اغفلوا ذلك في يومهم ، فلما اضطجعت للقائله لم اجد من البعوض شيئا ، وقد كان غضبي قد اشتد على الغلمان ، فنمت في عافيه ، فلما كان من الغد ، عادوا الى اغلاق الباب ، واخراج الذباب ، فدخلت التمس القائله فاذا البعوض كثير ، ثم اغفلوا اغلاق الباب يوما آخر فلما رأيته مفتوحا شتمتهم فلما صرت الى القائله لم أجد بعوضه واحده ، فقلت في نفسي عند ذاك : أراني

---

(١) التنييب : العض بالانياب .
(٢) الحيوان : ج٥ ص ٢٥٠ - ٢٥١ .
(٣) مرت بنا الحكايه ، وانظر الحيوان ، ج٣ ص ٣٨٥ .
(٤) الحيوان ، ج٣ ص ٣٢٠ .

قد نمت في يومي الاغفال والتضييع ، وامتنع مني النوم في ايام التحفظ والاحتراس ، فلم لا اجرب ترك اغلاق الباب في يومي هذا ، فان نمت ثلاثة ايام لا القى من البعوض أذى مع فتح الباب ، علمت ان الصواب في الجمع بين الذبان وبين البعوض ، فان الذبان هي التي تفنيه ، وان صلاح امرنا في تقريب ما كنا نباعد ، ففعلت ذلك ، فاذا الأمر قد تم "(١) .

وبين حكايات الجاحظ العلميه ما يصور تجارب على الحيوان أو الطير ، لقياس مدى ذكائه وقوة ذاكرته ، ومدى قدرته على التعلم ! فثمة حكاية تصور جروا يتعلق بأحد الخدم ، ثم يتفق أن يضطر الخادم الى السفر عدة أشهر ، وعندما يؤوب ، يتساءل واحد من أهل المنزل : "" أتظنون أن فلانا (يعني الكلب) ، لم يثبت صورة فلان (يعني خادمه الغائب) وقد فارقه وهو جرو ، وقد صار كلبا يشغر ببوله ؟

قالوا : ما نشك أنه نسي صورته ، وجميع بِرّ كان يبرّه ، قال : فبينما أنا جالس في الدار ، اذ سمعت من قبل باب الدار نباحه ، فلم أر شكل نباحه من التأنب والتعثيث (٢) والتوعد ، ورأيت فيه بصبصة السرور ، وحنين الالف ، ثم لم ألبث أن رأيت الخادم طالعاً علينا ، وانّ الكلب ليلتف على ساقيه ، ويرتفع الى فخذيه ، وينظر في وجهه ، ويصيح صياحا يستبين فيه الفرح ، ولقد بلغ من افراط سروره أني ظننت أنه عُرِض (٣) ، ثم كان بعد ذلك يغيب الشهرين والثلاثة ، ويمضي الى بغداد ، ثم يرجع الى العسكر بعد ايام ، فاعرف بذلك الضرب من البصبصه ، وبذلك النوع من النباح ان الخادم قد قدم "(٤) .

وتصور حكاية اخرى زوج حَمام مقصوص ، وزوج حمام طيار ، وفرخان من فراخ الزوج الطيار ، وقد غاب عنها صاحبها مده ، فلما خلي سبيله بعد شهر ، قال : "" لم يكن لي هم الا النظر الى ما خلفت خلفي من الحمام واذا الفرخان قد ثبتا ، واذا الزوجان قد ثبتا ، واذا الزوجان الطياران ثبتا على حالهما ، الا أني رأيتهما زاقين ، اذ علامة ذلك في موضع الغيب وفي القرطمتين (٥) ، وفي اصول المناقير ، وفي عيونهما ، فقلت : فكيف يكونان زاقين مع استغناء فرخيهما عنهما ؟ ! ولا شك في موت المقصوصين ، ثم دخلت الغرفة فإذا هما على افضل حال ، فاشتد تعجبي من ذلك ، فلم البث ان دنوا الى افواه الزوج الكبار ، يصنعان كما يصنع الفرخ في طلب الرزق

---

(١) الحيوان ، ج٣ ص ٣٢٠ . (٢) التعثيث : الترجيع في الصوت .
(٣) عرض : اصابه الحيوان (٤) الحيوان ، ج٣ ، ص ١٢٩ .
(٥) القرطمتان : نقطتان على اصل منقاره اي اعلى منقاره .

ورأيتهما حين زقّاهما ، فاذا هما لمّا اشتد جوعهما ، وكانا يريانهما ، يزقان الفرخين ، ويريان الفرخين كيف يستطعمان ويسترزقان ، حملهما الجوع وحب العيش ، وتلهب العطش ، وما في طبعهما من الهدايه ، على ان طلبا ما يطلب الفرخ ، فزقاهما ثم صار الزق عاده في الطيّار ، والاستطعام عاده في المقصوص ..(١) .

وثمة حكايات تصور اشخاصا يقصدون قصدا الى اجراء بعض التجارب على الحيوان ، لاختبار مدى ذكائه ، وقدرته على التعلم عن طريق ما يسمى الآن الاقتران الشرطي ، نحو حكاية تصور أحد الاشخاص وقد " حبس كلبه في بيت ، واغلق دونه الباب ، في الوقت الذى كان طباخه يرجع فيه من السوق ومعه اللحم ، ثم أحدّ سكينا بسكين ، فنبح الكلب ورام فتح الباب لتوهّمه أن الطباخ قد رجع من السوق بالوظيفه (٢) ، وهو يُحدّ السكين، ليقطع اللحم ، قال : فلما كان العشى، صنعنا به مثل ذلك ، لنتعرف حاله في معرفة الوقت ، فلم يتحرك ، قال : وصنعت ذلك بكلب آخر ، فلم يقلق الاّ قلقا يسيرا ، فلم يلبث أن رجع الطباخ ، فصنع بالسكين مثل صنيعه ، فقلق حتى رام فتح الباب ، قال : فقلت : والله لئن كان عرف الوقت بالرصد ، فتحرك له ، فلما لم يشم ريح اللحم ، عرف أنه ليس بشيء ، ثم جيء باللحم من المطبخ ، وهو في البيت ، أو عرف فصل ما بين أحداد السكين ، واحداد الطباخ ان هذا ايضا لعجب ، وان اللحم ليكون بيني وبينه الذراعان ، والثلاث الاذرع ، فما أجد ريحه الا بعد أن ادنيه من انفي ، وكل ذلك عجب .. (٣) .

على هذا النحو تصور حكايات الجاحظ العلمية التجارب المختلفة ، وتسجل الملاحظات الدقيقة ، وتلقي التساؤلات العلمية التي تحاول الوصول الى حقائق تتعلق بالحيوان أو الطير أو الحشرات ، وبعضها يحاول رصد حقائق علميه تتعلق بالأوابد من الحيوان دون الأليف منها .

فثمة حكايه تصور كيف يداور الذئب في الصحراء، لاصطياد فريسته كما تصف حال الذئبه في زمن اهتياجها وتسافدها ، وكيف يتصل بها الذئب

---

(١) الحيوان ، ج٢ ص ١٥٦ .

(٢) الوظيفه : ما يقدر من طعام في اليوم ، وكذا في السنه والزمان المعين.

(٣) الحيوان ، ج٢ ص ١٢٠ - ١٢١ .

في اثناء ذلك (١) ، وثمة حكاية اخرى تحاول تقصي كم يعمّر الضب عادة ،وذلك من خلال تجربة أحد البدو مع ضب ، ظل يطارده في وشاز الارض مدة طويلة دون ان يظفر به (٢) . ومن الحكايات ما يحاول دحض بعض المعتقدات الخرافية الشائعة بين الناس ، حول بعض الحيوانات ، نحو الاعتقاد الذى كان شائعا زمن الجاحظ، بأن كل من يعضه كلب شرس ، ينبح بسبب ذلك . ويهر ويدعو بماء ويبول جروا وعلقا (٣) . أو الاعتقاد بأن الرُّقى تدفع أذى لدغ الافاعي السامه (٤).

ويلاحظ ان الجاحظ اذ يعمد الى دحض الخرافات الشعبيه في حكاياته العلمية ، فانه يلجأ الى الضحك والتصوير الساخر الموحي في الغالب ، دون الميل الى الجِدّ الصارم أو المباشره ، فهو مثلا حين يعرض لتصوير خرافات متنوعه كانت شائعة على صعيد الطب الشعبي . تبدو الحكايات التي تصور ذلك تمتزج فيها المأساه بالضحك الساخر ، الذى ينطوي بدوره على نقد ضمني لاذع ، فثمة حكاية مثلا تصور اعرابيا ، قد لسعته عقرب في البصره ، " فخيف عليه ، فاشتد جزعه ، فقال بعض الناس : ليس شيء خير له من أن تغسل له خصية زنجي عَرِق ، وكانت ليلة غَمِقه (٥). فلما سقوه ، قطّب ، فقيل له : طعم ماذا تجد ؟ قال طعم قربة جديده (٦) " .

وفي حكاية اخرى نرى لسعة العقرب تعالج باسلوب اكثر جهلا، واشد خطرا ، فهي تصور " ظئرا لسليمان بن رياش لسعتها عقرب ، فملأت الدنيا صراخا ، فقال سليمان : اطلبوا لها هذه العقرب ، فان دواءها ان تلسعها لسعة اخرى ، في ذلك المكان . فقالت العجوز ، قد برئت ، وقد سكن وجعي ولا حاجة بي الى هذا العلاج ، فأتوه بعقرب ، لا والله ان يدرى : أهي تلك أم غيرها ؟ فأمر بها فأمسكت ،فقالت : أنشدك بالله واللبن ، فأبى وارسلها عليها ، فلسعتها ، فغشي عليها ، ومرضت زمانا ، وتساقط شعر رأسها فقيل لسليمان في ذلك ، فقال : يامجانين ، لا والله ان رد عليها روحها الا اللسعة الثانيه ، ولولا هي لقد كانت ماتت " (٧) .

---

(١) الحيوان ، ج ٢ ص ٢١٧ ، تحت عنوان " حديث احمد بن المثنى) .

(٢) المصدر نفسه ، ج٦ ص ١١٩ ، وتزعم العرب ان الضب يعيش طويلا انظر مجمع الامثال للميداني ، ج٢ ص ٢٢٦ ، تحقيق محمدمحيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنه المحمديه ـ القاهره ـ ١٩٥٥ .

(٣) المصدر نفسه ج١ ص ١١١ (٤) المصدر نفسه ، ج٤ ص ١٤٧ .

(٥) غمقه : ثقيله الندى مع سكون الريح

(٦) الحيوان ، ج٥ ص ٣٦٧ . (٧) المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٣٦٨ .

ويبدو في الحكايات العلميه أنّ الجاحظ لا يسيغ ان يصور الحيوان او الطير من خلالها صورة تتجاوز قدراتها كما تبدو في الواقع أو في نطاق الطبيعه (فهو لا يسيغ ان يصورها تتكلم وتتصرف وتفكر في مستوى البشر على النحو الخرافي التعليمي ، الذى كان شائعا في عصره ، كما هو عند استاذيه: ابن المقفع في كليله ودمنه ، وسهل بن هارون في ثعله وعفره والثعلب والنمر ، فالخيال والخرافه هما شيئان لا يناسبان مزاج الجاحظ العالم القاص (ولذلك فهو حين يعرض في بعض كتبه لحكايات كليله ودمنه يسميها الامثال (١) ، وهو اذا اتفق واعجب باسلوب قصصي ما من حكايات الامثال هذه فانه يقتبس الاسلوب فقط ، ثم يخرج بالمضمون الى نطاق الممكن والمعقول ، والى عالم البشر والواقع والمنطق (.

ومثال ذلك حكاية الضب (أبي الحسل) المعروفه ، التي تعد " من ابرع الامثال في القضاء الجاهلي " (٢) ، والتي تصور ثعلبا وارنبا يتخاصمان على تمره ، ثم ينطلقان الى الضب ، ليحكم بينهما ، ولما وصلا قالت الارنب : " يا أبا الحسل (فقال الضب : سميعا دعوت ، قالت : أتيناك لنختصم اليك ، قال : عادلا حكمتما ، قالت : فأخرج الينا ، قال : في بيته يؤتى الحكم ، قالت : اني وجدت تمره ، قال : حلوه فكليها ، قالت : فلطمته ، قال : بحقك أخذت ، قال: فلطمني ، قال : حرانتصر ، قال فاقض بيننا ، قال : قد قضيت " (٣) .

فنحن نجد الجاحظ في احدى حكاياته يستلهم الاسلوب القصصي لهذه الحكاية ، ولكن بعد ان يديرها في نطاق الممكن والمعقول ، أو في مجال القضاء البشرى : " دخل رجل على شريح القاضي ، يخاصم امرأة له ، فقال : السلام عليكم

قال (القاضي) : وعليكم (

قال : اني رجل من أهل الشام ،

قال (شريح) : بعيد ... سحيق ،

قال : واني قدمت الى بلدكم هذا ،

---

(١) الحيوان ، ج٧ ص ٩٢ .

(٢) د. عمر فروج ، العرب في حضارتهم وثقافتهم ، ص ٧٩ ، ط ٢ دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٦٨ .

(٣) الميداني ، مجمع الامثال ، ج٢ ص ٧٢ . تحقيق محمدمحيي الدين عبد الحميد .

قال : خير مقدم ،

قال : واني تزوجت امرأة ،

قال : بالرفاء والبنين ،

قال : وانها ولدت غلاما ،

قال : ليَهْنِك الفارس ،

قال : وقد كنت شرطت لها صِداقها ،

قال : الشرط أملك ،

قال : وقد اردت بها الخروج الى بلدى ،

قال : الرجل أحق بأهله

قال : فاقض بيننا

قال : قد فعلت .. (١) .

---

(١) البيان والتبيين ، ج٤ ، ص ٩٨ .
تحقيق عبد السلام هارون .

الفصل الثالث

حكايات الجاحظ والشكل الفني

* لمحـــة عامـــة

يبدو في حكايات الجاحظ أن اسلوب المعالجه القصصيه ليس واحدا فيها جميعها ، وانما هو على قدر ما من التنوع ، الأمر الذي ينعكس بدوره على الشكل الفني في الحكايات ، بيد أنه مهما يتنوع اسلوب المعالجة القصصية عند الجاحظ ، فاننا نبقى نشعر في الغالب أنه يصدر عن روح فني واحد ، وينبثق من موهبة قصصية بعينها !

وتنوع الاسلوب القصصي في حكايات الجاحظ يعود الى اسباب عده ، من ابرزها : أن الجاحظ لم يكن فيها يحتذى نماذج معينه أو يتقيد بقواعد قصصيه محدده ، وانما يصدر فيها عن موهبته المتميزه الحره ، والذى يساعد على ترجيح ذلك ان حكاياته التي في متناول الدارس هي في معظمها من كتب المرحلة الاخيرة [1]، وهي مرحلة الشيخوخة وكثرة التجارب ، واتساع المعارف عند الجاحظ ، وهي كذلك مرحلة الرغبة عن الشهره ، ومرحلة اعتلال الصحه والابداع ، ومن ثم فاننا نشعر في تلك الحكايات أنه لم يكن له فيها من دافع سوى الاستجابة لالحاح الموهبة الفنية . [2]

كذلك من اسباب تنوع الاسلوب القصصي في الحكايات اختلاف موضوعاتها ، وهي موضوعات من الكثره ، حتى انه يخيل الينا - كما يقول احمد امين - : ان الجاحظ استطاع ان يجعل من كل شيء موضوعا لأدبه أو لحكاياته [3] . ومن ثم يمكن ملاحظة ان تنوع اسلوب المعالجة القصصية يتلاءم غالبا و طبيعة الموضوع المستوحى ، أى أن المضمون في الحكاية الجاحظية يؤدى دوره في تحديد ملامح الشكل ، وآية ذلك ان الحكايات التي تصور الحيوانات والحشرات والطير مثلا ، تميل في الغالب الى

---

(١) من اشهر كتب هذه المرحله ، كتاب الحيوان ، وكتاب البيان والتبيين ، والبخلاء ، ومناقب الترك (انظر كتاب الجاحظ وآثاره للدكتور طه الحاجرى ، ص ٣٠٦ - ٣٨٩ . (٢) مقدمه طه الحاجرى على البخلاء ، ص ٤٣ .

(٣) فيض الخاطر ، ج٧ ، ص ٦٣ .

الى الوصف ، لأن همها أن ترصد الحركات وتصف الأوضاع وتكشف الحقائق [١] . في حين ان الحكايات التاريخيه تميل في الغالب الى الحوار ، لأنها تعنى بتصوير مواقف طريفه أو متأزمه بين شخصيتين أو اكثر [٢] . وأما الحكايات الجنسيه فانها تميل في الغالب الى القصر [٣] ، لأن الجاحظ يميل فيها الى الايحاء ، على حين تميل الحكايات التي تصور حدثا ما الى السرد اكثر من الحوار [٤] .

ولكي نتعرف على شكل الحكايه عند الجاحظ على اختلاف اساليبها المتمايزه ، لا بد أن نتمعن في أهم ملامحها البارزه أولا ، لنتحدث عنها الحديث المفصل .

ثم ان نلقي بعد ذلك على حكايات الجاحظ جميعها نظرة شامله ، لنبدى عليها أهم ما يمكن ان نخرج به من ملحوظات .

أما ابرز ملامح الشكل في الحكايه الجاحظيه فهي :

١) طول الحكايه

تتفاوت حكايات الجاحظ من حيث الطول والقصر ، أما بعضها فقصير جدا ، لا يتجاوز اسطرا قليلة ، وأما بعضها الآخر فطويل قد يستغرق صفحات عدة ، واغلب الظن أن التفاوت في

---

(١) انظر مثال ذلك الحيوان ، ج٣ الحكايات : ص ٣٢ ، ص ٢٤٣ ، ص ٣٤٦

(٢) انظر مثال ذلك البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٣٩٣ ، ص ٣٧٩ ،
، ج٢ ، ص ٢٢٥ ، ص ٢٣٠ ،
تحقيق عبد السلام هارون .

(٣) انظر مفاخرة الجوارى والغلمان الحكايات ، ص٥٦ ، ص ٥٧ ، ص ٥٨ ، ص ٦٣ ، ص ٦٤ ، ص ٦٥ ، (تحقيق شارل بلا) .

(٤) انظر مثال ذلك مناقب الاتراك ، ج١ من رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الحكايات ، ص ٣٩ ، ص ٦٠ ، ص ٨٤ .

حجم الحكاية الجاحظية ، لم يأت اتفاقا ، وانما هو له اسبابه وضروراته ، وتأتي في مقدمة هذه الدواعي والمسوغات طبيعة الموضوع الذى تستلهمه الحكاية ، لأن بعض الموضوعات المستوحاة يقتضي الاطالة في المعالجة القصصية ، وبعضها الاخر يناسبه القصر !

فحكاية التربيع والتدوير مثلا ، وهي اطول حكايات الجاحظ ، حين نتمعن فيها نلحظ ان طبيعة الموضوع التي تدور حوله يقتضي منها ذلك ، وهو موضوع اشبه بمناظرة علمية بين مفكر معتزلي ، وكاتب شيعي ، ويشعرنا الجاحظ في المقدمة ان الحكاية ستطول ، حين يخبر في بدايتها أنه سيسأل خصمه عن مائة مسألة ، يهزأ فيها ليعرف الناس مقدار جهله (١) ، وحكاية تتضمن مائة مسألة فكرية وعلمية ، تعرض لها باسلوب قصصي فني لا بدّ أن تطول، وتشبه حكاية التربيع والتدوير من حيث طبيعة الموضوع حكاية شجاعة التركي والخارجي ، لأن موضوعها ايضا يأخذ طابع المفاضلة والجدل ، ولذلك فالحوار يتصل بين الشخصيات ، حتى يستغرق عدة صفحات . (٢)

وثمة حكايات تتوسط في طولها ، فلا تستغرق سوى صفحات قليلة ، وهي تصور في الغالب أشخاصا يتحدثون عن تجارب طريفة ماضية ، أو عن ظروف عصيبة مرّوا بها .

بيد أن اكثر حكايات الجاحظ يميل الى القصر ، حتى أنه يمكن ان نقول :

ان كثيرا من حكايات الجاحظ هو حكايات الومضة السريعة . (٣)

---

(١) التربيع والتدوير ، ص ٦ ، تحقيق شارل بلا

(٢) مناقب الاتراك ، ج ١ ، ص ٣٩ ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون

(٣) انظر مثال ذلك البيان والتبيين ، ج٢ ، الحكايات : ص ٢٣٠ ، ص ٢٥٩ ، ص ٢٦١ ، تحقيق عبد السلام هارون .

ولعل السبب أن الحكايه القصيره اكثر ملاءمة للنفس البشريه ، فالنفس في رأيه تستثقل الحكايه الطويله ، أو أى شيء يطول عليها مهما يكن حسنا !

اذ يقول : " لا أشك على حال أن النفوس اذا كانت الى قصار الاحاديث أميل وبها أحب ، أنها خليقة لاستثقال الكثير ، وان استحقت تلك المعاني الكثيره ، وان كان ذلك الطويل أنفع ، وذلك الكثير أرد " (١) ، ولذلك يلاحظ أنه في حكاية التربيع والتدوير مثلا ، وقد شعر أنها طويله - لجأ عن عمد الى اساليب متنوعه من شأنها أن تذود الملل عن نفس القارىء (٢) .

وحكايات الجاحظ القصيره تصور في الغالب بعض المواقف الطريفه ، أو الحرجه (٣) ، أو بعض العادات الشاذه (٤) ، أو التصرفات المستهجنه (٥) ، وهي حكايات يبتعد الجاحظ فيها عن الاسهاب والمباشره ، ويعمد الى التركيز والتكثيف والايحاء ، لضيق المجال أمامه ، " كنا في منزل صاحب لنا ، اذ خرج واحد من جماعتنا ، ليقيل في البيت الآخر ، فلم يلبث الا ساعه ، حتى سمعناه يصيح : أوه ، أوه !!

فنهضنا باجمعنا اليه فزعين ، فقلنا له : مالك ؟!

واذا هو نائم على شقه الأيسر ، وهو قابض على خصيته بيده ، (فقلنا) له : لم صحت ؟!

قال : اذا غمزت خصيتي اشتكيتها ، واذا اشتكيتها صحت ،

فقلنا له : لا تغمزها بعد حتى لا تشتكي ،

قال : نعم ان شاء الله تعالى ". (٦)

وتفاوت الحكايه عند الجاحظ من حيث الطول والقصر ، لا يشذ عما يبدو على الحكايه في الادب العربي عامه ، لأنه فيها ايضا " يطالعنا التباين في الطول ، فقد لا تزيد الحكايه على ان تكون طرفه أو نادره ، وقد تطول الى ما يساوى حجم القصه اليوم ". (٧) بيد

---

(١) الحيوان ، ج٦ ، ص ٨ - ٩ . (٢) انظر مجاهرته بذلك في التربيع والتدوير ، ص ٧٤ ، تحقيق شارل بلا .

(٣) انظر مثال ذلك البيان والتبيين ، ج٤ ، ص ٨٩ ، ص ٣٤ . تحقيق عبد السلام هارون . (٤) انظر مثال ذلك الحيوان ، ج٣ ، ص ٣١ - ٣٣

(٥) انظر مثال ذلك الحيوان ، ج٣ ، ص ١٦ ، ص ١٧

(٦) الحيوان ، ج٣ ، ص ٣١ (٧) علي شلش بصمات القصه العربيه على الانتاج الأدبي الاوروبي ، مجلة العربي ، العدد ٢٨٧ - الكويت ١٩٨٢ .

أنه من اللافت حقا في الحكايه الجاحظيه أنها مهما تكن قصيره فانها تظل تنأى عن الاسلوب الاخبارى في ايراد الطرفه ، وتبقى تحمل روح الجاحظ ، واسلوبه ، وتتبدى فيها الملامح القصصيه من حيث البدايه المشوقه والحبكه والنهايه المفاجئه ، القادره على انتزاع الابتسام ، حتى لو كانت الحكايه القصيره لا تتجاوز سطرين أو ثلاثه :

" وقعت بين قوم عربده ، فقام المغني يحجز بينهم ، وكان شيخا معتلا بخيلا ، فمسك رجل بحلقه ، فعصره ، فصاح : معيشتي معيشتي !! فتبسم وتركه " (١) .

---

(١) البخلاء ، ص ٢٠٠ .

٢) بداية الحكاية

شيئان يلفتان الانتباه في بداية الحكايه عند الجاحظ :

الأول اسناد الحكايه ، والثانيه اسلوب البدايه القصصي .

أما اسناد الحكايه فهو يعني أن يبتدئ الجاحظ الحكايه باثبات اسم من رواها له ، مسبوقا بفعل من الافعال التي تفيد معنى الفعل " قص " أو حكى " ، على هذا النحو : " حدثني المكي قال : كان رجل يقود اعمى بكراء ، وكان الاعمى ربما عثر العثرة ، ونكب النكبه فيقول : اللهم ابدل لي به قائدا خيرا منه ، قال : فقال القائد ، اللهم ابدل لي به اعمى خيرا منه " (١) ، وقد يستعمل الجاحظ احيانا الفعل " أخبر " (٢) استعمال الفعل " حدث ": وقد اتصلت به أيضا ياء المتكلم المسبوقه بنون الوقايه ، وهذا يعني - في الظاهر على الاقل - ان الجاحظ سمع مباشره الحكايه ممن رواها !

والجاحظ دقيق في اختيار صيغة الاسناد ، لأنه يستعمل احيانا صيغا لا نستطيع من خلالها أن نقرر : أسمع الحكايه من راويها نفسه أم سمعها من غيره ، أم قرأها قراءة ! وذلك كاستعماله الفعل " قال " في بداية كثير من الحكايات على هذا النحو : " قال أبو عبيده : وبنو ضرار بني ثعلبه بن سعد لما مات أبوهم ... الخ ".(٣)

والجاحظ لا يسمي احيانا من يروى عنه الحكايه ، بل يكتفي بالقول : حدثني بعض أهل العلم (٤) ، أو نحو ذلك ، وثمة حكايات يتصل فيها الاسناد أو يتسلسل ، فيسمي الجاحظ من روى الحكايه له ، ومن حدثها للراوي ايضا ، على هذا النحو : " حدثني ابان بن عثمان قال : قال

---

(١) الحيوان ، ج٣ ، ص ٣١ (٢) انظر مثال ذلك حكاية "احتجاج مدني وكوفي" (الحيوان ،ج٣، ص ١٦)(٣) البيان والتبيين، ج٤، ص ٣٤، تحقيق عبد السلام هارون (٤) انظر حكاية ابن المقفع مع شاب (القول في البخال، ص ٩٩)تحقيق شارل بلا .

ابن أبي ليلى ، اني لاساير رجلا من وجوه الشام .. الخ ".(١)

وكثير من حكايات الجاحظ مسند ، ويبدو أن ثمة عوامل معينة ، كانت تتضافر معا ، فتدفع الجاحظ الى اثبات الاسناد : من أبرزها أن اسلوب الاسناد في الحكاية كان في زمن الجاحظ شائعا في الاوساط الادبية ، وهو تيار متأثر على الارجح باسلوب رواية الحديث ، فعلوم الأدب عامة - كما يرى الدكتور صبحي الصالح - قد تأثرت باسانيد المحدّثين (٢) .

ومنها أن الجاحظ قد عاصر في القرن الثاني بعض كبار أئمة الحديث ، كالشافعي (٣)، وأن له " ناحية اخرى دينيه من ذلك أنه تثقف في الحديث ، فأخذ من بعض رجاله ، وقد ذكر في كتاب الحيوان أنه كان يخرج سحرا في طلب الحديث ، وحكى ما وقع مع عدة كلاب ضخام نبحته في السحر ".(٤) . كما أنه روى الحديث ، فقد " روى عن القاضي أبي يوسف بعض الاحاديث " (٥) ، كذلك يذكر الذهبي في كتاب " ميزان الاعتدال " في لهجة متحاملة أن الجاحظ كان يروى الحديث ، وأن ممن " روى عنه أبو بكر بن أبي داود فيما قيل ، قال ثعلب ، ليس بثقة ولا مأمون ، قلت : وكان من أئمة البدع " (٦)، واذا كان الجاحظ قد اتصل بكبار الرواة والأخباريين في عصره من امثال: أبي عبيده والاصمعي وأبي الحسن المدائني ، وسمع منهم كثيرا من الحكايات . فلا غرابة في أن تغلب عليه طبيعة العالم ، فيسند ما سمع من حكايات الى اصحابها ، ولكن بعد أن يعمل فيها ذوقه وموهبته ، ولذلك تبدو طريقة المعالجة القصصية مختلفه بينه وبينهم ، فهو يرتفع باسلوب الحكايات التي سمعها عن الاسلوب الاخباري الى الاسلوب القصصي (٧) .

---

(١) الحيوان ، ج٣ ، ص ١٧

(٢) علوم الحديث ومصطلحه ،ص ٣١٥ ، ط ٥ - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٩

(٣) د. احمد الحوفي ، الجاحظ ، ص ٢٠

(٤) احمد امين، فيض الخاطر ، ج٤ ، ص ٢٩٢ (٥) المرجع نفسه ، ج٤ ، ص ٢٩١

(٦) ابو عبد الله الذهبي ، ميزان الاعتدال ، ج٣ ، ص ٢٤٧ ، تحقيق علي محمد البجاوى ، دار المعرفه للطباعة والنشر - بيروت (د.ت)

(٧) مقدمة البخلاء ، ص ٢٨ .

وقولنا ان كثيرا من حكايات الجاحظ مسند ، يعني في الوقت نفسه أن ثمة حكايات اخرى يرويها الجاحظ دون اسناد ، واكثر ما يكون ذلك حين يكون الجاحظ نفسه طرفا في الحكايه ، كأن يحكي احدى ذكرياته الماضيه ، نحو : " أنا - حفظك الله - رأيت كلبا مره في الحي، ونحن في الكتاب ، فعرض له صبي ، يسمى مهديا من اولاد القصابين ، وهو قائم يمحو لوحه ، فعض .. الخ (١)

أما الأسلوب القصصي للبدايه ، فسواء أكانت الحكايه مسنده أم غير مسنده فيلاحظ ان الجاحظ يعني به ، ولذلك نجد البدايه في الحكايات تشدنا اليها في الغالب ، وتغرينا بمتابعة القراءه ، ويلاحظ ان اساليب الاستهلال التي يعمد اليها الجاحظ في حكاياته كثيره ومتنوعه ، ويصعب حصرها جميعها ، بيد أنه يمكن ملاحظة اربعة اساليب بارزه بينها يعمد الجاحظ اليها في الكثير من حكاياته .

أما الاسلوب الأول فتبدأ الحكايه من خلاله بدايه متأزمه منذ اسطرها الاولى ، كأن نرى خطرا يحيق بشخصية الحكاية ، فيثور حب الاستطلاع في نفوسنا ، ونأخذ نتساءل : ماذا سيحدث للشخصيه : ستنجو أم سينالها الأذى ؟ ! أي على هذا النحو :

" حدثني أحمد بن المثنى قال : خرجت الى صحراء خوخ لجنايه جنيتها، وخفت الطلب ، وأنا شاب اذ عرض لي ذئب ، فكنت كلما درت من شق استدار بي ، فاذا درت له دار من خلفي ، وأنا وسط بريه ، لا أجد معينا الا بشيء اسند اليه ظهرى ، واصابني الدوار ، وايقنت بالهلكة فبينا أنا كذلك .. الخ ". (٢)

وقد يكون الخطر الذى يقع للشخصيه في بداية الحكايه غامضا، لا نعرف ما هو على وجه التحقيق ، فيبدو اكثر اثارة لحب الاستطلاع (٣). وفي بعض الحكايات التي تبدأ بداية متأزمه قد نتساءل ، فضلا عن " ماذا " حدث أو سيحدث ، " لماذا " وقع الأمر في الاصل وكيف ؟ نحو " أخبرني أبو اسحق ابراهيم بن سيار النظام قال : جعت حتى أكلت الطين ، وما صرت الى ذلك حتى قلبت " قلبي ". (٤) أتذكر هل بها رجل اصيب عنده غداء أو عشاء ، فما قدرت عليه ، وكان علي جبة وقمصان فنزعت القميص الاسفل ، فبعته بدريهمات ... الخ ". (٥)

---

(١) الحيوان، ج١، ص ١١١ (٢) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٢١٧ (٣) انظر مثال ذلك حكاية "حماقة ممرور" الحيوان، ج٣، ص ٣١ (٤) قلبى : اسم مكان بفارس

(٥) الحيوان ، ج٣ ، ص ٤٥١ .

فنحن في مثل هذه البدايه قد نتساءل : لماذا وصلت أوضاع النظام الى هذه الحال البائسه من الجوع والحاجه ، حتى اضطر الى بيع قميصه ، وكيف ؟ ! .

واسلوب البدايه القصصيه المتأزمه الذى يعمد اليه الجاحظ في بعض حكاياته يدل على ان هذه الحكايات في الغالب تقوم في بنائها على الحبكه ، التي يميل الجاحظ في اكثر الاحيان الى الابتداء بها ، ليشد بها انتباه القارئ منذ الكلمات الأولى ويغريه بمواصلة القراءة حتى النهايه .

وأما الاسلوب الثاني فان الحكايه فيه تحمل منذ اسطرها الأولى سؤالا وجوابا ، يستمران بين الشخصيتين المتحاورتين حتى نهاية الحكايه اى على هذا النحو : "خرج صعصعه بن مولجان عائدا الى مكه فلقيه رجل فقال له : ياعبدالله كيف تركت الارض ؟

قال الرجل : عريضه أريضه .

قال صعصعه : انما عنيت السماء ؟ !

قال : فوق البشر ومدى البصر

قال (صعصعه) : سبحان الله ! انما اردت السحاب ؟!

قال : تحت الخضراء ، وفوق الغبراء .

قال (صعصعه) : انما أعني المطر ؟ !

قال : قد عفا الاثر ، وملأ القتر ، وبل الوبر ومطرنا أحيا المطر ،

قال : انسيّ أنت أم جنيّ ؟ !

قال : بل أنسي من أمة رجل مهدى صلى الله عليه وسلم ".(١)

والجاحظ اكثر ما يعمد الى هذا الاسلوب في حكاياته التي تميل الى الحوار ، والتي تصور موقفا من المواقف الطريفة بين شخصيتين تتفاوتان في الغالب من الناحية العقلية أو العلمية ، اذ من خلال براعة الاستهلال بالسؤال والجواب ، واستمرار ذلك دون انقطاع ، وما يثيره التباين والموقف الطريف فينا من اسباب للضحك ، نشعر بأن الجاحظ يشدنا في قوه منذ البدايه حتى النهايه !

---

(١) البيان والتبيين ، ج٤ ، ص ٩٩ ، تحقيق عبدالسلام هارون .

" كان غلام يقعر في كلامه فأتى أبا الاسود الدؤلي ، فقال له أبو الاسود : ما فعل أبوك ؟ قال : أخذته الحمى ، فطبخته طبخا وفتخته (١) فتخا ، وفضخته (٢) فضخا ، فتركته فرخا ، فقال أبو الاسود : فما فعلت امرأته التي كانت تشاره (٣) ، وتماره وتهاره (٤) وتزاره (٥) ؟ !

قال : طلقها وتزوجت غيره ، فرضيت وحظيت وبظيت ،

قال (أبو الاسود) : قد علمنا رضيت وحظيت ، فما بظيت " ؟ !

قال : بظيت حرف من الغريب لم يبلغك ! "

قال (ابو الاسود) : يابني كل كلمه لا يعرفها عمك ، فاسترها كما تستر السنور جعرها (٦) " (٧) .

وأما الاسلوب الثالث فيلاحظ من خلاله أن الجاحظ يعمد في بداية الحكاية الى الالحاح في تصوير حدث عادى ما يقع للشخصيه ، أو في وصف صفه ما تتعلق بها ، حتى يبدو ذلك أشبه بارهاصه توحي أن أمرا طريفا أو غريبا سيقع ، ومثال ذلك بداية هذه الحكايه التي تدور حول قاسم التمار ، احدى شخصيات الجاحظ المشهوره بنهمها ومغامراتها مع النساء " دخل قاسم التمار منزل الخوارزمي النخاس ، فرأى عنده جاريه كأنها جان ، وكأنها خوط بان ، وكأنها جدل عنان ، وكأنها الياسمين نعمة وبياضا ، فقال لها ... الخ ".(٨)

فالالحاح في تصوير جمال الجاريه ، وقد دخل قاسم التمار المشغوف بالنساء يوحي بأن أمرا ما سيقع بينهما !

ومن ثمّ نشعر برغبة لمعرفة ما هو على وجه التحقيق .

---

(١) فتخته : اضعفته

(٢) فضخته : فتته

(٣) تشاره : تعاديه وتخاصمه

(٤) تهاره : تهر في وجهه كما يهر الكلب

(٥) تزاره : تعضه

(٦) جعرها : خرءها

(٧) البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٣٧٩ . تحقيق عبد السلام هارون.

(٨) الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢٦٢ .

وقد يكون الالحاح في الاسناد ، كأن يطنب الجاحظ في وصفه ما من صفات راوي الحكايه له ، حتى تتشوّق لسماع ما سيلقي الينا " حدثني مويس بن عمران ، وكان هو والكذب لا يأخذان في طريق ، ولم يكن عليه في الصدق مؤونه ، لإيثاره له ، حتى كان يستوى عنده ما يضر وما لا يضر ، قال ... الخ ".(١) فالحاح الجاحظ في الاسطر الأولى في تصوير صدق مويس ، يوحي من طرف خفي ان مويسا قد يحدثنا بأمر غريب ؟!

والجاحظ في هذا الاسلوب لا يخيّب ظن القارئ ، اذ انه يأتي في الغالب بما يتوقعه من حدث طريف .

وأما الاسلوب الرابع فتبتدئ فيه الحكايه بحرف الشرط والتفصيل والتوكيد " أمّا " (٢) ، واكثر ما يكون ذلك في الحكايات غير المسنده نحو :

" أما علة خشنام بن هند ، فان خشنام بن هند كان شيخا من الغاليه ، وكان ممن اذا اراد أن يسمى أبا بكر وعمر قال : ... الخ " (٣) ونحو:

" أما علة عبدالعزيز بشكست فان عبدالعزيز كان له مال وكان اذا جاء القواد بغلام .. الخ ".(٤)

واكثر ما يعمد الجاحظ الى هذا الاسلوب في الابتداء حين يقدم في الغالب شخصيه غريبه ، ذات تصرف شاذ ، فالابتداء بالحرف " أما " بكل ما يثيره من انتباه ، تليه كلمه " علة " مضافة الى اسم شخصيه الحكايه ، يثير الفضول ، ويجعلنا نتابع لنعرف تفصيل جواب " أما " ، لنرى في الغالب شخصيه من شخصيات الجاحظ الطريفه ، بيد ان هذا ليس مطردا ، فقد يتصدّر الحرف " أما " الحكايه ، وهي لا تقدم شخصية وانما تحكى تجربة غريبه ،

---

(١) الحيوان ، ج٥ ، ص ٤٦٨

(٢) انظر كتاب مغنى اللبيب لابن هشام ، ج١ ، ص٥٦ ، تحقيق محمدمحي الدين عبد الحميد ، مطبعة المدني ، القاهره (د. ت) .

(٣) الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٠ - ٢١

(٤) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٢٦٠ .

نحو .. أما حديث ثمامه فانه قال : لم أر قط اعجب من اقتتال الفأر ، كنت في الحبس وحدى ... الخ .. (١)

والاساليب الاربعه السابقه هي اساليب البدايه البارزه في حكايات الجاحظ ، بيد أنها لا تنتظم بالضرورة الحكايات جميعها لأن ثمة حكايات عدة ، لا تلتزم في بدايتها بأيّ منها ، ولكن مهما يكن الاسلوب الذى يستهل به الجاحظ الحكايه فيلاحظ عليه أمران في الغالب : الأول أنه يشد ، ويغرى بمتابعه القراءه والثاني أننا لا نستطيع من خلاله أن نستشف كيف ستمضي الحكايه ، أو أن نعرف كيف سيكون منتهاها .

---

(١) الحيوان ، ج٥ ، ص ٢٥٠ .

٣) الاسناد ورأى الجاحظ في الابداع القصصي

قبل ان نمضي بعيدا في محاولة التعرف الى الملامح البارزه في الحكايه الجاحظيه ، يحسن أن نتعرف على رأيَ الجاحظ في الاشخاص الذين يسند اليهم كثيرا من حكاياته ، أكان يوثقهم جميعهم ، أم كان يوثق بعضهم فقط ؟

واذا كان ثمة من لا يوثّقه ، فلماذا يروى عنه الحكايات اذن؟

ان محاولة الاجابة عن هذا التساؤل تكشف في الوقت نفسه عن رأى الجاحظ في الابداع القصصي أكان يحبذه في الحكايه أم كان ينكره في جميع الاحوال ويحاكمه بمعيار الصدق والكذب ؟

من الملاحظ أن ثمة حكايات قليله بعينها ، تحرك الجاحظ فقط ، فتدفعه الى المجاهرة برأيه والتعقيب عليها ، مبينا رأيه في من يروى عنه الحكايه ، والاهداف الخافيه التي قصد من توليدها ، واذا كانت الحكايه التي يعقب عليها دون اسناد ، فحينئذ يعمد الى محاكمتها محاكمة علمية من جميع وجوهها ، ويدور معظم الحكايات التي يعقب الجاحظ عليها حول شخصيات عربية معروفة ، تحاول الحكايات أن تغمزها ومعنى ذلك ان الجاحظ يبدى رأيه فيها ، وفي راويها ، ليظهر ما تنطوى عليه من زيف ، ومن اساءة للحقيقة ، وليبين المقصد الخفي الذى قصده راويها من توليدها ، ومثال ذلك حكاية يرويها الجاحظ عن الهيثم ابن عدى ، تصور الاحنف بن قيس زعيم بني تميم المشهور بالحِلم ، فترسم له صورة جسميه منفره : "روى الهيثم بن عدى عن أبي يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمير قال : قدم الاحنف بن قيس الكوفه مع مصعب بن عمير ، فما رأيت خصله تذم في رجل الا وقد رأيتها فيه ، كان اصْعَل (١) الرأس ، أحجن (٢) الانف ، أغضف (٣) الاذن ، متراكب الاسنان ، اشدق (٤) ، مائل الذقن ، ناتىء الوجنه ، باخق (٥) العين ، خفيف العارضين ، أحنف الرجلين ، ولكنه اذا تكلم جلّىَ عن نفسه " (٦) .

---

(١) اصعل الرأس : دقيقه . (٢) احجن : مقبل الروثه نحو الفم

(٣) اغضف : مسترخ (٤) الاشدق : الواسع الشدق

، المائله (٥) البخق : ان تخسف العين بعد العور

(٦) البيان والتبيين ، ج١ ، ص٥٦ ، تحقيق عبد السلام هارون .

ويعقب الجاحظ مباشره على هذه الصوره الشوهاء التي يرسمها الهيثم للاحنف بقوله : " ولو استطاع الهيثم أن يمنعه البيان لمنعه ، ولولا أنه لم يجد بدا من أن يجعل له شيئا على حال ، لما أقر بأنه اذا تكلم جلّىٰ عن نفسه ، ولكنا نقول ألمثل الاحنف يقال : الا انه اذا تكلم جلّىٰ عن نفسه ... " (١) ، على هذا النحو يسخر الجاحظ من رواية الهيثم بن عدى ، وهي سخريه من يتهمها ويشك فيها .

اذن فكل ما ورد في الحكايه من صفات للاحنف هو محض افتراء،

" واذن فليس عبد الملك بن عمير هو الذى يصف الاحنف ، وانما هو - فيما يرى الجاحظ - الهيثم بن عدى نفسه ، وان اسند القول الى عبد الملك ابن عمير " (٢) . فالجاحظ في موطن آخر من البيان والتبيين يصرّح بأن الهيثم كان غير ثقة ويولّد الحكايات (٣)، كذلك في البخلاء يعقب على حكاية يوردها عن الهيثم بقوله : " وأنا اتهم هذا الحديث لأن فيه ما لا يجوز أن يتكلم به عربي يعرف مذاهب العرب ، وهو من احاديث الهيثم " (٤) .

ونجد الجاحظ المفكر المعتزلي ، يصطنع منهج العالم الشاك حين يعرض لحكاية فيها مساس بشخصيه دينيه عزيزه على قلوب المسلمين ، فهو يحاكم الحكايه محاكمه علميه شامله ، معددا اسماء اشهر مولدي الحكايات في عصره لاغراض تتعلق بمذهبهم الشيعي ، ومعددا ايضا اسماء اشهر الرواه الثقات المأمونين في عصره ، هكذا نرى الجاحظ يفعل مثلا اذ يعرض لهذه الحكايه التي تحاول من طرف خفي أن تمس شخصية السيده عائشه :

" وقع بين حيين من قريش منازعة ، فخرجت عائشه أم المؤمنين ، رضي الله عنها على بغله ، فلقيها ابن أبي عتيق ، فقال : الى أين ، جعلت فداك ؟

قالت : اصلح بين هذين الحيين ! قال : والله ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل ، فكيف ان قيل : يوم البغل ، فضحكت وانصرفت " (٥) .

---

(١) البيان والتبيين ، ج١، ص ٥٦ (٢) الحاجرى تعليقات وشروح على البخلاء ، ص ٤٢١ .

(٣) انظر البيان والتبيين ، ج١ ، ص ١٨٢ .

(٤) الجاحظ ، البخلاء ، ص ٢٢٢

(٥) القول في البغال ، ص ٢٣ ، تحقيق شارل بلا .

والجاحظ بعد ان يورد الحكايه يبدأ أولا بالتنبيه الى ان هذه الحكايه وامثالها مولّده من قبل بعض رواة الشيعه الذين لا يتورعون عن الاساءة الى السيده عائشه ، ثم يبين الجاحظ اساليب هؤلاء الرواه في ترويج امثال هذه الحكايه فيقول : "„ هذا – حفظك الله – حديث مصنوع ، ومن توليد الروافض ، فظن الذى ولدّ هذا الحديث ، أنه اذا اضافه الى ابن ابي عتيق ، وجعله نادره ، وملحة أنه سيشيع ، ويجرى عند الناس مجرى الخبر عن أم حبيبه وصفيّه „" (١) .

ثم يتحول الجاحظ ثانيا الى السيده عائشه ، فيتحدث عن مقدار فضلها ، وعن مدى محبة المسلمين لها فيقول : " ولو عرف الذى اخترع هذا الحديث طاعة الناس لعائشه رضى الله عنها ، لما طمع في جواز هذا عنه ، وقال علي بن ابي طالب – كرم الله وجهه – منيت باربعة : منيت باشجع الناس ، يعني الزبير ، واجود الناس يعني طلحه وانض الناس يعني يعلي بن منبه ، واطوع الناس في الناس يعني عائشه "(٢) .
ثم ينتقل الجاحظ بعد ذلك الى الحكايه نفسها ، فيحللها تحليلا عميقا ، ويثير حولها اسئله علميه عده ، تظهر تهافت ما تضمنته فيقول :

" ومن بعد هذا فأى رئيس قبيل من قبائل قريش ، كانت تبعث اليه عائشه ، رضي الله عنها رسولا ، فلا يسارع ، أو تأمر ، فلا يطيع ، حتى احتاجت أن تركب بنفسها ؟ !

وان شرا يكون بين حيين من احياء قريش تفاقم فيه الأمر ، حتى احتاجت عائشه رضى الله عنها الى الركوب فيه لعظيم الخطر ، مستفيض الذكر ،

فمن هذان القبيلان ؟ !

وفي أى شيء كان ؟ ! وما سببه ؟!
ومن نطق من جميع رجالات قريش مقصده ، وردوا قوله ، حتى احتاجت عائشه فيه الى الركوب ؟
ولقد ضربوا قواديم الجمل ، فلما برك ومال الهودج ، صاح الفريقان : أمكم أمكم ! فأمر عائشه اعظم ، وشأنها اجلّ عند من يعرف اقدار الرجال والنساء ، من ان يجوّز مثل هذا الحديث المولّد " (٣) .

---

(١) القول في البغال ، ص ٢٤
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٤ – ٢٥ .

ثم ينتقل الجاحظ بعد ذلك الى الاسناد ، فيبين أهميته للحكايه ، لأن من خلاله يعرف مذهب راويها ، وميوله الدينية والسياسية ، ومن ثم يعرف مقصده من توليد الحكايه فيقول : "والحديث ليس له اسناد ، وكيف وابن ابي عتيق شاهد في المدينة ولم يعلم بركوبها ، ولا بهذا الشر المتفاقم بين هذين القبيلين ؟!

ثم ركبت وحدها ؟! ولو ركبت عائشه ، لما بقي مهاجري ولا انصاري ولا أمير ولا قاض الا ركب ؟!

فما ظنك بالسوقه والحشوه وبالدهماء والعامه ؟ " (١) .

ثم يشير الجاحظ بعد ذلك الى بعض الرواة والأخباريين المتشيعين، الذين كانوا غير موثوقين ولا مأمونين في عصره ، فيحذّر من الحكايات التي كانوا يروونها ، وتتعلق باخبار الصحابة ، مبينا اساليبهم في توليد هذه الحكايات ، وطرق اشاعتها بين الناس فيقول:

" وما هو الاّ أن ولد أبو مخنف حديثا ، أو الشرقي بن القطامي، والكلبي وابن الكلبي ، أو لقيط المحاربي أو شوكر ، أو عطاء الملط ، أو ابن دأب ، أو ابو الحسن المدائني ، ثم صوّره في كتاب ، والقاه في الوراقين ، وهؤلاء كلهم يتشيعون " (٢) .

وهنا لنا ملاحظه ، وهي أنّ الجاحظ يروى عن اثنين من هؤلاء الشيعه الذين كانوا غير مأمونين ، ويولدون الحكايات ، أما الاول فهو ابو الحسن المدائني ، الذى يلاحظ ان الجاحظ يروى عنه حكايات عده ، دون ان يعقب عليها بشيء ، بل يبدو من خلالها أنه يستحسنها . ويلاحظ أنّ هذه الحكايات المروية قد قصد بها الى الادب وحده ، دون ان تتعرض من قريب أو بعيد لأية شخصية عربيه (٣) .

---

(١) القول في البغال ، ص ٢٥

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥

(٣) انظر مثال الحكايات المرويه عن ابي الحسن المدائني ، البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٣٧٩ ، ص ٣٩٣ ، ج٤ ، ص ٨٩ ، تحقيق عبد السلام هارون .
وانظر الحيوان ، ج٣ ص ١٧٠ ، ١٧١ .

وأما الثاني فهو الشرقي بن القطامي ، فقد روى الجاحظ عنه مثلا حكايته الشهيره " الفتى التغلبي وعصاه " (١)، وهذا الأمر يدعو الى التساؤل : لماذا يروى الجاحظ الحكايات الأدبيه احيانا عن أبي الحسن المدائني والشرقي بن القطامي والهيثم بن عدى (٢) دون ان يتنكرها أو يعقب عليها، بل يبدو من خلال اختياره لها، أنه استحسنها واعمل ذوقه وموهبته فيها ، بينما يروى عنهم في احيان اخرى حكايات معينه ، فيحاكمها بمعيار الصدق والكذب ، ويكشف ما تنطوى عليه من اساءة خفية للعرب ؟!

لعل الجواب هو ان الجاحظ كان يفرق بين الحكايه المولده الخالصه لوجه الأدب ، وبين الحكايه المولده غير الخالصه ، التي يقصد بها الى تشويه حقيقة من الحقائق !

فالحكاية غير الخالصه ينبغي محاكمتها بمعيار الحقيقة التاريخية ، لاظهار ما تنطوى عليه من زيف ، على نحو ما فعل في حكايتي الاحنف والسيده عائشه !

وأما الحكاية الخالصة للأدب فان الجاحظ لا يتعرض لها من حيث الصدق والكذب فهو اما ان يوردها دون ان يعقب عليها في اكثر الاحيان ، واما أن يبدى رأيه قصصيا فيها ، فيثني على عملية الابداع الأدبي ، أو ينتقده ، يصدر في ذلك عن ذوقه الفني الخاص ، وعن مذهبه القصصي الذى يستحسنه .

فهو في البيان والتبيين مثلا يورد حكاية تقول : " أن امرأة مرّت بمجلس من مجالس بني نمير ، فتأملها ناس منهم ، فقالت : يابني نمير ، لا قول الله سمعتم ، ولا قول الشاعر أطعتم ، قال الله تعالى " قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم "

وقال الشاعر :

فغض الطرف انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا " (٣) .

ثم نراه بعد ذلك يعقب عليها ، فيشير الى ان الحكايه مولده ، ثم يسوق رأيه بعباره مسبوقه بأداة التوكيد " لقد " بأن هذا النحو من التوليد القصصي الذى في الحكاية حسن ، يقول الجاحظ معلقا

---

(١) البيان والتبيين ، ج٣ ، ص ٤٥ ، تحقيق عبد السلام هارون

(٢) انظر مثال الحكايات المرويه عن الهيثم بن عدى في البيان والتبيين ، ج٢ ، ص ٢٦١ ،ص ٢٦٣ ، تحقيق عبد السلام هارون.

(٣) البيان والتبيين ، ج٤ ، ص ٣٦ ، تحقيق عبد السلام هارون .

على الحكايه : " وأخلق بهذا الحديث ان يكون مولّدا ، ولقد احسن من ولّده " (١).

وهو حين يورد حكاية ، لا يعجبه اسلوب المعالجه القصصيه فيها ، نراه يوجه اليها النقد من الناحيه القصصيه فقط ، نحو حكاية تدور حول رجل مقتر جدا ، يعاني اتباعه من شحه الشديد ، حتى اذا مات ، وظنوا انهم استراحوا منه ، ظهر ابن له بغتة " فاستولى على ماله وداره ، ثم قال : ما كان أدم أبي ، فان اكثر الفساد انما يكون في الأدام ؟

قالوا : كان يتأدم بجبنة عنده !

قال : أرونيها ، فاذا فيها حز كالجدول من أثر مسح اللقمه ،

قال : ما هذه الحفره ؟ !

قالوا : كان لا يقطع الجبن ، وانما كان يمسح على ظهره ، فيحفر كما ترى ،

قال : فهذا أهلكني ، وبهذا اقعدني هذا المقعد ، لو علمت ذلك ما صليت عليه ،

قالوا : فأنت كيف تريد ان تصنع ؟

قال : اضعها من بعيد فاشير اليها باللقمه ". (٢)

ويعقب الجاحظ على الحكايه مباشره فيجاهر بأن الجنوح الى المبالغه على ذلك النحو لا يعجبه ، يقول " ولا يعجبني هذا الحرف الاخير لأن الافراط لا غاية له " (٣)

ثم يصرح بعد ذلك تصريحا واضحا بالنهج القصصي الذى يعجبه في سرد الحكايات أو ابداعها ، فيقول : " وانما نحكي ما كان في الناس وما يجوز أن يكون فيهم مثله " (٤) ، فنهجه القصصي اذن هو نهج واقعي اجتماعي " ما كان في الناس ".

وأما مذهبه في ابداع الحكايه فهو لا يقتصر على نقل واقع الناس ، وانما يتعدى ذلك الى توليد ما يمكن ان يقع لهم ايضا ، يساعدنا في تقرير

---

(١) البيان والتبيين ، ج٤ ، ص ٣٦

(٢) البخلاء ، ص ١٣١ - ١٣٢

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٢

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٢

ذلك - فضلا عن تحرى الدقه اللغويه في استعماله الفعل " نحكي "(١)، قوله : " وما يجوز ان يكون فيهم مثله " ، فالفعل " يجوز " يعني ان الجاحظ يرى ان الابداع القصصي الواقعي لا يقتصر فقط على خلق ما يشبه الواقع الفعلي للناس ، وانما يتجاوزه الى خلق ما يمكن ان يحدث لهم ايضا في الواقع ، ضمن اطار المنطق والممكن .

هذا هو مذهب الجاحظ في الابداع القصصي وهو مذهب لا يسيغ المبالغه أو الخيال ، وهذا يعني في الوقت نفسه ان الجاحظ كان يحبذ الابداع الأدبي للحكايه ، ولا يرى بأسا في توليدها ، شريطة أن يكون ذلك خالصا لوجه الأدب والامتاع ، بريئا من محاولة الاساءة الى شخصية من شخصيات العرب ، أو محاولة تشويه حقيقة ما من الحقائق .

---

(١) في القاموس : حكيت فلانا ، وحاكيته شابهته وفعلت فعله ، أو قوله سواء ، وحكيت عنه الكلام حكايه نقلته ، انظر القاموس المحيط ، للفيروزبادى ، ج٤ ، ص ٣٢ .
والجاحظ يقول نحكي ما كان في الناس ، ولا يقول نحكي عن الناس .

٤) التصوير ورسم الشخصيات

للجاحظ اسلوبه الخاص في التصوير ورسم الشخصيات فهو من الناحية التعبيريه " لا يلجأ كما يفعل الكثيرون الى تلمس التشبيهات والاستعارات يستعين بها في تصوير الذى يريد أن يصفه أمام القارىء " (١) ، وانما يعمد الى اسلوب بسيط مرسل ، قريب العبارات والمعاني ، بعيد عن التعقيدات البلاغيه ، وهذا الاسلوب البسيط الحي يعد في رأى توفيق الحكيم مثلا طيبا للنثر التصويرى في عصور الحضارة العربية (٢) وفي القديم وصف بديع الزمان الهمذاني اسلوب الجاحظ وصفا صحيحا ، وهو يحاول ذمّه بخلوه من المحسنات البديعيه ومن غريب اللفظ !(٣) .

وأما من حيث الاسلوب القصصي فللجاحظ طريقته الخاصه في التصوير، النابعة من صميم شخصيته الأدبيه المتميزه ، فهو حين يحاول أن يصور شيئا ما ، سواء أكان معنويا أم حسيا ، يلاحظ أنه يلح في اثناءذلك الحاح من ينشد الأبدع ملمحا من الشيء المصور ، فيكرر العبارات ، حتى يتناول ما يصوره من جميع الوجوه ، فلا يغادره الا وقد اطمأن الى أنه اصبح واضحا للعيان ، ويلاحظ الدكتور عمر فروخ أنّ اسلوب الجاحظ في رسم الصور خلال الحكايه هو اسلوب " حسي مادي ' فهو يحرص على استعمال الكلمات التي تقرب الصور الحسيه من الذهن ، ولو كانت قريبة من العاميه " (٤) ، واغلب الظن أن هذا الكلام غير دقيق على اطلاقه ، فالأمر يعتمد على الصوره التي يشرع الجاحظ بنقلها أهي صوره معنويه أم حسيه ؟ فاذا كانت الصوره معنويه ، فيلاحظ ان الجاحظ يأخذ يكرر ويعيد صورا جزئيه معنويه ، نحو الصوره التي يرسمها لحال رجل القي في بئر ، وقد عادت اليه الحياة في آخر لحظه ، بعد ان كاد يختنق لولا أنه أنقذ : " فتنفس ، وردت اليه الروح ، وقد كاد يموت ،ولم يبق منه الا حشاشه " (٥) .

---

(١) طه الحاجرى ، مقدمه البخلاء ، ص ٤٩ (٢) فن الادب ، ص ٢٨

(٣) مقامات بديع الزمان ، ص ٧٢ - ٧٣ ، شرح الشيخ محمد عبده ، وانظر تعليق الشيخ محمد عبده على وصف بديع الزمان لاسلوب الجاحظ، فهو يعده قد مدحه في حين اراد ذمه (ص ٧٢ - ٧٣ - الهامش)

(٤) تاريخ الادب العربي ، ص ٣١٧ (٥) الحيوان ، ج٢ ، ص ١٢٢ .

وأما اذا كانت الصوره التي يشرع يرسمها حسيه ، فان الجاحظ حينئذ يكرر ويعيد معاني وصورا جزئيه حسيه ، نحو تصويره لتطلب القاضي عبد الله بن سَوَّار في جلسته ، فهو كان " يأتي مجلسه ، فيحتبي ولا يتكيء ، فلا يزال منتصبا لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حُبوته (١) ، ولا يحول رجلا عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء مبني ، أو صخرة منصوبه " (٢) أو تصويره جمال جاريه بقوله :

" كأنها جان،وكأنها خوط بان ، وكأنها جدل عنان ، وكأنها الياسمين نعمةً وبياضاً " (٣) ، أو نحو وصفه لأنف رجل قبيح " كان اقبح خلق الله تعالى أنفا ، حتى كان أقبح من الاخنس ، ومن الافطس والاجدع "،(٤) واذا كان الشيء الذى يود الجاحظ ان يصوره لا يحتمل اسلوب التكرار والالحاح في رسم الصوره ، لان الصوره تقوم على حركة واحده بعينها ، فان الجاحظ عندئذ يشعر بعجز القلم عن ابراز الصوره ، كما في حكايته عن أبي جعفر الطرسوسي اذ يقول : " ولم أر مثل أبي جعفر الطرسوسي ، زار قوما فأكرموه ، وطيبوه ، وجعلوا في شاربه وسبلته غاليه ، فحكته شفته العليا فادخل اصبعه ، فحكها من باطن الشفه ، مخافة أن تأخذ اصبعه من الغاليه شيئا ، اذا حكها من فوق " (٥) .

ثم يعقب الجاحظ على الحكايه بما يشبه الاعتذار عن عجز القلم عن رسم الصوره ، فيقول : " وهذا وشبهه ، انما يطيب جدا ، اذا رأيت الحكايه بعينك ، لأن الكتاب لا يصور كل شيء ولا يأتي لك على كنهه وعلى حدوده وحقائقه " (٦) .

وتتبدى موهبة الجاحظ التصويريه اكثر وضوحا في تصوير الشخصيات ، حتى انه يمكن القول : ان كثيرا من حكايات الجاحظ هي في المقام الاول حكايات شخصيات ، ونلمح في هذه الشخصيات شيئين :

الأول - أنها كثيرة التنوع والتمايز والتفاوت ، اذ ان من بينها شخصيات لخلفاء وأمراء وقضاة ، وشخصيات لمعلمين واخباريين ومعتزله وشيعه واباضيين وبخلاء ومكدين ولصوص ولاطة وحمقى ، وفتيان وكناسين وحمالين .

---

(١) الحبوه : ان يجمع بين ظهره وساقيه بعمامه ونحوها

(٢) الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٤٣ (٣) المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٢٦٢

(٤) المصدر نفسه ، ج٦، ص ٢٦٣ (٥) البخلاء ، ص ٥٨

(٦) المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

وشخصيات الجاحظ على تنوعها وتفاوتها الاجتماعي تبدو في الغالب منتزعه من الواقع أو البيئه التي كان يعيش فيها الجاحظ ، حتى أنها تبدو نابضه بالحياه .

وأما الشيء الثاني - الذي يُلمح في حكايات الشخصيات ، أن الجاحظ يقدم فيها اكثر الاحيان شخصيات غريبه في سلوكها أو تفكيرها أو معتقدها .

ولكن ضمن اطار الواقع والممكن ، حتى ان القارئ يظل يشعر - كما يقول الدكتور محمد الصادق عفيفي - : ان شخصيات الجاحظ " هم ناس من مخلوقات الله لا من مبتدعات الخيال ، فهم ما بين قاض أو عالم أو تاجر أو غزّال او صانع أو مغن أو اعرابي !

ومن سكان البصره أو بغداد أو خراسان أو الباديه " (١)

وللجاحظ طريقتان في تصوير شخصياته :

الاولى - ويهتمّ فيها برسم جانب بارز من جوانب المظهر الخارجي للشخصيه ، وهو حين يفعل ذلك ، يلاحظ أنه يعطي رأيه فيها ، فيصفها باوصاف مباشره ، بيد أنه حين يصف المظهر الخارجي للشخصيه لا يعنى بتصوير ملامحها الجسميه الدقيقه ، وانما يعنى في الغالب برسم القسمات الرئيسيه أو العلامات الفارقه ، مستعينا على ذلك بقدر من الايحاء ، وذلك لضيق المجال أمامه ، بسبب ميل حكاياته في الغالب الى القصر ، والصورة التي يرسمها الجاحظ للشخصيه من خلال هذه الطريقه ، لا تبدو غائمه عائمه في الغالب وانما تبدو خاصة متميزه من غيرها ، فهو لا يغفل عن الايحاء بملامحها الداخليه أو النفسيه ، وذلك من خلال السلوك أو القول ، ومن ثمّ فان ما يرسمه من ملامح خارجيه للشخصيه ، وما يوحي به من ملامحها الداخليه ، يتضافران معا في النهايه ، لتنطبع لها في الذهن صورة ما نشعر بتفردها وخصوصيتها ، ولنأخذ مثالا على ذلك الصوره التي يرسمها لشخصية القاضي عبد الله بن سَوَّار ،(٢)

وهي من ابرز الشخصيات التي اهتمّ الجاحظ في اثناء رسمها بمظهرها الخارجي.

فأجاد في ذلك ، حتى ان قارئ حكاياته لا ينساها في سهوله ، وذلك لغرابتها ، وشعوره بخصوصيتها وتميزها من غيرها !

على الرغم من ان الجاحظ لا يعني خلال تصويرها برسم الملامح الدقيقة للشكل أو للجسم ، وانما هو يعني فقط بتصوير الوضع الفريد الذى ينتهجه القاضي في جلوسه ، اذا ما أخذ مكانه بين اصحابه .

---

(١) نموذج البخيل في الادب العربي والادب الفرنسي ، ص ١٠٣ .

(٢) هو عبد الله بن سوار البصرى العنبرى (هامش الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٤٦).

ويبدأ الجاحظ الحكايه بتقديم صوره للشخصيه على هذا النحو:

" كان لنا بالبصره قاض يقال له : عبد الله بن سَوَّار ، لم ير الناس حاكما قط ، ولا زِمِّيتا (١)، ولا رَكينا (٢) ، ولا وقورا حليما ، ضبط من نفسه وملك من حركته ، الذى ضبط وملك " (٣) ، وبعد هذا الاسلوب المباشر في التقديم ، يعمد الجاحظ الى تصوير وضع القاضي الغريب في الجلوس دونما حركه ، وهو وضع لا تشاركه فيه أية شخصيه من شخصيات الجاحظ الاخرى ، ولذلك فهو لشخصية القاضي اشبه بالعلامه الفارقه ، " كان يصلي الغداة في منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه ، فيحتبي ، ولا يتكىء فلا يزال منتصبا، لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حُبْوته (٤) ، ولا يحول رجلا عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء مبني، أو صخره منصوبه ، فلا يزال كذلك ، حتى يقوم الى العصر ، ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب (٥) ، ثم ربما عاد الى مجلسه ، بل كثيرا ما كان يكون ذلك ، اذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ، ثم يصلي العشاء الأخيره ، وينصرف ، فالحق يقال : لم يقم في طول تلك المده والولايه مره واحده الى الوضوء ، ولا احتاج اليه ، ولا شرب ماء ، ولا غيره من الشراب ، كذلك كان شأنه في طوال الأيام ، وفي قصارها ، وفي صيفها ، وشتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يده ، ولا يشير برأسه ، وليس الا أن يتكلم ، ثم يوجز ، ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيره ". (٦)

أغلب الظن أنه لم يسمع بقاض أو بغير قاض ، كان يجلس على هذا النحو الغريب الذى كان يجلسه عبد الله بن سَوَّار ، ومن ثمّ فإن اهتمام الجاحظ في التصوير بهذا الجانب النادر الذى يتبدى في الشخصيه ، هو الذى يخرجها من دائرة العموم الى الخصوص ، ويعطيها سمه متميزه ، نتذكرها مقرونه بشخص واحد دون غيره ، هو القاضي عبد الله بن سوار .

---

(١) الزِّميت : العظيم الوقار

(٢) الركين : الرزين

(٣) الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٤٣

(٤) الحبوه : ان يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها

(٥) لاحظ كيف يلح الجاحظ في رسم صورة لاصرار القاضي على أخذ وضعه الخاص في الجلوس ، المره تلو المره فقد كرر " ولا يزال كذلك " ثلاث مرات متتاليات .

(٦) الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٤٦ .

واذا كان الجاحظ يصور الوضع الغريب لجلوس القاضي أبن سوار تصويرا يشبه شيئا ما التصوير الكاريكاتورى ، فان هذا الاسلوب في رسم الشخصيات من الخارج اكثر ما يتجلى عند الجاحظ في رسم شخصية اخرى هي شخصية احمد بن عبد الوهاب ، لأن الدارسين المحدثين الذين تناولوا حكايته ، يكادون يجمعون على أنه من خلالها ابتدع اسلوبا فريدا في تصوير الشخصيات تصويرا هزليا على صعيد الادب العربي ، تبعه فيه بعض الادباء فيما بعد مثل ابن زيدون في رسالته الهزليه (١) .

ويصف بعض الدارسين اسلوب الجاحظ في تصوير شخصية احمدبن عبد الوهاب بأنه اسلوب تصوير " كاريكاتورى " (٢) .

واذا كان احمد أمين يرى أن الجاحظ ابتدع في حكاية التربيع والتدوير اسلوبا جديدا في التصوير الهزلي على صعيد الادب العربي فقط ، فانّ توفيقًا الحكيمَ يذهب الى ابعد من ذلك ، اذ انه يعد الجاحظ أول من ابتدع فن " الكاركاتور " الكتابي على صعيد الادب العالمي كله ، فهو في رأيه قد سبق " رابليه " في الاحلام المضحكه ، و " ابراسم " في تمجيد الحماقه " يقول : " خيل الى وأنا أقرأ التربيع والتدوير للجاحظ أنه يصنع فنا طريفا في زمانه ، دون أن يدرى ، فقد اراد أن يصف رجلا يعرفه ، ويتهكم عليه ، فأمسك بالقلم ، وخط له صوره ، لو كانت بالرسم لا بالبيان ، لاطلق على عمله الآن اسم الكاريكاتور ". (٣)

ويبين الحكيم بعد ذلك ان كاريكاتور الرسم قديم عرفه اليونان والهنود والمصريون القدامى ، ثم يقول :

" واذا صدق ظني فالجاحظ اذن من اسبق الكتاب الى التصوير الكاريكاتورى، لقد ظهر قبله بالطبع كثير من الهجائين ، شعراء كانوا أو ناثرين، ولكني اعتقد ان الهجاء شيء والكاريكاتور شيء آخر ". (٤)

---

(١) احمد أمين ، فيض الخاطر ، ج٧ ، ص ٢٢٠

(٢) انظر كتاب محمد عبد المنعم خفاجي " ابو عثمان الجاحظ ، ص ٣٤٢ ،
وكتاب شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ،ص ١٠١،ص ١١٤
وكتاب علي ابو ملحم في الادب وفنونه ، ص ١١٤ .

(٣) فن الأدب ، ص ٣٥ (٤) المرجع نفسه ، ص ٣٥.

وقبل ان نعرض لصورة احمد بن عبد الوهاب ، كما رسمها يراع الجاحظ ، يحسن ان نلتفت فيها الى أمرين رئيسيين :

الأول - ان شخصية احمد بن عبد الوهاب هي من شخصيات الجاحظ القليلة ، التي عني فيها عناية مفصلة برسم ملامح الجسم من الخارج ، فضلا عن عنايته برسم الملامح النفسيه والذهنيه للشخصيه من الداخل.

والثاني - هو ان شخصية ابن عبد الوهاب هي الشخصية الوحيدة التي رسمها الجاحظ من خلال رؤيتين متناقضتين : رؤية احمد بن عبد الوهاب لنفسه ورؤية الجاحظ له ،وكلتا الرؤيتين في اغلب الظن تبتعد عن حقيقة الشخصية المرسومة بقدر ما ، فاحمد بن عبد الوهاب ينظر الى جسمه وعلمه من منظار الاعجاب ، حتى ان عيوب جسمه تبدو لعينيه آيات من الحسن ، وجهل فكره الشديد يحسبه فيض غزارة في العلم !

وأما الجاحظ فينظر الى خصمه من منظار الساخر الذى ينقب عن العيوب ويضخمها ، ويبالغ في ابراز التنافر أو عدم الاتساق بين اعضاء الجسم ، مما يثير الاستهجان والضحك !

والجاحظ يبدأ أولا بتصوير ملامح الجسم ، من خلال الرؤيتين المتناقضتين على هذا النحو : "كان احمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعا ، وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدورا ! وكان جعد الاطراف ، قصير الاصابع ، وهو في ذلك يدعي السباطه والرشاقه ، وأنه عتيق [1] الوجه ، اخمص البطن ، معتدل القامه ، تام العظم ، وكان طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه ، يدعي أنه طويل الباد ، رفيع العماد ، عادي القامه ، عظيم الهامه ، قد اعطي البسطه في الجسم ، والسعة في العلم ، وكان كبير السن متقادم الميلاد ، وهو يدعي انه معتدل الشباب حديث الميلاد [2] ، على هذا النحو يمضي الجاحظ يصور جسم احمد بن عبد الوهاب تصويرا نشعر أنه لا يريد منه الهجاء بقدر ما يريد اضحاكنا ، وهذا هو روح فن الكاريكاتور [3] ، ثم ينتقل الجاحظ بعد تصوير جسمه الى تصوير

---

(١) عتيق الوجه : جميله

(٢) التربيع والتدوير ، ص ٦ . تحقيق شارل بلا

(٣) توفيق الحكيم ، فن الأدب ، ص ٣٦ - ٣٧ .

الملامح النفسيه والفكريه ، وذلك من خلال الرؤيتين المتناقضتين ايضا ، وان كنا نشعر هنا أن رؤية الجاحظ الساخر هي الطاغيه " وكان ادعاؤه لاصناف العلم ، على قدر جهله بها ، وتكلفه للابانة عنها على قدر غباوته فيها ، وكان كثير الاعتراض ، لهجا بالمراء ، شديد الخلاف ، كلفا بالمجاذبه ، متتابعا في العنود ، مؤثرا للمغالبه ، مع اضلال الحجه ، والجهل بموضع الشبهه ، والخطرفه عند قصر الزاد ، والعجز عن التوقف والمحاكمه ، مع الجهل بثمرة المراء ، ومغبة فساد القلوب ، ونكد الخلاف ، وما في الخوض من اللغو الداعي الى السهو ، وما في المعانده مع الاثم الداعي الى النار ، وما في المجاذبه من النكد ، وما في التغالب من فقدان الصواب ، وكان قليل السماع غُمْرا ، وصحفيا غفلا ، لا ينطق عن فكر ، ويثق بأول خاطر ، ولا يفصل بين اعتزام الغمر ، واستبصار المحق ، يعد اسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب ، وليس في يده من جميع الآداب الا الانتحال لرسم الأدب " (١) .

والشخصيات التي يرسمها الجاحظ من الخارج ، ويعطي رأيه المباشر فيها - كما في شخصيتي القاضي عبدالله بن سوار والكاتب احمد بن عبدالوهاب - قليلة جدا ، ومنها شخصية عيسى بن مروان ، زير الغواني (٢) ، فالجاحظ في بداية الحكايه يهتم بتصوير جانب من مظهره ، وما يعمد اليه من سلوك لاجتذاب النساء ، وهو خلال ذلك يهتم في تصويره بعلامة فارقه في ملامح الشخصيه ، تميزها من غيرها ، وهي القبح الغريب في الانف ، مما يخرجها من دائرة العموم الى الخصوص .(٣)

أما الطريقة الثانية في رسم الشخصيات فهي طريقة رسم الشخصيه من الداخل فقط دون ابداء أي رأي مباشر فيها ، ويلاحظ ان الجاحظ يؤثر هذه الطريقة في رسم اكثر شخصيات حكاياته ، وهو في هذه الطريقة يعتمد في رسم الشخصية على تصوير جانب من سلوكها وطريقة تفكيرها ، وعلى

---

(١) التربيع والتدوير ، ص ٥ - ٦

(٢) الاصل في الكلمه (زير) كل من يجب زياره النساء يقول الجاحظ " ويسمى المولع بذلك من الرجال الزير "

انظر كتاب القيان ، ص ١٤٨ . تحقيق عبدالسلام هارون .

(٣) انظر الحكايه في الحيوان ، ج٦ ، ص ٢٦٣ .

الايحاء في الغالب ، وايثار الجاحظ لهذه الطريقة ربما يعود الى اهتمامه بجوهر الانسان اكثر من مظهره ، فهو شغوف بملاحظة النفس الانسانية وتعقيداتها ، وبتصوير التصرفات الشاذه التي تصدر عنها احيانا ، دون ان تستطيع تسويغ ذلك حين تسأل ! (١)

وفي هذه الطريقة التي يتبعها الجاحظ في رسم اكثر شخصياته تتبدى مقدرته على استبطان النفس الانسانيه ، وتصوير منازعها !

ولنأخذ مثالا على ذلك شخصية أبي كعب القاص ، وهي من اطرف شخصيات الجاحظ التي صور من خلالها عبث بعض القُصّاص في زمانه ، فحين نتمعن في ملامح الشخصيه من خلال الحكايه نلحظ أنه يرسمها من الداخل فقط ، دون ان يعرض لمظهرها الخارجي ، أو يصفها وصفا مباشرا ، مثلما فعل في شخصيتي عبد الله ابن سوار واحمد بن عبد الوهاب مثلا ، وانما هو يترك القارىء يستشف ملامحها النفسيه والفكريه الداخليه بنفسه ، وذلك من خلال عرض ما يصدر عنها من فعل أو قول أو تفكير ، في موقف ما من مواقفها ، على هذا النحو :

" تعشى أبو كعب القاص بطفشيل (٢) كثير اللوبيا واكثر منه ، وشرب نبيذ تمر ، وغلّس الى بعض المساجد ، ليقص على أهله اذا انفتل الامام عن الصلاه ، فصادف زحاما كثيرا ، ومسجدا مستورا بالبوارى (٣) من البرد والريح والمطر ، واذا محراب غائر في الحائط ، واذا الامام شيخ ضعيف ، فلما صلى استدبر المحراب ، وجلس في زاويه منه يسبّح ، وقام أبو كعب ، فجعل ظهره الى وجه الامام ، ووجهه الى وجوه القوم ، وطبّق وجه المحراب بجسمه وفردته ، وعمامته وكسائه ، ولم يكن بين فقحته ، وبين أنف الامام كبير شيء ، وقصّ ، وتحرك بطنه ، فأراد أن يتفرّج بفسوة ، وخاف ان تصير ضراطا ، فقال في قصصه : قولوا جميعا ، لا اله الاّ الله ، وارفعوا بها اصواتكم ، وفسا فسوة في المحراب ، فدارت فيه ، وجثمت على أنف الشيخ ، واحتملها !

ثم كدّه بطنه فاحتاج الى اخرى ، فقال : قولوا لا اله الاّ الله ، وارفعوا بها اصواتكم ، فأرسل فسوه اخرى ، فلم تخطىء أنف الشيخ ، واختنقت في المحراب ، فحمّر الشيخ انفه ، فصار لا يدرى ما يصنع ؟ ان هو تنفس قتلته الرائحه ، وان هو لم يتنفّس مات كربا ، فما زال يداري ذلك ، وأبو كعب يقص ، ولم يلبث أبو كعب ان احتاج الى اخرى وكلما طال لبثه تولّد في بطنه من النفخ على حسب ذلك ، فقال : قولوا جميعا لا اله الا الله ، وارفعوا

---

(١) انظر حكايته مع الحارس ابي خزيمه (الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٨) (٢) طفشيل : نوع من المرق والاطعمه ، التي تنضج في التنور (٣) البوارى : الحصر .

بها اصواتكم ، فقال الشيخ من المحراب ، واطلع رأسه : لا تقولوا ، لا تقولوا !

قد قتلني ، انما يريد أن يفسو ، ثم جذب اليه ثوب أبي كعب ، وقال : جئت الى هاهنا لتفسو أو لتقص ؟

فقال (ابو كعب) : جئنا لنقص ، فاذا نزلت بلية ، فلا بد لنا ولكم من الصبر ، فضحك الناس ، واختلط المجلس ".(١)، فالجاحظ كما رأينا ، لم يشر أدنى اشاره الى المظهر الخارجي للقاص ابي كعب ، كذلك لم يبد رأيه الخاص فيه ، ولم ينعته ، فلم يقل مثلا : ان أبا كعب كان قاصا مستهترا أو ماجنا أو نحو ذلك ، وانما اكتفى بتصوير جانب من سلوكه في لحظة من اللحظات ، وتزداد شخصية أبي كعب في الذهن وضوحا ، حين يتبع الجاحظ الحكايه السابقه بحكاية قصيرة اخرى عنه ، تلقي مزيدا من الضوء على ملامح شخصية القاص ، متبعا فيها نهجه السابق ايضا ، من حيث الاكتفاء فقط بتصوير ما يبدر عنه ، دون مباشره ، على هذا النحو : " وأبو كعب هذا ، هو الذى كان يقص في مسجد عتّاب كل اربعا ، فاحتبس عليهم في بعض الايام ، وطال انتظارهم له ، فبينما هم كذلك ، اذ جاء رسول فقال : يقول لكم أبو كعب : انصرفوا ، فاني قد اصبحت اليوم مخمورا ".(٢)

على هذا النحو يرسم الجاحظ كثيرا من شخصيات حكاياته ، فتبدو متمايزة الملامح ، على الرغم من أنه يتركها تعرض نفسها بنفسها ، من خلال السلوك والتفكير الداخلي ، دون أن يبدى فيها رأيه مباشره .

وفي بعض الحكايات يترك الجاحظ الشخصيه تتحدث بضمير المتكلم(٣) على حين في حكايات اخرى يرسمها بضمير الغائب .(٤)

ويلاحظ ان الجاحظ يضىء في الغالب الجانب الاجتماعي لشخصياته ، سواء أكانت مرسومه من الداخل أم من الخارج !

---

(١) الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٤

(٢) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٢٤

(٣) مثل شخصية الشيخ الطروب أبي المبارك الصالحي (الحيوان ج ١ ،ص ١٢٦) وشخصية النظام المتطير (الحيوان ج ٣ ، ص ٤٥١)

(٤) مثل شخصية الجبان عروه بن مرشد (الحيوان ، ج٢ ، ص ٢٣١) واللوطي عبد العزيز بشكست (الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٦٠) والكيمائي المشعوذ ابي حكيم (الحيوان ج٣ ، ص ٣٨٥) .

فغروة بن مرثد مثلا هو شيخ من شيوخ بني نهشل ، وهويحل على بني اخته من قريش [١] وزير النساء عيسى بن مروان كاتب أبي مروان عبد الملك ابن ابي حمزه ، والشيخ اليماني هو شيخ القبائل اليمنيه في الشام [٢] وعبد الله بن سَوَّار هو قاضي البصره [٣] وأبو كعب هو قاص مسجد عتّاب المعروف في البصره [٤] .

ومن جهة اخرى يلاحظ أن معظم شخصيات الجاحظ من غير الاسوياء ، وهذه الشخصيات غير السويه متنوعه ، فمنها البخيل والمكدى واللص واللوطي والمشعوذ ، والشيعي المغالي والمجنون ، ولكن يلاحظ أن الجاحظ حين يصور الشخصيه غير السويه ، لا يصورها في الغالب شريرة خالصة الشر ، وانما تبادر احيانا الى عمل الخير ، أو تخشى من الوقوع في الاثم ، أو تحرص على أداء بعض الفرائض الدينيه ، وان كان يبدو ذلك منها تناقضا في السلوك تسيغه ، ولا تفطن اليه ! مما يزيدها في نظرنا غرابه : فخالويه المكدى مثلا ، الذى جمع ماله من " احتيال النهار ، ومكابدة الليل ، ومن قطع الطرق ، ومرافقة صعاليك الجبل ، ومردة الاعراب ولصوص القفص ، خالويه هذا يلاحظ أنه في بداية حكايته يتصدق من ماله ، حين وقف عليه ذات يوم سائل [٥] !

وفي حكاية اخرى يقدّم الجاحظ شخصية تسرق من حمّال رمانه ، لتتصدق بها ، وحين يستهجن مرافقها ذلك منها وينكره ، تجيب حينئذ " أخذتها وكانت سيئه ، واعطيتها فكانت عشر حسنات " [٦] .

وفي حكاية اللوطي عبد العزيز بشكست يلاحظ أنه يصر على اداء الزكاه، وان كان قد قضى " ثلاثين سنه ، ليس له زكاة الا عند امهات المؤاجرين ،

---

(١) الحيوان ، ج ٢ ، ص ٢٣١
(٢) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٣٩٣
(٣) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٣٤٣
(٤) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤
(٥) البخلاء ، ص ٤٩ - ٥٠
(٦) الحيوان ، ج٣ ، ص ١٧ تحت عنوان " احتجاج رجل من وجوه اهل الشام "

واخواتهم ، وخالاتهم .. (١) ، وشيخ الغاليه (٢) خشنام بن هند ، على الرغم من أنه " كان يسمي أبا بكر وعمر الجبت والطاغوت ومنكر ونكير واف وتف وكسير وعوير .. الخ " (٣) يبدو في حكايته يخشى من الوقوع في الاثم اذا افترى على زوجه ، حتى انه احتال لذلك حيله غريبه ، خيل اليه أنه يحل له بوساطتها ان يقذف امرأته بالزِّنَى كل حين (٤) بيد أنه مهما تكن شخصيات بعض الحكايات غير سويه فيلاحظ ان الجاحظ لا يقسو عليها ، وانما يصورها في الغالب ضمن اطار من الفكاهة أو السخرية ، حتى ان القارىء لا يشعر بأية كراهية نحوها ، وانما يشعر - وهو يضحك من سلوكها أو تفكيرها - بشيء من العطف أو الاشفاق تجاهها !

ولعل من ابرز الملاحظات العامه على شخصيات الجاحظ أن الدارس قلما يعثر فيها على شخصيه نمطيه قصد بها أن تجسّد صفه من الصفات ، أو أن تدعو الى فكرة من الافكار (٥) ، وانما يشعر فيها بالخصوصيه وبالتفرد ، وأن لها قسماتها المميزه ، وعلاماتها الفارقه ، وأنها واقعية تنبض بالحياه ، حتى لو كانت هذه الشخصيه موضوعه في اطار مجموعه من الشخصيات التي تشاركها في صفه من الصفات ، كما يلاحظ ذلك في شخصيات البخلاء .

فالواحده منها تتمايز من الاخرى ، وان اتصفت جميعها بالبخل ، أي تبدو كما هو الأمر في واقع الحياه ، فملامح شخصيات البخلاء في دنيا الناس ليست واحده تماما ، وانما تتمايز وتتخالف في نواح اخرى عده ، ومن ثم يلاحظ في حكايات البخلاء ان شخصية الكندى مثلا أو علي الاسوارى أو الحارثي أو محمد بن أبي المؤمل أو أية شخصية اخرى فيها ما يميزها من

---

(١) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٦٠

(٢) الغاليه : فرقه من فرق الشيعه الخمس غالى افرادها في رفع الأئمه فربما شبهوا الاله بالخلق ، وربما شبهوا واحدا من الائمه بالاله .
(انظر الحيوان ، ج٣ هامش ص ٢٠)

(٣) الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٠ - ٢١

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٠

(٥) من شخصيات الجاحظ القليله التي تبدو شيئا ما نمطيه شخصيه القاضي عبد الله بن سوار ، فكأن الجاحظ قصد بها التزمت أو الجمود الذى كان لا يفتأ يحاربه .

حيث الملامح الخاصه ، (١) فالتمايز واضح بين شخصية خالويه المكدى - كما رأيناها - (٢) وبين شخصية تمام بن جعفر مثلا ، فتمام بن جعفر كان اذا " قال له نديم : ما في الأرض أحد أمشى مني !

قال : وما يمنعك من ذلك ' وأنت تأكل أكل عشره ، وهل يحمل الرجل الا البطن ؟ ! لا حمد الله من يحمدك ! فان قال : لا والله ان اقدر أن امشي لانّي اضعف الخلق عنه ، واني لانبهر من مشي ثلاثين خطوه ،

قال (تمام) : وكيف تمشي ، وقد جعلت في بطنك ما يحمله عشرون حمالا ، وهل ينطلق الناس الا مع خفة الأكل ؟ !

فان شكا ضرسه وقال : مانمت البارحه مع وجعه وضرباته ،
قال : عجبت كيف اشتكيت واحدا ، وكيف لم تشتك الجميع ، وكيف بقيت الى اليوم في فيك حاكة ؟ !

أرفق فان الرفق يمن ، وان قال : لا والله ان اشتكيت ضرسا لي قط، ولا تحلحل لي سن عن موضعه منذ عرفت نفسي ،

قال : يامجنون ، لانّ كثرة المضغ تشد العمور وتقوى الاسنان وتدبغ

---

(١) من ابرز الملاحظات التي تمخضت عن الدراسات المقارنه التي اجراها بعض الدارسين المحدثين بين بخلاء الجاحظ وبخيل موليير ، ملاحظة تقول : ان موليير قد جسّد نموذجا أو نمطا عاما للبخيل ، على حين ان شخصيات الجاحظ ظلت شخصيات انسانيه متمايزه ، وقد حاول شفيق جبرى ان يستدل بهذا على تفوق موليير على الجاحظ ، لأن بخيله نمطي عالمي ، يجمع كل الصفات بينما ظل بخيل الجاحظ محليا (اقليميا) ، ولكن اكثر الدارسين مثل محمد المبارك وطه الحاجرى تمدّى لدحض هذا الرأى ، ويرى فان تيجم أن ما فعله موليير قد نأى بشخصية بخيله عن الواقعيه كذلك خلص الدكتور محمد الصادق عفيفي من خلال دراسة مقارنه مفصله بين موليير والجاحظ الى أن بخيل الجاحظ اقرب الى الفن والشعور والوجدان وواقع الحياه ، وان سخرية الجاحظ اكثر عمقا واثارة للضحك ، كما خلص الى ان ثمة صله موجوده ما بين موليير والجاحظ ، وأن موليير ربما تأثر الجاحظ ، لأنه لا يستبعد ان يكون كتاب الجاحظ تسرب الى اوروبا في العصور الوسطى فيما تسرب اليهامن كتب .(انظر كتاب ، نموذج البخيل في الادب العربي والادب الفرنسي ، د.محمد الصادق عفيفي ،ص ٦٧- ٦٨ ، ص ٧٨).

(٢) مرت بنا حكايته وانظر البخلاء، ص ٤٦ .

الشـــــه و ... الخ .. (١)

وعلى الرغم من كثرة شخصيات الجاحظ وتنوعها ، ان ثمة شخصيات بعينها لا تنسى في سهولة ، لأن الجاحظ يدير حول بعضها اكثر من حكايه ، مثل شخصية قاسم التمار والمكي واسماعيل بن غزوان وأبي شعيب القلال وداود بن المعتمر (٢) ، أو لأنها غريبة طريفة لافتة ، مثل شخصية خالويه المكدى والقاضي عبدالله بن سوار والقاص أبي كعب ، والمتشيع خشنام بن هند ، واللوطي عبدالعزيز بشكست ، والبخيل تمام بن جعفر والمشعود أبي حكيم الكيمائي ، وزير الغواني عيسى بن مروان ، وشخصيات قليلة اخرى (٣) .

---

(١) انظر الحكايه البخلاء ، ص ١١٦ - ١١٨ .

(٢) انظر حكايات قاسم التمار (الحيوان ، ج ٣، ص ٢٩٤ ، ص ٢٩٧، ج٦، ص ٢٦٢) . (وفي البيان والتبيين ، ج٢ ، ص ٢٢ - ٢٣، تحقيق عبدالسلام هارون) وانظر بعض حكايات ابي شعيب القلال (البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص٢١٦ ، والحيوان ، ج٥ ، ص ٤٧٥) وحكايات المكي وابن غزوان (الحيوان ، ج٣ ، ص٤٦٩ ، ج٥ ، ص ٣١٣).

(٣) وانظر ايضا شخصية عروه بن مرشد (الحيوان ، ج٣، ص ٢٤١) واحمد ابن عبدالوهاب (التربيع والتدوير ، ص٥) وسكر الشطرنجي (الحيوان ج٤ ، ص ١٤٧).

٥) اللغه والسرد والحوار

* يكوّن التحصيل اللغوى جانبا بارزا من ثقافة الجاحظ المتعدده الجوانب ، حتى ان ابن قاضي شهبه قد سلكه في عداد النحويين واللغويين في كتابة " « طبقات النحاه واللغويين » " ووصفه في اثناء ترجمته له بأنه " العلامه النحوى واللغوى " (١) .

* وقد تتلمذ الجاحظ للاصمعي وأبي عبيده ، وأخذ عن أبي زيد الانصاري علمه بغريب اللغه ، وأتمّ " ثقافته اللغوية في المِرْبد ، وهو مجمع الشعراء ، ومصدر اللغة والادب ، فكان الجاحظ يرحل اليه ، ويتلقف منه الفصاحة كما يقول ياقوت ، فتّم له بذلك اللغه والأدب بالمشافهة وبالأخذ عن العلماء " (٢).

* ويلاحظ أنّ الجاحظ في حكاياته لا يبدى أي تكلف لغوي للغريب من الالفاظ ، بل يلاحظ انه في بعض هذه الحكايات يتندر بمن يتقعرون في كلامهم ويتكلفون الالفاظ الغريبه (٣) .

واذا كان الجاحظ يفهم الحكايه أنها تصوير للواقع الاجتماعي (٤) ، فمن الملاحظ أنّ لغته تتفاوت بين حكاية وأخرى ، وذلك بحسب طبيعة الموضوع المستوحى ، وبحسب المستوى اللغوي للمتكلم كما يبدو في الواقع .

أ - اللغة والسرد :

ويبدو التفاوت في لغة السرد جليا في الحكايات التي يغلب عليها السرد غلبة ظاهره ، اذ يلاحظ ان الفاظ السرد تبدو مألوفه

(١) انظر مجلة المورد ، ص ١٢٣ ، فصل روضة الياسمين في من ترجم للجاحظ من الاقدمين اعداد عدنان محمد طعمه (العدد (٤) - بغداد ، ١٩٧٨ (٢) احمد امين ، فيض الخاطر ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ . (٣) انظر مثال ذلك البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣٧٩ ، تحقيق عبد السلام هارون (٤) انظر حكاية ابي جعفر الطرسوسي في البخلاء ، ص ٥٨ ، وانظر البخلاء ايضا ، ص ١٣٢ .

حين تصور الحكايه واقعا من المدينه حيث تنأى لغة الناس عن الجزاله ، نحو لغة السرد في هذه الحكايه التي تصور لقاء أبي شعيب القلال بالخليفة الرشيد :

" احب الرشيد أن ينظر الى أبي شعيب القلال ، كيف يعمل القلال، فأدخلوه القصر ، وأتوه بكل ما يحتاج اليه من آلة العمل ، فبينا هو يعمل ، اذ هو بالرشيد قائم فوق رأسه ، فلما رآه نهض قائما ، فقال له الرشيد ... الخ " (١) .

على حين تبدو الفاظ السرد في الغالب غريبه ، اذ تصور الحكايه واقعا من البيئه الصحراويه مثلا ، كأن تدخل الحكايه بيت رجل بدوى ، وقد حل عليه ضيوف لتصف ما قدم لهم من قِرَى : " دعا بطعام ، فاذا خبزة قد شرد نصفها في لبن ، وكسر بين ايدينا النصف الآخر ، ثم دعا بالنبيذ ، فاذا هو في عُس خشب ، ثم دعا بنُقل (٢) ، فاذا بإقْط (٣) ومُقل (٤) وتنوّم (٥) ، ثم دعا بريحان فاذا خزامى وعبيثران (٦) وشيح ... الخ " . (٧)

أو كأن تصور الحكايه الجمل ، وهو في حالة ما من الهياج : " نظر المكي الى جمل قد أزبد ، وتلغّم (٨) وطار على رأسه منه كشقق البرس (٩) وقد زم بأنفه ، وهو يهدر ويقبقب ... الخ " . (١٠)

والجاحظ دقيق في اختيار الكلمات الملائمه لتصوير الواقع الذى يستوحيه ، وهو في هذه الدقه لا يعنيه سوى أن ما يستعمله من الفاظ قد وقع في مكانه ، سواء أكانت الالفاظ المستعملة شائعة مألوفة أم غريبة غامضة . (١١)

---

(١) البيان والتبيين ، ج٢، ص ٢٦١ . تحقيق عبد السلام هارون

(٢) النقل : ما يتنقل به على الشراب

(٣) الاقط : شيء يتخذ من المخيض الغنمي

(٤) المقل : ثمر شجر الدوم ينضج ويؤكل خشن

(٥) تنوّم : ضرب من الشجر

(٦) عبيثران : نبت طيب الرائحه

(٧) القول في البغال ، ص ١٢٧ . تحقيق شارل بلا .

(٨) تلغّم : بل مشافره باللغام ، وهو زبد افواه الابل

(٩) البرس : القطن (١٠) الحيوان ، ج٥ ، ص ٣١٣

(١١) مما يضطره احيانا الى تفسير بعض الفاظ الحكايه (انظر البخلاء، ص ٤٦، ص ٦٧) .

بيد أنه مهما تكن الالفاظ التي يستعملها الجاحظ في السرد فانها تظل بعيده " عن المعاظله والتكلف ، وذلك التعثر اللغوى، الذى يرجع في كثير من حالاته الى قلة المحصول اللغوي ، ثم لعله كذلك من أدقها في الدلالة على ما يراد التعبير عنه ، لأن دراسته للغة ، وروايته لآثارها ، واستبطانه لروحها ، وطول الفه لأساليبها وعباراتها ، قد وضع بين يدى نزعته الفنيه ذخيرة حافلة منوعه من الصور اللفظيه والالوان اللغوية ، تبرز بها فنها ، فهي تستطيع أن تجد في يسر ما يحقق لها الجمال والدقه في العباره معا ".(١)

وتبدو دقة الجاحظ اللغوية لدى التمعن في الفاظ السرد من الناحية الفنية ، اذ نشعر ان من الصعب تغيير الفاظه ، مع بقاء الالفاظ الجديدة تؤدى دقة المعاني التي كانت تؤديها الالفاظ السابقة ، مع كل ما كان لها من مقدرة على الايحاء ، وتتبدى هذه الدقه في اختيار الافعال خلال تصويره لشيء من الاشياء ، نحو وصفه لحالة الكلب المحصور وعروه بن مرشد يخاطبه على أنه لص " كان الكلب اذا سمع الكلام أطرق ، واذا سكت وثب يريغ المخرج ، فتهافت الاعرابي " (٢) .

فالافعال : أطرق ، ويريغ ، وتهافت ، نشعر أنها دقيقة موحية ، ولاسيّما الفعل " تهافت " الذى يصور الواقع النفسي لأبي الاعز في تلك اللحظة الحرجه . ونحو استعماله الفعل " غبر "، حين يقول عن اللوطي عبد العزيز بشكست : " فغبر بذلك ثلاثين سنه ، وليس له زكاه الا عند امهات المؤاجرين واخواتهم وخالاتهم " (٣) .

فالفعل " غبر " يبدو موحيا اكثر من أى فعل آخر في معناه ، نحو " أمضى " أو " قضى " ، ذلك أنه يصور عادة ذميمه !

وفي حكاية القاضي " عبد الله بن سَوَّار " نشعر بعد الفراغ من القراءه أن ثمة الفاظا بعينها ، تتشبث في الذهن كلما تذكرنا الشخصيه، وكأنها هي وحدها التي توحي بملامحها ، حتى انه لو طلب أن نصف عبد الله بن سوار قد لا نزيد على القول : انه زِمِّيت .. رَكين !(٤) ويلاحظ أنّ الفاظ الحكاية تدل بجرسها على الشدة والجمود وصلابة الحركة . (٥)

---

(١) طه الحاجرى ، مقدمة البخلاء ، ص ٢٧ (٢) الحيوان، ج٢، ص ٣٢٠.
(٣) المصدر نفسه ، ج٣، ص ٢٦٠
(٤) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ .
(٥) فيكتور شلحت اليسوعي، فن التعبير في اسلوب الجاحظ ،ص ٦٥، مجلة المعرفة العدد (٣١) - دمشق - ١٩٦٤.

وقد يستعمل الجاحظ اللفظ احيانا ولا يقصد به الى الفصاحة اللغوية ، وانما الى تطوره الدلالي الشائع بين العامه ، مثل استعماله لفظ " الشيطان " دون ان يقصد منه المعنى الديني وانما ما يقصد اليه العامه من اطلاقه على صاحب الحيل والنوادر، نحو استهلاله حكاية الاعرابيين المفلسين اللذين انحدرا الى المدينه بالقول : " زعم اصحابنا أن اعرابيين ظريفين من شياطين الاعراب حطمتهما (١) السنه ، فانحدرا الى العراق ، واسم احدهما ...الخ" (٢)

ومن جهة اخرى يلاحظ أن ميل معظم حكايات الجاحظ الى القصر ، وغلبة الحوار على اكثرها يؤشران في الغالب على المساحة التي يشغلها السرد من الحكايه ، ولذلك يلاحظ أنّ الجاحظ في لغته القصصيه يحرص في السرد على عدم تبديد المجال الضيق أمامه بعبارات ليست ضروريه لبناء الحكايه ، ومن ثم تبدو عبارات السرد في اكثر الحكايات تميل الى التركيز والايحاء ، والابتعاد عن الاسلوب الاخباري ، بما قد ينطوي عليه من تقريريه ومباشره .

بيد أن هذا لا يعني أن ليس ثمة حكايات ، يجنح اسلوب الجاحظ القصصي فيها الى المباشره ، أو حتى الى الاستطراد المخل بالسرد احيانا ، فمثل هذه الحكايات موجود ، لكنه قليل ، ومثال ذلك الحكايه التي تصور قتل أبي جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني ، فالجاحظ يبدأها باسلوب اخباري يقرّظ به المنصور على هذا النحو :

" كان المنصور داهيا أريبا ، مصيبا في رأيه ، سديدا، وكان مقدما في علم الكلام ، ومكثرا من كتاب الآثار ، ولكلامه كتاب يدور في أيدي العارفين الوراقين ، معروف عندهم ، ولما هم بقتل أبي مسلم ... الخ " . (٣)

---

(١) انظر الى استعماله الفعل " حطّم " كم هو موح في قوله " حطمتهما السنه " ، فهو يوحي بالجدب الشديد ، الذى يصيب الاعرابي حين تنفق ماشيته .

(٢) البيان والتبيين ، ج٣ ، ص ٥٠ . تحقيق عبد السلام هارون

(٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٦٧ ، تحقيق عبد السلام هارون .

واغلب الظن ان الجاحظ كان مدفوعا في هذه البدايه بدوافع سياسيه ، غير فنيه ، لأنه ما ان يتخلص من هذه البدايه ، حتى يعمد الى اسلوبه القصصي المعهود فلا نصادف في السرد بعد ذلك أية عباره فيها تقرير أو مباشره ، وانما تصوير قصصي لا نشعر معه بتدخل الجاحظ ، اذ انه بعد تلك البدايه يواصل على هذا النحو :

" ولما هم بقتل أبي مسلم ، سقط بين الاستبداد برأيه ، والمشاورة فيه ، فأرق في ذلك ليلته ، فلما اصبح دعا باسحق بن مسلم العقيلي فقال له : ... الخ " (١)

وفي حكاية " سكر الشطرنجي " نجد الجاحظ يستطرد خلال السرد استطرادا طويلا مخلا ، غير ضروري للحكايه ، فهو يبدأ على لسان محدثه بالحديث عن سكر الشطرنجي على هذا النحو : " حدثني بعض اصحابنا عن سكر الشطرنجي (أنه) كان احمق القاصين ، واحذقهم بلعب الشطرنج ، وسألت عن خرق كان في خرمة (٢) أنفه ، فقلت له : ما كان هذا الخرق ؟ فذكر أنه خرج الى جُبَّل (٣) ، يتكسب بالشطرنج ، فقدم البلده ، وليس معه الا درهم واحد وليس يدري أينجح أم يخفق ، ويجد صاحبه الذى اعتمده أم لا يجده ؟ فورد على حواء ، وبين يديه جُون (٤) عظام ، فيها حيات جليله "(٥)، وهنا نرى الجاحظ بغتة يشط بعيدا عن موضوع سكر الشطرنجي ، ويتحول عنه الى الافاعي ، فيحدث عنها في اسهاب حديث العالم بأحوالها ، على هذا النحو : " وبين يديه جون عظام فيها حيات جليله ، والحيه اذا عضت لم تكن غايتها النهش والعض ، وأن ترضى بالنهش ، ولكنها لا تعض الا للأكل والابتلاع ، وربما كانت الحيات عظاما جدا ، ولا سموم لها ، ولا تَعْقِر (٦) بالعض كحيات الجولان ، وفي الباديه حيه يقال لها الخُفَّاث ، والخفاث من الحيات تأكل الفأر واشباه الفأر ، ولها وعيد منكر ، ونفخ واظهار للصوله ، وليس وراء ذلك شيء ، والجاهل ربما مات من الفزع ، وربما جمعت الحيه

---

(١) المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٣٦٧ . تحقيق عبد السلام هارون

(٢) الخرمه : موضع الخرم من الانف

(٣) جبّل : بليده بشاطيء الفرات

(٤) جون :: جمع جونه ، وهي الوعاء

(٥) الحيوان ، ج٤ ، ص ١٤٧

(٦) تعقر : تجرح .

السم ، وشدة الجرح والعض والابتلاع ، وحطم العظم ."(١)

ثم يعود الجاحظ - بعد هذا الاستطراد العلمي كله - ثانية الى سكر الشطرنجي ، ليستأنف حكايته عنه على هذا النحو :

" فوقف سكر على الحوّاء ، وقد أخرج من جونته أعظم حيات في الارض وأدّعى نفوذ الرُّقيه ، وجودة الترياق ، فقال له سكر(٢).الخ":

ومن الواضح أن مثل هذا الاستطراد الطويل يخل بتماسك السرد في الحكايه ، ولكن الحكايات التي يميل فيها اسلوب الجاحظ خلال السرد الى الاستطراد أو المباشره قليله . (٣)

ب - اللغه والحوار :

واذا انتقلنا الى الحوار ، فان أول ما نلاحظ خلال ذلك التفاوت في مستوى اللغه ، فعلى الرغم من ان كلا الاسلوبين في السرد والحوار يصدر عن الجاحظ ، غير اننا في الحوار خاصه نلحظ كما يقول الدكتور احسان عباس بحق "" ان الالفاظ هي الفاظ الجاحظ ، ولكن الموسيقى العامه قد انحلت لتشبه الحديث العادى "" (٤) . ومن ثم فان الحوار يؤدى دوره في التخفيف من رتابة السرد ، وتوفير مزيد من المتعه للحكايه

والجاحظ في حكاياته يولي الحوار جُلّ عنايته ، وتتجلى من خلاله موهبته ، ذلك ان اكثر حكاياته يطغى فيها الحوار على السرد ، بل ان الدارس حين يحاول ان يرصد التطور الذى كان يطرأ على الحكايه الجاحظيه مع الزمن ، من خلال التمعن في حكايات كتاب الحيوان مثلا ، ثم في

---

(١) الحيوان ، ج ٤ ، ص ١٤٧

(٢) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ١٤٧

(٣) انظر ايضا مثال الحكاية التي يتخللها استطراد في السرد حكاية الجاحظ والذباب(الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٤٦)، ومثال الحكايه التي تميل الى المباشره حكاية "" اشتهاء ريح الكرياس""(الحيوان ،ج٥ ،ص ٤٦٨)

(٤) ابو حيان التوحيدى ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

حكايات كتاب البيان والتبيين الذى تلاه في التأليف (١) : فان من ابرز ما يخرج به في الغالب هو ان الحكايه الجاحظيه كانت تميل مع الزمن نحو القصر وتكثيف العبارة وغلبة الحوار ، لأنه لا يكاد يلحظ في البيان والتبيين أية حكايه يطغى فيها السرد على الحوار ، وانما يجد السرد في الحكايه سطرا أو سطرين في الغالب ، ثم يبدأ الحوار ليستمر حتى النهايه ، على هذا النحو : " بينا معاويه بن مروان واقف بدمشق ينتظر عبد الملك على باب طحان ، وحمار له يدور بالرحى في عنقه جُلْجُل (٢) ، اذ قال للطحان :

لم جعلت في عنق هذا الحمار جلجلا ؟

قال (الطحان) : ربما أدركتني سآمه أو نعسه فاذا لم اسمع صوت الجلجل ، علمت أنه قد قام فصحت .

قال معاويه : أفرأيت ان قام ، ثم قال (٣) برأسه هكذا - وجعل يحرك رأسه يمنةً ويسرةً

وما يدريك أنت أنه قائم ؟ !!

قال الطحان : ومن لي بحمار يعقل مثل عقل الأمير " (٤)

ويخيل للدارس حين يتمعن في حكايات الجاحظ أن موهبته القصصيه هي في المقام الاول موهبه حوار ، حتى انه في بعض الحكايات - كما يلاحظ - استطاع أن يلتقط أمورا تبدو عاديه ، ثم أدار حولها الحوار الممتع فخلق بوساطته الحكايه الناجحه (٥) ، بل ان من أبرز اسباب نجاحه في حكايته الطويله التربيع والتدوير ذات المضمون الفكرى ، أنه لجأ فيها الى اسلوب الحوار ، فتخيل خصمه أحمد بن عبد الوهاب جالسا أمامه صامتا ، ثم راح يخاطبه ويحاوره ويسائله باسلوب مرح .

---

(١) الذى يدل دلاله قاطعه على ان كتاب الحيوان سابق على كتاب البيان والتبيين قول الجاحظ في البيان والتبيين مثلا " كانت العاده في كتب الحيوان ان اجعل كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات ... الخ " انظر البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٣٠٢ ، تحقيق عبد السلام هارون .

(٢) جلجل : جرس

(٣) لاحظ كيف يستعمل في الحوار الفعل " قال " بمعنى حرك " قال برأسه " وهو استعمال مازال دارجا على السنة العامه الي اليوم ، مما يعزز القول : ان لغة الحوار عند الجاحظ تقترب من لغة الحديث العادى .

(٤) البيان والتبيين ، ج٢ ، ص ٢٦١ ، تحقيق عبد السلام هارون

(٥) انظر مثال ذلك (الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٨).

وتبدّى لنا في حوار حكايات الجاحظ اربع ملاحظات رئيسه :

أما الملاحظه الاولى فتتعلق باللغه ، فالجاحظ يراعي في الحوار السمات اللغويه البارزه للمتكلم ، كما تبدو منه في الواقع ، حتى ان القارئ يلمس في الغالب ان ثمة فرقا بين مستوى لغة الأعرابي مثلا اذا تكلم ، ومستوى لغة الاعجمي الألكن ، فحين يتكلم الاعرابي يبرز الجاحظ شيئا من مستوى فصاحته في نحو العبارة أو تركيبها ، كما يجرى على لسانه ألفاظا قد نضطر لفهمها الى استشارة معاجم اللغه ، على نحو ما يبدو مثلا في هذه الحكايه التي تصور حواراً بين زوجين أعرابيين :

" قال (زوج) لامرأته : ياهنتاه [1] انّ انسانا يطالعنا من العُشَره [2]!

قالت : مه ياشيخ! ذلك جان العشره ، اليك عني وعن ولدى!

قال الشيخ : وعني يرحمك الله

قالت : وعن ابيهم ان هو غطى رأسه ورقد " [3]

فليس اتفاقا أن الجاحظ خلال حوار قصير قد اجرى على لسانيهما الفاظا فيها فصاحة الباديه مثل "هِنتاه" و "العُشَره" و "مَهْ" ، وانما هو استوحى المستوى اللغوى لحوار الاعراب في الواقع ، وتمثل كيف يتكلمون!

وأمّا اذا كان المتكلم أعجميا مثلا ، فيلاحظ أن الجاحظ يحاول أن يبرز لكنته في اثناء الكلام ، نحو حكايه تصور عجوزا اعجميه قد ركبت جملا فهاج وهي على ظهره " فلما أقبل بها هذا البعير وأدبر ، وطمر ، فمخضها مره مخض السقاء ، وجعلها مره كأنها ترهز ، قالت بلسانها - وهي سنديه اعجميه - : أخزى الله هذا الذمل فانه يذكر بالسر!

تريد : أخزى الله هذا الجمل فانه يذكر بالشر " [4]

---

(١) ياهنتاه كنايه عن المنادى المؤنث الذى لا تريد التصريح باسمه

(٢) العشره : واحده العشر ، وهو من كبار الشجر ، له صمغ حلو ، وهو عريض الورق وله سكر يخرج من شعبه ، ومواضع زهره

(٣) الحيوان ، ج ٦ ، ص ١٦٨

(٤) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٢٩٢ .

واذا كان الرجّاز مشهورين باستعمال الغريب من الالفاظ في ارجازهم فان الجاحظ حين يصور شيئا من كلامهم يحاول ابراز هذه السمة اللغوية خلال الحوار : " اجتمع ثلاثة من بني سعد يراجزون بني جعده ، فقيل لشيخ من بني سعد : ما عندك ؟

قال : ارجز بهم يوما الى الليل لا أُفشَج ،

فقيل للآخر : ما عندك ؟

قال : ارجز بهم يوما الى الليل لا أنكفّ ،

فقيل للثالث : ما عندك ؟

قال : ارجز بهم يوما الى الليل لا أنكَشُ ،

فلما سمعت بنو جعدة كلامهم ، انصرفوا وخلوهم " (١)

وحين تصور الحكاية شيئا من أمور الجوارى ، يحاول الجاحظ احيانا أن يبرز ركاكة اللغة حين يتحدثن : نحو حكاية تدور حول جارية مرت بقوم فرأوا فيها الكبر والتجبر ، فقال بعضهم : ينبغي أن يكون مولى هذه الجارية يضاجعها ! " فقالت كما يكون ! " (٢)

ثم يعقب الجاحظ مباشرة على ركاكة عبارتها بقوله : " فلم اسمع بكلمة عامية اشنع ، ولا أدل على ما ارادت ، ولا أقصر من كلمتهاهذه " (٣)

واذا كانت الحكاية تجمع بين عالم لغوى مثلا وأحد العامة فان الجاحظ يراعي المستوى اللغوى الذى يصدر عنه العالم في كلامه ، كما يصور موقف العامي من ذلك : " هاج بأبي علقمة (٤) (النحوى) الدم فأتى بحجام فقال للحجام : أشدد قصب الملازم (٥) ، وارهف ظبات المشارط ، واسرع الوضع وعجّل النزع ، وليكن شرطك وخزا ، ومصّك نهزا ، ولا تكرهن آبيا ، ولا تردّن آتيا ! فوضع الحكام محاجمه في جُونته (٦) ثم مضى " (٧) . وسبب انصراف الحجام العامي ، هو في الغالب لأنه لم يفهم شيئا مما قال أبو علقمة ، الذى

---

(١) البيان والتبيين ، ج٤ ، ص ٣٤ ، تحقيق عبد السلام هارون ، والمقصود بأفشج : اعيا وانبهر وبأنكش وانكف : ينفد ما معي من رجز ، وبحر لا ينكف لا يبلغ آخره وبحر لا ينكش لا يغيض (٢) الحيوان ، ج٦ ، ص ٢٦١ (٣) المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٢٦١ .

(٤) ابو علقمه النحوى النميرى من اهل واسط ، كان يقعر اللغة في كلامه ، ويعتمد الحوشي من الكلام والغريب (٥) الملازم : جمع ملزم بالكسر ، وهو خشبتان مشدود اواسطها بحديد تجعل في طرفها قناه ، فتلزم ما فيها لزوما شديدا .

(٦) الجونه : بالضم ، سليلة مستديرة مغشاة أدما .

(٧) البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٣٧٩ ، تحقيق عبد السلام هارون .

لم يراع مستوى لغتـــــه .

وثمة حكايـــه تصـور نقيض ما تصوره الحكايـــه السابقه ، أى تصور رجلا يتفاصح وهو لا يعـرف نحو اللغـه ، ولذلك فان الجاحظ يبرز ما يمكـــن أن يقترفـــه الرجـل من اخطاء نحويــه في حديثـــه " ارتفع الى زيـــاد رجـل واخوه في ميراث ، فقال (الرجل) : انّ ابونا مات ، وان اخينا وثب على مال أبانا فأكلـه ، فقـال زياد : الذى اضعت من لسانك أضر عليـك مما اضعت من مالك .

وأما القاضي فقـال : فلا رحم الله أباك ، ولا نتح عظم اخيك ، قم في لعنـة الله " .(١)

وقد يضمّـن الجاحظ الحوار عبارات فارسيه ، اذا كان المتكلم من أصل فارسي ، وبدا ذلك ملائما ، قد وقع في موقعـه ، نحو حكاية تصور معاويــه يخلو بجاريـه خراسـانيه ، فلما همّ بها نظر الى وصيفـه فـي القصــر ، فترك الخراسانيـه ، وخلا بالوصيفـه ، مما اغضب الخراسانيه ، ودفعهــا الى أن تقول لمعاويه بالفـارسيه " كفتـــار " فخرج معاويه " وهـــو يقول : مـا الكفتـــار ؟!

فقيـل لـه : الكفتـــار : الضبـع

فقـال : ما لـهـا قاتلها الله ، أدركت بثـأرهـــا !

والفرس اذا استقبحت وجه الانسان قالت : روى كفتــار ، أي وجه الضبـع."(٢)

ويقفـل الجاحظ حكاية" المروزى والعـراقي " بعبارة فارسية - والحكايـــة تصور فـارسيا من مـرو ، وقد أنكر صديقا لـه ، حين حل عليه ضيفا ، حتى ظـن الضيـف العراقـي أنه اشتبه على صديقـه بسبب ثبات السفـر ، فأخـذ يخلعهـا ، وهو كلما خلع قطعـة منها ، ازداد المروزى له انكارا " حـتى اذا لم يبق ما يخلعه ، و " علم المروزى أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافـل المتجاهل قال : لو خرجت من جلدك لم اعرفك ، ترجمة هذا الكلام بالفارسيـــه اكـر از يوست بـارون بيائـي نشناســتم " (٣) .

---

(١) المصـدر السـابق ، ج٢ ، ٣٢٤ . تحقيق عبد السلام هارون

(٢) الحيـــوان ، ج٦ ، ٤٥٢ (٣) البخلاء ، ص ٢٢ .

والذى ينبغي أن نلاحظه أن مرعاة الجاحظ الفروق اللغويه للمتحاورين - على نحو ما رأينا في الحكايات السابقه - لا تأتي اتفاقا ولا تصدر عنه عفوا ، وانما يصدر الجاحظ في ذلك عن آراء كان يؤمن بها ، ويدعو الى الأخذ بها ، وهذه الآراء مبثوثه في مواطن متفرقه من كتبه ، وهو يقرر فيها أنه ينبغي في الحوار استيحاء الحديث العادى للمتحاورين كما يحدث في الواقع ، حتى لو أدى ذلك الى التحلل شيئا ما من قواعد اللغه ، اذا اقتضى الأمر ، وكان المتحدث من المولدين وليس من الاعراب ، يقول الجاحظ في كتاب الحيوان : " ان الاعراب يفسد نوادر المولدين ، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب ، لأن سامع الكلام ، انما اعجبته تلك الصوره ، وذلك المخرج ، وتلك اللغه ، وتلك العاده ، فاذا ادخلت على هذا الأمر - الذى انما اضحك بسخفه ، وبعض كلام العجميه التي فيه - حروف الاعراب ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه وتبدلت صورته " (١) .

فالحوار هو صورة الحديث في الواقع " لأن سامع الكلام انما اعجبته تلك الصوره " ، والجاحظ يكرر هذا الرأى في البيان والتبيين ، فهو يقرر ان التكلف اللغوى في حوار الحكايه ، والاصرار على اختيار اللفظ الجزل في كل حال ، يفسد الامتاع بها ، ويخرجها من صورتها " .

يقول الجاحظ " اذا سمعت بنادره من نوادر العوام وملحه من ملح الحشوه والطغام ، فاياك أن تستعمل فيها الاعراب ، أو أن تتخير لها لفظا حسنا ، أو تجعل لها من فيك مخرجا سَرِيّا ، فان ذلك يفسد الامتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذى ارادت له ، ويذهب استطابتهم اياها ، واستملاحهم لها " (٢) .

اذن فالحوار كما يفهمه الجاحظ هو جزء من فهمه الحكايه عامه ، أى أنه تصوير لما قد يصدر عن الناس من حديث عادى ، مع كل ما يتضمنه هذا الحديث من فروق في المستويات اللغويه ، وما تقترحه طبيعه الموضوع المستوحى من الفاظ مناسبه ، فالالفاظ بوصفها أدوات تصوير في رأى الجاحظ ، ينبغي لها أن تكون متناسبه و ما تصوره من موضوع ومعنى ، دونما تحفظ أو تكلف ، يقول الجاحظ في الحيوان " ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الاسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والافصاح في موضوع الافصاح ، والكنايه في موضع الكنايه ، والاسترسال في موضع الاسترسال " (٣) .

---

(١) الحيوان، ج١، ص٢٨٢ (٢) البيان والتبيين، ج١، ص ١٤٥ . تحقيق عبد السلام هارون
(٣) الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٩ .

أما اذا لم يراع الكاتب تناسب اللغه مع ما تصوره قصيا من موضوع ، واصر على السلامه النحويه ، والجزاله اللفظيه في الاحوال جميعها ، فانه في رأى الجاحظ يخفق لا محاله في بعض الاحوال لأنه يكرب نفس القارئ ، وهو يريد أن يدخل عليها السرور .

يقول : "« واذا كان موضوع الحديث على أنه مضحك وملهٍ ، ودخل في باب المزاح الطيب ، فاستعملت فيه الاعراب ، انقلب عن وجهته ، واذا كان في لفظة سخف ، وأبدلت السخافة بالجزاله ، صار الحديث الذى وضع على أن يسر النفوس يكربها ، ويأخذ باكظامها »" (١) .

والتزام الجاحظ بآرائه في حوار حكاياته دفعه احيانا الى الاحتراس ، ولفت القارئ الى ذلك ، مخافة أن يتوهم ، فيظن بمقدرته النحويه الظنون ، نحو قوله : " وان وجدتم في هذا الكتاب لحنا أو كلاما غير معرب ، ولفظا معدولا عن جهته ، فاعلموا أنا انما تركنا ذلك ، لأن الاعراب يبغض هذا الباب ، ويخرجه من حده ، الا أن احكى كلاما من كلام متعاقلي البخلاء واشحاء العلماء ، كسهل بن هارون واشباهه " (٢) .

بيد أن تنبيه الجاحظ هذا لم يمنع الدكتور احمد كمال زكي من الوقوع في الوهم الذى كان يخشاه الجاحظ ، لأنه يعقب على النص السابق بقوله : "« والطريف هنا أن الجاحظ ، وهو الذى يستقبح الخطأ من أى أعرابي ، لا يمانع في ان يخطئ هو ، وان يكن يدعي أنه خطأ يقصده »" (٣) .

ورأى الدكتور احمد كمال زكي ان الجاحظ كان يدعي ادعاء أنه يقصد الى الخطأ ، ليستر به ما يمكن ان يقع فيه حقا هو رأى يحتاج منه الى معاودة النظر ، لأن ما فهمه عن الجاحظ ، يختلف عما فهمه المحدثون والقدماء ، فالدكتور احمد محمد الحوفي مثلا ، يقول عن الجاحظ

---

(١) الحيوان ، ج١ ، ص ٣٩ ، لاحظ أنه يعبر عن لفظ الحكايه "بالقول حديث" وعن لفظ الابداع بالوضع ولذا قال في النهايه "صار الحديث الذى وضع".

(٢) البخلاء ، ص ٤٠

(٣) الحياه الادبيه في البصره الى نهاية القرن الثاني الهجرى ، ص ١٦٦ .

في هذا الأمر ، " كان يرى الا تغير نكتة أو ملحة حكيت عن العوام والا يلحن في حكاية نقلت عن معرب فصيح ".(١)

ويعقب طه الحاجري على تنبيه الجاحظ بقوله : " هذا مذهب للجاحظ لعله كان اول من اصطنعه ، واجترأ عليه في كتبه ، دون أن يبالي في ذلك لائمة المتحرجين ، وتنطس المتنطسين ، فقد كانت تحمله عليه نزعته الادبيه ، القويه ، التي اتخذت من حياة الشعب مادة لها ، تصور الوانها المختلفة ، وتعبر عن اتجاهاتها ومناحيها ، والتي لم تكن تعبأ في سبيل دقة التصوير ، بتلك القيود الشكليه .

فالجاحظ كان يرى اذن أن الكلام هو الصوره النفسيه المسموعه ، بكل ما فيها من الفاظ معينه ، فالتحريف فيها ، انما هو مسخ لهذه الصوره ، واخراج لها عن اصل وضعها ". (٢)

ومن ابرز القدماء الذين اتبعوا مذهب الجاحظ الخاص بلغة الحوار في الحكاية ابن قتيبه في عيون الاخبار (٣) ، وأبو حيان التوحيدي.(٤)

وأما الملاحظه الرئيسيه الثانيه المتعلقة بحوار الحكايات فهي ان الجاحظ يراعي فيه أن يكون متناسبا شيئا ما و الشخصية التي تتحدث ، فهو يراعي في الغالب مستواها الاجتماعي أو الفكري ، وملامحها النفسيه ، وحالتها المزاجيه أو الانفعاليه في اللحظه التي تتحدث فيها ، ويتبدّى ذلك حين نلاحظ أن كثيرا من شخصيات الجاحظ المتمايزه يرسمها فقط من خلال الحوار ، ودون أن يصفها بأية صفه مباشره في اثناء السرد . ومثال ذلك حكايه عروة بن مرشد ، التي مرت بنا في السابق، فحين نعيد النظر ثانيةً في الحكايه نلحظ أن الجاحظ في اثناء السرد لا ينعتها بأى نعت ، لكنه يدعها من خلال الحوار فقط ، وبعد أن يضعها في المأزق تحاور اللص الموهوم ، وتضطرب في صراعها للخروج من المشكله التي تجد نفسها واقعة فيها ، بما يشي في النهايه بملامحها النفسيه

---

(١) الجاحظ ، ص ١٠١

(٢) البخلاء ، تعليقات وشروح ، ص ٣٠٢

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٠٣

(٤) د . زكريا ابراهيم ، الفكاهه عند أبي حيان التوحيدى ، ص ٦٤ .

الحقيقيه ، التي تجهد في اخفاء بعضها أمام الناس !

والجاحظ يراعي في الغالب التباين بين المتحاورين ، سواء أكان التباين في ملامح النفس ، أم في المستوى الفكري ، وهو ما دعا الدكتور احسان عباس الى القول عن حكايات البخلاء خاصه " والمدقق في كتاب البخلاء يلمح بين ثنايا اسلوبه بعض التفاوت بين الشخصيات" (١) .

والحق ان هذه الملاحظه لا تقتصر على حكايات البخلاء ، وانما تكاد تشمل حكايات الجاحظ جميعها ، بل ان مراعاة الجاحظ للتباين بين الشخصيات المتحاوره تظهر بجلاء اكبر في غير حكاياته عن البخلاء ، نظرا لتنوع الصفات والعادات البارزة في شخصيات الحكايات الاخرى ، ومثال ذلك هذه الحكايه التي تجمع بين ابن المقفع وشاب ، والتي تكاد تقوم على الحوار وحده دون السرد ، فالتباين فيها واضح بين الشخصيتين المتحاورتين ، حتى ان القارىء العادى يشعر في الغالب أن الحوار هو بين شاب غِر وعالم أريب ، وإن كان لا يعرف شيئا من علم ابن المقفع وادبه : " قال شيخ من الملوك ، لعبدالله بن المقفع ، ان ابني فلانا يتكلم بكلام لا نعرفه فأحب أن تجالسه ، فان كان كلامه هذا من غريب كلام العرب ، فهو على حال لم تخرج من هذه اللغه ، وان كان شيء يبتدعه ، عالجناه بالتقويم !

فأتاه ابن المقفع فسمعه يقول : ياغلام ، اسرج لي برذوني الاسود !

فقال ابن المقفع : قل - اصلحك الله - البرذون الأدهم ، واياك ان تقول الاسود !

قال : لا أقول الأسود الاسود ، لِمَ لأنه ليس باسود ؟ !

قال : بلى هو اسود ، ولكن لا يقال له اسود ،

فمكث ساعه ثم قال :

ياغلام ، اسرج لي حماري الأدهم

فقال (ابن المقفع) : لا تقل للحمار أدهم ، انما يقال له اسود

قال : فقل لي ، لمَ يقال له : اسود ؟ !

---

(١) ابو حيان التوحيدى ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

قال (ابن المقفع) : لأنه اسود

قال : قد نهيتني ان اقول : برذون اسود ، وهو اسود !

قال(ابن المقفع): هكذا تقول العرب

قال : اما أن تكون العرب أموق (١) الخلق ، واما أن تكونوا أنتم اكذب الخلق !

قال ابن المقفع : فرجعت لأبيه فقلت له : ان كان عندك علاج فداركه ، وما اظن والله ان ذلك عند جالينوس .. (٢)

د - الحوار والملامح المسرحيه :

واما الملاحظه الثالثة المتعلقة بحوار الحكايات فهي ان عبارة الحوار تميل في الغالب الى القصر والتركيز ، حتى انها تبدو مقصوده ، تؤدى دورها في دفع الحكاية وتطويرها حتى النهايه !

ويتضح ذلك خاصة في الحكايات التي تخلو من السرد أو تكاد ، لأن التطور القصصي في هذه الحكايات يتم كله من خلال الحوار فقط ، كما في هذه الحكايه التي تخلو تماما من السرد ، والتي تجمع بين الخليفه السفاح وأبي دلامه "قال ابو العباس أمير المؤمنين لأبي دلامه : سل !

قال : كلبا

قال (ابو العباس) : ويلك ما تصنع بالكلب ؟ !

قال : اصيد به

قال: فلك كلب

قال: ودابه !

قال: ودابه !

قال: وغلاما يركب الدابة ويصيد

قال: وغلاما

---

(١) أموق : احمق واجهل

(٢) القول في البغال ، ص ٩٩ - ١٠٠ ، تحقيق شارل بلا .

قال : وجاريه

قال : وجاريه !

قال : يا أمير المؤمنين ، كلب وغلام وجاريه ودابه ، هؤلاء عيال، ولا بد من دار

قال : ودار !

قال : ولا بد لهؤلاء من غلة ضيعه ،

قال : اقطعناك مائة جريب عامره ، ومائة جريب غامره ،

قال : وأى شيء الغامره ؟

قال : ليس فيها نبات !

قال : أنا - اقطعك خمسمائة جريب من فيافي بني أسد غامره ،

قال : قد جعلنا لك المائتين عامرتين كلها ، أبقي لك شيء ؟ !

قال : نعم أقبل يدك

قال : أما هذه فدعها ،

قال : ما منعت عيالي شيئا أهون عليهم فقدا منه " (١).

فالحكاية تطورت من خلال الحوار ، الذى يلاحظ أن عبارته تميل الى الايجاز والتركيز ، وان كان يثقلها تصدر الفعل " قال " وتكراره ، في بداية كل عباره ، وهو أمر يمكن ملاحظته في حكايات الجاحظ التي تقوم في الغالب على الحوار ، والجاحظ في ذلك مثله مثل اكثر الكتاب المتقدمين " يفرط في استعمال فعل القول ، اذا حدث عن غيره ، حتى لا تكاد تذهب صفحه الا وفيها طائفه من قال ، وما يشتق منه ، وربما وردت هذه الافعال متتابعه ، متجاوره فيثقل وقعها في السمع " . (٢)

وأما الملاحظه الرابعة المتعلقة بالحوار فهي أنه يبدو في معظم حكايات الجاحظ كما يقول الدكتور احسان عباس بحق " أقرب الى الطريقة المسرحية " (٣) .

---

(١) الحيوان ، ج١ ، ص ١٧٠

(٢) بطرس البستاني ، ادباء العرب في الاعصر العباسيه ، ج٢ ، ص ٢٨٢

(٣) ابو حيان التوحيدى ، ص ١٤٤ ، وهو يخص بالعباره حكايات البخلاء فقط .

وتظهر الملامح المسرحية واضحة في كثير من حكايات الجاحظ التي يغلب عليها الحوار ، فينعدم فيها السرد أو يكاد ، وتبدو الحكاية اشبه بمشهد مسرحي ، وذلك حين يحذف فعل القول المتكرر في صدر كل عبارة .

ومثال ذلك حوار هذه الحكاية التي تصور الحجاج وقد خرج ذات يوم فاصحر ، وحضر غداؤه ، فقال : اطلبوا من يتغدى معي فطلبوا فاذا أعرابي في شملة فأتي به .

فقال : السلام عليكم

الحجاج - هلم أيها الاعرابي

- قد دعاني من هو أكرم منك فاجبته
- ومن هو ؟!
- دعاني الله ربي الى الصوم ، فأنا صائم
- وصوم في مثل هذا اليوم الحار ؟!
- صمت ليوم هو أحر منه
- فافطر اليوم ، وصم غدا !
- ويضمن لي الأمير أن اعيش الى غد ؟!
- ليس ذاك اليه ،
- فكيف يسألني عاجلا بآجل ليس اليه ؟!
- انه طعام طيب !
- ما طيبه خبازك ولا طباخك ،
- فمن طيبه ؟!
- العافيه

الحجاج - بالله ما ان رأيت كاليوم ، اخرجوه (١) .

وقد دفع وضوح الملامح المسرحية في حكايات البخلاء بعض الباحثين المحدثين من امثال : شفيق جبري والدكتور محمد الصادق عفيفي الى

---

(١) البيان والتبيين ، ج٤ ، ص٩٨ . تحقيق عبد السلام هارون

وانظر ايضا في الكتاب نفسه ، ج٤ ، الحكايات : ص ٨٩ ، ص ٩٨، ص ٩٩

فالحكايات تبدو فيها اشبه بمشاهد مسرحيه ، لأنها تكاد تخلو من السرد .

اجراء دراسات مقارنه بينها وبين مسرحيه البخيل لموليير ، وأما المستشرق الفرنسي شارل بلا فقد لاحظ ان ثمة تشابها بين حكاية التربيع والتدوير ومسرحيات موليير فقال : " ومثل التربيع مثل روايات موليير (Moliere) ، لأننا نضحك مما فيه من دقة الملاحظات ، ثم اننا اذا تأملنا المسائل التي يطرحها المؤلف اجهشنا بالبكاء ، لعجزنا عن الجواب ". (١)

بيد ان هذا لا يعني أن شارل بلا ينكر وضوح الملامح المسرحيه في حكايات البخلاء ، لأنه يقول : انها " لا تخلو من روح تمثيليه ، حتى انه من الميسور أن تتخذ صفحه أو صفحات من هذا الكتاب (البخلاء)، وتخرج اخراجا بسيطا ، فتصبح روايات مسرحيه قصيره ، ولقد بلغني أن بعض التونسيين جربوا ذلك ، فنجحوا نجاحا تاما ".(٢)

---

(١) اصالة الجاحظ ، ص ٢٣

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٠ ، وقد اخرج باسم دلقموني بعض حكايات البخلاء على مسرح جامعة اليرموك ١٩٨٣ .

(٦) الزمان والمكان

لا يغفل الجاحظ في كثير من حكاياته عنصرى المكان والزمان اللذين تجرى فيهما الحكايه ، ويلاحظ أنه كلما مالت الحكاية الى القصر قلّت الاشارة اليهما ، بيد ان الجاحظ لا يغفلهما في الغالب اذا كان ذكرهما ضروريا لبناء الحكايه ، مهما تكن قصيره ، نحو " قال رمضان لأبي شعيب القلال - وأبو الهذيل حاضر - : أى شيء تشتهي ؟ وذلك نصف النهار ،في يوم من صيف البصره .

قال أبو شعيب : اشتهي ان أجيء الى باب صاحب سَقط (١) ، وله على باب حانوته اليه معلقه من تلك المبرزه (٢) والمشرجه (٣) ، وقد اصفرت وودكها يقطر من حاق السمن ، فآخذ بحضنها ، ثم افتح لها فمي ، فلا ازال كدما كدما ، ونهشا نهشا ، وودكها يسيل على شدقي ، حين ابلغ عجب الذنب .

قال ابو الهذيل : ويلك - قتلتني .. قتلتني ، يعني من الشهوه" (٤)

فذكر الزمان والمكان ضرورى لما تدور حوله الحكايه ، لأنّ المرء حين ينتصف النهار يحس بالحاجه الى تناول طعام الغداء ، وأخذ قسط من الراحه ، وذلك اذا كان اليوم من ايام صيف البصره الحاره ، ولذلك يُلاحظ ان الجاحظ كان حريصا على اثبات الزمان والمكان منذ البدايه ، بعيد السؤال مباشره " أى شيء تشتهي ؟ ! وذلك نصف النهار في يوم من صيف البصره " ، لأنه من خلال الزمان والمكان المحددين تبدو رغبة أبي شعيب مثيره للشهوه ، حتى انها دفعت أبا الهذيل الى القول : " ويلك ! قتلتني .. قتلتني " .

أما البيئات التي تجرى فيها الحكايات فيلاحظ أنها اربع

---

(١) سقط : ما لا خير فيه ، ولعله اراد حشوة الذبيحه واطرافها
(٢) المبرزه : التي وضع بها البرز أى التوابل
(٣) المشرجه : المشققه أو التي خالط شحمها بعض اللحم
(٤) الحيوان ، ج٥ ، ص ٤٧٥ .

الاولى - بيئة البصره ، وتدور فيها معظم حكايات الجاحظ ، حتى انه يمكن القول : أن الجاحظ في المقام الأول هو قاص مدينته ، الذى لا يفتأ يشير الى ابرز معالمها وضواحيها واشهر شخصياتها ولذلك يشعر القارىء أحيانا أن الجاحظ يعنيها وان لم يسمها في الحكاية ، وكذلك من خلال الايحاء وضمير المتكلم ، نحو قوله في مطلع بعض الحكايات : " كان عندنا بالمدينة رجل قد كثر عليه الدين ... الخ "(١) ، أو بينا داود بن المعتمر الصبيرى جالس معي ، اذ مرت امرأه جميلة ... الخ " (٢) أو " سمعت ابا حكيم الكيمائي وهو يقول لثمامة بن اشرس ... "(٣) ، أو " قال اسماعيل بن غزوان بكرت اليوم أبي عمران فلازمت الجادة ... الخ "(٤)

ونخرج من دراسة الحكايات التي تدور في بيئة البصرة بملاحظات عده ، من ابرزها ان الاسناد فيها قليل ، لأن معظمها مستوحى من تجارب الجاحظ المباشرة مما يقع له أو يشاهده ، وان انتماء الجاحظ في هذه الحكايات غير المسندة الى البصرة قوى ، حتى انه لا يشير اليها في بعض الاحيان الا مسبوقة بضمير المتكلم نحو " كان ابو سعيد المدائني اماما في البخل عندنا بالبصرة "(٥) الخ أو " كان لنا بالبصرة قاض يقال له .... الخ "(٦)

أما اذا كانت الحكاية التي تدور في بيئة البصرة قد سمعها الجاحظ من شيوخه أو من سواهم ، فيلاحظ أنه يثبت الاسناد في بدايتها ، نحو " قال ابو عبيده ، لسعت اعرابيا عقرب بالبصره ، فخيف عليه ... "(٧) ، و " الاصمعي قال : اخبرني رجل من اهل البصره ، قال : ارسل شيخ من ثقيف ابنه ... الخ "(٨)

ومن الملاحظات المتعلقة بالحكايات التي تدور في البصره أن الجاحظ يحاول فيها احيانا تحديد ملامح المكان ، أو الاشارة الى بعض معالمها المشهورة ، ولعل هذا يعود الى أنه يصدر في الحكاية عن مجاله القصصي ، فهو ابن

---

(١) الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٨٥ (٢) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٣٥
(٣) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ١٧١ (٤) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٤٦٩
(٥) البخلاء ، ص ١٨
(٦) الحيوان ، ج٣ ، ص ٤٦٩
(٧) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٣٦٨
(٨) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٣٦٨

البصره الذى عاش معظم حياته فيها ، ومثال ذلك حكاية الزيادى ، فهو فيه يحاول تحديد الدار التي باعتها الشخصية في البصرة " قلت : بعت دارك وحظك من دار جدك زياد بن ابي سفيان ، وتركت مجلسك في ساباط غيث (١) ، واشرافك على رحبة بني هاشم ، ومجلسك في الابواب التي تلي رحبة بني سليم ، وجلست على هذا النهر .. الخ " (٢) .

وهذا التحديد لموقع الدار في البصره يبدو مفصلا ، وذلك اذا لاحظنا أنه يتم من خلال حكاية قصيرة .

ونحو محاولته تحديد أحد مساجد البصره في بداية احدى الحكايات " بينا أنا جالس يوما في المسجد مع فتيان من المسجديين ، مما يلي أبواب سليم ، وأنا يومئذ حدث السن ... الخ ".(٣)

ويلاحظ هنا أنه كرّر الاشاره الى معلم بعينه من معالم البصره في كلتا الحكايتين السابقتين وهو " أبواب بني سليم " .

وقد يكتفي الجاحظ احيانا بالاشاره الى أحد المعالم المشهورة في بيئة البصره ، امعانا في التحديد ، نحو اشارته الى نهر المبارك ، والى دير قريب ، وذلك في بداية احدى الحكايات " خرجت امشي في المُبارك (٤) ، أريد دير الربيع ، ولم أقدر على دابه ... الخ " (٥) ، ونحو اشارته الى " الخُرَيبه " في حكاية اخرى :

" حدثني بعض اصحابنا عن شيخ من أهل الخريبه ، (٦) قال : كنت أحب البقلاء ... الخ " (٧) .

واكثر الحكايات التي تدور في بيئة البصره يشير الى الزمن ،

---

(١) الساباط : السقيفه بين دارين ، تحتها طريق نافذه

(٢) الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٨

(٣) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٦٠

(٤) المبارك اسم نهر بالبصره ، احتفره خالد بن عبد الله القسرى

(٥) الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٤٦ (٦) الخريبه : موضع بالبصره

(٧) الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٥٦ .

والجاحظ اذ يفعل ذلك فانه يميل شيئا ما الى التحديد ، فلا يكتفي بالاشارة الى الوقت من النهار فقط ، كأن يقول مثلا : في الظهيره أو في الصباح ، أو في الليل ، وانما يشير احيانا الى الفصل فيسميه (١) ، وقد يشير الى الشهر في أحوال قليله ، اذا كان ذلك ضروريا للحكايه ، ويخدم الحدث فيها ، نحو ابتداثه حكاية الحزاميّ بقوله " أما أبو محمد الحزامي فانه .. رآني مره في تشرين الأول ، وقد بكر البرد شيئا ، فلبست كساء لي قومسيا خفيفا ، قد نيل منه فقال لي ... الخ " (٢)

وأما البيئة الثانية التي تلاحظ في الحكايات فهي بيئة العراق عامه ، باستثناء بيئة البصره ، فبعض حكايات الجاحظ يدور في مدن عراقيه اخرى ، مثل الكوفه نحو : " بينا أبو يوسف القاضي يسير بظهر الكوفه ، وذلك بعد ان كتب كتاب الحيل ... الخ " (٣) أو مدينة بغداد نحو " حدثني ابراهيم بن هانئ قال : حدثني سعيد بن جابر قال : لما كادت الاجناد تحيط ببغداد من جوانبها ، قال لنا المخلوع :... الخ " (٤) أو بيئة الموصل نحو " قال ابراهيم بن داحه كان في طريق الموصل سكة بريد ، وبقرب السكه مسجد ، ومستراح للمسافر ... الخ " (٥)

وأما البيئة الثالثه فهي بيئة فارس ، حيث يدور بعض الحكايات في مناطق أو مدن فارسيه مشهوره .

ولعل مرو هي اكثر المدن الفارسيه ترددا في حكايات الجاحظ ، فقد شهر الجاحظ من خلال بعض الحكايات ببخل اهلها تشهيرا لا يمحّى من ذهن دارس أدبه ، نحو قوله : " يقول المروزي للزائر اذا أتاه ، وللجليس اذا طال جلوسه : تغذيت اليوم ؟ فان قال : نعم ، قال : لولا أنك تغذيت لسقيتك خمسة أقداح ... فلا يصير في يده [illegible] قليل ولا كثير " (٦) ، و " قال ثمامه : لم أر الديك في بلدة قط ، الا وهو لافظ ، يأخذ الحبّة بمنقاره ،

الا ديكة مرو ، فاني رأيت ديكة مرو ... الخ " (٧)

و " من اعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشيختنا على وجه الدهر ، ذلك أن رجلا من أهل مرو كان ... الخ " (٨) .

---

(١) انظر الحيوان ، ج٥ ، ص ٤٧٥ (٢) البخلاء ، ص ٥٩

(٣) الحيوان ، ج٣ ، ص ١١ (٤) المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٣٨١

(٥) القول في البغال ، ص ٣٩ ، تحقيق شارل بلا (٦) البخلاء ، ص ١٧ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٨ . (٨) المصدر نفسه ، ص ٢٣ .

وثمة حكايات قليله تدور في الاهـواز ، نحو " خبرني أبو اسحـق ابراهيم بن سيـار النظام قال : .. قصدت الى فرضة الاهواز ، أريـد قصبة الاهـواز ... الخ " (١) .

وأما البيئـة الرابعة في الحكايات فهي بيئـة الشام والحجـاز ، فثمة حكايات قليله جدا تدور في بيئة الشام نحو : " حدثني ابراهيم بـن السندى قال : لما كان أبي بالشام واليـا ، أحب أن يسوى بين القحطاني والعدنانـي قـال : ... الخ " (٢) .

أو تدور في مكـه نحو : " كانت خليده امرأه سوداء ذات خلق عجيب ، وكـان لها دار بمكـه تكريها أيام الحـاج ... الخ " (٣) ، أو تدور في المدينـه نحـو " علق رجل من أهل المدينه امرأه فطـال عناؤه وشقاؤه بها ... الخ " (٤)

وقد تجمع الحكاية الواحدة بين بيئتين اذا كان المتحدث فيهـا يحكي حكايه حدثت له في اثناء السفر ، أو الرحله ، كالجمع بين البيئـه العراقيه والشاميه : نحـو " قال الشرقي : خرجت من الموصل ، وأنا أريـد الرقـه مستخفيا ، وأنا شاب خفيـف الحال ، فصحبني من اهل الجزيره فتى (٥) الخ "

أو الجمع بين البيئه العراقيه والفارسيه نحو " قال الهامـرز : قال صاحب الاهـواز ... لما كنت في بعض الطريق سقطت من ردائـي دجاجـه ، فلحقني رجل ، فقال : هذه سقطت من ردائك ، فأمرت له بدرهم ، ثم لحقـني بالأُبلّـة (٦) ، فقال : أنا صاحب الدجاجـه فامرت له بدراهم ، ثم لحقـني بالاهواز ، فقال ... الخ " (٧) .

وثمة ملاحظة متعلقة بحكايات البيئات الثلاث الاخيرة ، وهي أنهـا

---

(١) الحيـوان ، ج٣ ، ص ٤٥١
(٢) المصدر نفسـه ، ج٥ ، ص ١١٧
(٣) مفاخرة الجوارى والغلمان ، ج٢ ، ص ١٣٠ ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون . (٤) المصدر نفسه ، ص ٦٠ – ٦١ ، تحقيق شارل بلا
(٥) البيان والتبيين ، ج٣ ، ص ٤٥ ، تحقيق عبد السلام هارون
(٦) الأُبلّـه : بلد بالعراق على شاطيء دجلـه .
(٧) الحيـوان ، ج٦ ، ص ٣٦٠ .

مسنده ، ويرويها الجاحظ عن غيره ، وذلك على النقيض من اكثر حكاياته التي تدور في بيئة البصره ، والتي يرويها دون اسناد !

كذلك من الملاحظات المتعلقة بحكايات البيئة ان الاشاره الى الزمان والمكان فيها عامه مقتضبه ، ولا تميل الى شيء من التحديد أو الوصف وقد نفتقد هذه الاشاره في بعض الحكايات !

ويعود ذلك الى ان الجاحظ قد سمع هذه الحكايات سماعا من غيره ، ولم يستوحها من تجاربه أو مشاهداته الخاصه .

وأما حكايات الجاحظ التاريخيه فتفتقد فيها الاشارة الى الزمان والمكان ، ولكن الجاحظ يوحي بهما من خلال الاسماء والقرائن التاريخيه التي تنطوي عليها الحكايات في الغالب ، فحين تبدأ احدى حكاياته التاريخيه على هذا النحو " دخل العماني الراجز على الرشيد ، لينشده شعرا ، وعليه قلنسوه طويله وخف ساذج فقال ... الخ " (١) ، يبدو واضحا ان الحكايه تدور في زمن الخليفة هارون الرشيد ، وان الشاعر العماني حين دخل عليه ، قد دخل قصره ببغداد لينشده الشعر ، وحين تبدأ حكاية اخرى على هذا النحو : " وفد ربيعه بن عسل على معاويه فقال معاويه : حاجتك ؟ ! .. الخ " (٢)

نفهم ان الحكايه حدثت في زمن الخليفة الأموى معاويه وان ربيعه وفد على قصره بدمشق .

واما اذا دارت الحكايه بعيدا عن القصر والمدينه وفي ظروف خاصه فيلاحظ أن الجاحظ يشير الى الزمان والمكان ، كما في حكاية الحجاج والاعرابي فهي لم تدر في مقر الولايه ، وانما في الصحراء ، وفي الظهيره وقت غداء الأمير ، ومن ثمّ بدأ الجاحظ بالاشارة الى ذلك " خرج الحجاج فاصحر ، وحضر غداؤه فقال ... الخ " (٣) .

وبعد .. فان بيئات حكايات الجاحظ هي : العراق وفارس والشام والحجاز ، وأما البيئات الاسلاميه الاخرى مثل : مصر والمغرب والاندلس فهي مفقوده .

---

(١) البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٩٥ . تحقيق عبد السلام هارون .

(٢) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٢٥٩ (٣) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٩٨ .

٧) الحبكـــــه والصـــــراع

لا تقـوم حكايـــات الجاحـــظ كلها على الحبكه في بنائها ، وانما ثمة حكايـــات كثيره تقوم علي تقديم شخصيـــة طريفـة ، أو تصويــر عاده شـــاذه ، أو صفـة مستهجنـــه ، أو حدث نادر الوقوع .

أما الحكايات التي تعتمد الحبكه في بنائها فان ابرز ما ينبغـــي ان يلاحظ فيها شيئان ، هما :
الشخصيـــه والحدث الـــذى يوقعها في مأزق !

واذا كان الملاحظ أنّ شخصيات الجاحظ في الغالب ليست نمـــاذج نمطيه ، تمثل الواحدة منها فكرا أو موقفا أو فئة معينه ، وانما هـــي شخصيات واقعيه لها قسماتها الخاصـه المتمايزه - فانه يمكن القول هنـــا : ان ما يقـع لهذه الشخصيات من احداث في ظلال الظــروف التي تكتنفها يبـــدو واقعيا ممكنا ، كما ان شعـور الشخصية بأنها تواجـه مشكلة أو مأزقا - مهما يكن الحدث الذى يقع لها بسيطا عاديا - يبدو حقيقيا ومتّسقًا مع طبيعـــة تكوينها الخاصـة !

وتنقســم الحكايات من حيث الاسلوب الذى ينتهجـه الجاحظ في الحبكـه قســـين :

قسم من الحكايـــات يبدأ الجاحظ الحبكة فيه اولا بتصوير الشخصية ، حـــتى اذا اطمأن الى وضوح ملامحهـــا في اذهاننــا ، ينتقـل بعد ذلك الى ما يقـــع لها من حـــدث ، والذى من شأنه ان يوقعها في مأزق حرج ، ومثال ذلـــك حكاية القاضـي عبدالله بن سَـوَّار ، فهو يبدأ الحكاية بتقديم الشخصيــــة على نحو ما رأينا عند الحديث عن الشخصيـــات - ، ثم بعد ان يفــــرغ من ذلك ، نرى القاضي الزِمِّيت الرَكين ، وقد أخذ وضعه الغريب في الجلـــوس

بين اصحابه ذات يوم ، " بينا هو كذلك .. واصحابه حواليه ، وفي السماطين(١) بين يديه ، اذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المكث، ثم تحول الى مُوْق عينيه ، فرام الصبر في سقوطه على المؤق ، وعلى عضه ، ونفاذ خرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على انفه ، من غير ان يحرك ارنبته ، أو يغضّن وجهه ، أو يذب بأصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله وأوجعه ، واحرقه ، وقصد الى مكان لا يحتمل التغافل ... الخ " (٢)

هناك شعر القاضي الزميت الركين أنه وقع في مأزق حقا ، فهو من جهة لم يعد يحتمل لسع الذباب ، وهو من جهة اخرى يتحرّج من ان يعمد مباشره الى ذب الذباب عنه بيده ، كما يفعل الناس في العادة ، مخافة ان تهتز شخصيته المعهودة أمام اصحابه في مجلسه ، لكن الذباب - هذا المخلوق الصغير - يضطره اخيرا الى الدخول في الصراع معه !

وهذا الاسلوب في الحبكه ، أي الابتداء اولا بتقديم الشخصيه ، ثم اتباع ذلك بالحدث الذى يوقعها في المأزق ، هو اسلوب يلجأ الجاحظ اليه في بعض حكايات الحبكه ، نحو حكاية زير الفواني عيسى بن مروان ، فهو يبدأها بوصف الشخصية وتصوير ملامحها المميزه ، ثم يأتي بعد ذلك على ذكر الحدث الذى يوقعها في مأزق ، فهو يعشق ذات يوم امرأه ، ثم يحتال حتى يتمكن من ان يخلو بها ، لكنه " لما خلا معها في بيت ، وارادها على مايريد الرجل من المرأه ، امتنعت ، فوهب لها ، ومنّاها ، واظهر تعشقها ، وراغها بكل حيلة ، فلما لم تجب ، قال لها : خبريني ما الذى يمنعك ؟!

قالت : قبح انفك ، وهو يستقبل عيني وقت الحاجه ، فلو كان انفك في قفاك لكان اهون عليّ .. " (٣) ، حينذاك يأخذ عيسى بن مروان يصارع عامدا الى التحايل ، عله يفلح في الخروج من المأزق فينال غرضه !

ومن اشهر الحكايات التي انتهج الجاحظ فيها هذا الاسلوب في الحبكه حكاية التربيع والتدوير ، فهو يبدأها بتصوير شخصية احمد بن عبد الوهاب

---

(١) السماطين : الصف

(٢) الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٤٣

(٣) المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤

من الناحية الجسمية والفكرية ، حتى اذا اتضحت ملامحها ، وشعر
القارىء انه أمام شخص يدّعي انه بلغ الذروة في العلم ، هناك يأتي
الحدث ، وهو عشرات الاسئلة الفكرية والعلمية الجاده ، التي كانت تبحث
عن اجوبه وحلول في ذلك العصر ، ومن ثَمّ يشعر القارىء من خلال الايحاء
بأن احمد بن عبد الوهاب قد وقع في مأزق شديد ، حتى انه لا يستطيع
ان يحير جوابا ، فكأنه يستغرق في الاصغاء والتفكير ذاهلا ، وفكره
يصارع محاولا ادراك الأجوبه !

وقد يلجأ الجاحظ الى هذا الاسلوب في الحبكه والشخصية
التي تصورها الحكاية حيوانيه ، كما في حكاية " البغل والفرس " ، فهو
يبدأ الحكايه بتصوير شخصية خاصه لبغل من البغال في سكة الموصل ، يتميز
بسلوك مشهور عنه ، ثم يتبع ذلك بحدث يوقعه في مأزق شديد ، يضطره
الى الهرب ، والأقلاع عن سلوكه الشاذ (١) .

وحكايات هذا القسم الذى تسبق الشخصية فيه الحدث قليلة اذا قيست
بحكايات القسم الثاني الذى ينتهج الجاحظ فيها اسلوبا مغايرا من
حيث الحبكه !

كذلك نجد الجاحظ في حكايات هذا القسم يضطر الى المباشرة
في رسم الشخصيات ، لأنه يبدأ بتقديمها اولا قبل الحدث ، ولذلك يلاحظ
انه يصفها بعبارات تقريريه ، مستعملا في الغالب صيغة الفعل الماضي
الناقص " كان " ، ومن حكايات هذا القسم الاخرى :

حكاية سكر الشطرنجي (٢) ، وأبي حكيم الكيمائي (٣) ، وحكاية
النظام وعدم ايمانه بالطيره (٤) .

أما القسم الثاني من حكايات الحبكه فهي على النقيض
من حكايات القسم السابق ، من حيث الاسلوب ، فالجاحظ يبدأ الحكاية
أولا بحدث ما يقع للشخصيه ، التي تبدو لنا غامضه ، وعلى الرغم
من ان الحدث قد يبدو عاديا ، غير اننا ما نلبث ان نكتشف انه يترائ

---

(١) انظر القول في البغال ، ص ٣٣ . تحقيق شارل بلا

(٢) الحيوان ، ج٤ ، ص ١٤٧

(٣) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٣٨٥

(٤) البخلاء ، ص ٤١ .

للشخصية مأزقا ، فتأخذ تضطرب امامه ، وتصارع للخلاص منه ، ومن خلال صراعها تتكشف طبيعتها شيئا فشيئا .

ومثال ذلك حكاية خالد بن يزيد او خالويه المكدى ، فهي تبدأ بحدث عادى يقع للشخصيه التي لا نعلم من أمرها شيئا ، فخالويه ينزل في شق بني تميم وهم لا يعرفون حقيقة شخصيته ، ويتفق ذات يوم ان يقف عليه

" سائل وهو في مجلس من مجالسهم ، فأدخل يده في الكيس ، ليخرج فلسا - وفلوس البصره كبار - فغلط بدرهم بغلي ، فلم يفطن حتى وضعه في يد السائل ، فلما فطن استرده ، واعطاه الفلس " (١) .

وهنا يحاول الحضور من بني تميم احراجه قائلين : " هذا لا نظنه يحل وهو بعد قبيح " (٢) ، فيشعر حينذاك خالويه انه وقع في مأزق ، فيأخذ يحاول تبرير ما فعل أمامهم ، ليتجاوز الاحراج الذى وقع فيه ، مما يضطره الى ان يتحدث عن شخصيته حتى تتكشف وتغدو في غاية الوضوح .(٣)

وقد اتبع الجاحظ اسلوب الحبكه هذا في حكاية عروه بن مرشد فهي تبدأ بحدث بسيط ، هو استنجاد الاماء بالضيف عروه ، ليفتح باب منزل يظن أنّ بداخله لصا ، وعلى الرغم من ان الأمر يبدو عاديا لمن يتحلى بقدر كاف من الرجولة ، فإنه يبدو للشيخ عروه ورطة ، فهو من جهة يخشى في اعماقه مواجهة اللص المزعوم ، وهو من جهة اخرى لا يستطيع ان يتقاعس ، ويظهر جبنا أمام الاماء !

وهذا الاسلوب في الحبكه ، أى تقديم الحدث على الشخصيه يلجأ اليه الجاحظ في اكثر حكايات العقدة ، مثل :

حكاية ابي كعب القاص (٤)، وسهل بن هارون والديك ،(٥) وحكاية أبي لقمان الممرور والجزء الذى لا يتجزأ (٦) ، والقيسي واليماني(٧).

---

(١) البخلاء ، ص ٤٦ (٢) المصدر نفسه ، ص ٤٦

(٣) على نحو ما رأينا عند الحديث عن الشخصيات

(٤) الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٤

(٥) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٣٧٥

(٦) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٣٧

(٧) المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٣٩٣

والجانحه والمغني [١] ، والجبان والتركي [٢] ، ومالك وعروسه [٣].

وعلى النقيض من حكايات القسم السابق ، يلاحظ ان الجاحظ لا يضطر الى شيء من المباشره في رسم شخصيات الحكايات في هذا القسم، وانما يتركها وهي تصارع المأزق ، تتكشف طبيعتها وملامحها من تلقاء نفسها ، وذلك من خلال السلوك والحوار .

ومن جهة اخرى فالمأزق التي تقع فيها شخصيات الجاحظ يلاحظ أنها نوعان بغض النظر عن الاسلوب الذى يتبعه الجاحظ في الحبكه .

أما النوع الاول - فيبدو المأزق الذى تقع فيه الشخصيه مأزقا حقيقيا لأى شخص لو مرّ به الحدث ، نحو المأزق الذى واجهه أبو كعب القاص حيث وقف أمام المصلين ليقص ، فتحرك بطنه بغتته [٤] ، أو المأزق الذى وقع فيه الخصي اذ فجأه سيده ، وقد شد يدى شاة يكومها [٥] !

وهذا النوع من المأزق يلاحظ في حكايات عده [٦] .

وأما النوع الثاني من المأزق فيبدو خاصا بالشخصيه وحدها ، لأنه لا يبدو مأزقا حقيقيا للقارئ لو صادفه الحدث في الغالب ، فوقوع الذباب على وجه القاضي عبدالله بن سوار ، وتحرجه من رفع يده ، ليذبه لا يبدو مأزقا لغيره ، لأن الحدث عادى جدا ، يصادفنا في حياتنا اليوميه كثيرا ، ولا نرى غضاضة أو حرجا في رفع ايدينا لنذبه !

والمأزق الذى يقع فيه عروة بن مرثد لا يبدو مأزقا لغيره ، ممن يملك قدرا عاديا من الشجاعه .

والمأزق الذى يقع فيه سهل بن هارون حين يضطره اصحابه الى تقديم طعام الغداء لا يبدو لغيره مأزقا ممن يتصف بقدر عادى من الكرم

---

(١) مفاخرة الجوارى والغلمان ، ص ٦٠ - ٦١ تحقيق شارل بلا
(٢) فضائل الاتراك ، ص ٨٤ ، رسائل الجاحظ ، ج١ ، تحقيق عبد السلام هارون
(٣) البيان والتبيين ، ج٢ ، ص ٢٢٥ . تحقيق عبد السلام هارون .
(٤) المصدر نفسه ، ج٣، ص ٢٤ (٥) المصدر نفسه ج١ ، ص ١٧٢
(٦) مثل حكاية القيسي واليماني (الحيوان، ج٥،ص ٢٩٣ ، والجاحظ والذباب (الحيوان ، ج٣، ص ٣٤٦) ورجل وذئب (الحيوان ، ج٢ ،ص ٢١٧) والفتى والي مكه (البيان والتبيين ،ج١، ص ٣٩٣ ، تحقيق عبد السلام هارون).

والشهامه (١) .

ومعنى ذلك ان الحدث في هذا النوع من المأزق هو غير متوقع ، لأنه يضيء جانب ضعف تعاني منه الشخصيه ، مما يجعلنا ندهش لذلك .

أما الصراع في حكاية الحبكه فيبدأ حين تشعر الشخصية بمأزقها ، فتأخذ تصارعه ، محاولة الخلاص منه ، ويبدو في حكايات الحبكه أن الجاحظ يعني بالصراع ، ويقدّر ما يضفيه على الحكايه من حيوية وتأثير !

وثمة أمور بارزه تتعلق بالصراع تبدو في حكايات الحبكه : منها أن الجاحظ يحرص خلال الصراع على أن يكون ما يصدر عن الشخصيه من قول أو فعل خلال محاولتها الخروج من مأزقها واقعيا ، ومتلائما في الغالب مع طبيعتها النفسية والفكرية !

ومنها ان الجاحظ يعالج الصراع في تأن ، محاولا استثمار اكبر قدر من الاحتمالات الممكنه الوقوع في اثناء محاولة الشخصية الخروج من مأزقها مما يزيد في تصعيد حدة الصراع ، واطالة مداه .

وهذا يقود بدوره الى ملاحظة اخرى ، وهي ان الجاحظ - في سبيل تصعيد حدة الصراع ، واطالة مداه - يعمد في الغالب الى اسلوب التَرْداد أو التكرار ، أى ان الشخصية ، وهي تصارع الحدث ، تحاول أن تخرج من المأزق فتخفق ، ومن ثم تضطر الى المحاولة مرة أخرى ، وعلى هذا النحو تتكرر منها محاولات عده ، قبل أن يؤدى بها الصراع الى غاية ما ، واسلوب التكرار هذا واضح عند الجاحظ في اثناء تصويره للصراع في معظم حكايات الحبكه تقريبا ، فأبو كعب القاص مثلا حين يكده بطنه بغته أمام المصلين ، يضطر الى أن يكرر المحاولة تلو الاخرى للخروج من مأزقه ، وهو في كل مره يكرر الطلب الى المصلين ان يرددوا عبارة تتناسب والموقف الذى يقفه " قولوا جميعا لا اله الا الله ، وارفعوا بها اصواتكم ".(٢)

---

(١) انظر الحكايه في الحيوان ، ج٢ ، ص ٣٧٥

(٢) الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٤ .

وتتبدى الملاحظات السابقة جميعها . اذ نتمعن في صراع أية حكايه من حكايات الحبكه ، نحو هذه الحكايه التي يصور بها الجاحظ مأزقا وقع فيه ذات يوم مع الذباب ، وهو مأزق يشبه في طبيعته واسلوب صراعه المأزق الذى وقع فيه القاضي ابن سوار :

" خرجت امشي في المُبارك (١)، أريد دير الربيع ،ولم أقدر على دابه ، فمررت في عشب أشَب(٢)، ونبات ملتف ،كثير الذبان ،فسقط ذباب من تلك الذبان على أنفي، فطردته ،فعاد الى مُوْق عيني ، فزدت في تحريك يدى ! فتنحى عني بقدر شدة حركتي، وذبّي عن عيني - ولذبان الكلإ والغياض والرياض وقع ليس لغيرها - ، ثم عاد اليّ فعدت عليه ، ثم عاد اليّ ، فعدت بأشد من ذلك ، فلما عاد استعملت كمي فذببت به عن وجهي ، ثم عاد ، وأنا في ذلك احث السير ، أؤمّل بسرعتي انقطاعه عني ، فلما عاد نزعت طيلساني من عنقي ، فذببت به عني ، بدل كمي ، فلما عاود ، ولم اجد له حيلة استعملت العدو فعدوت منه شوطا تاما ، لم اتكلف مثله مذ كنت صبيا " . (٣)

---

(١) المبارك : اسم نهر بالبصره ، احتفره خالد بن عبد الله القسرى، ويمشي فيه أى في شاطئه .

(٢) اشب : ملتف

(٣) الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٤٦ ،

وانظر ايضا صراع عبد الله بن سوار مع الذباب : فهو يتشابه مع صوره صراع الجاحظ له ، فهو يبدأ على هذا النحو : " اطبق جفنه الاعلى على جفنه الاسفل ، فلم ينهض ، فدعاه ذلك الى أن والى بين الاطباق والفتح فتنحى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد الى موقه بأشد من مرته الاولى ... فحرك اجفانه ، وزاد في شدة الحركه ، .. فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد الى موضعه ... الخ (الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٤٣) .

٨ - نهايــة الحكايــة وقفلتهــا

يولي الجاحظ النهايه في حكاياته قدرا كبيرا من عنايته ويتضح ذلك ، حين يميز الدارس بين نوعين من الحكايات : نوع يقوم على الحبكه ، وآخر لا يعتمدها في بنائه .

أما حكايات الحبكه فان الاحتمالات التي ستؤول اليها في النهايه تكون في تصور القارئ ، وذلك من خلال تفاعله مع الصراع الذى تخوضه الشخصيه ضد الحدث ، وهي تنشد الخلاص من مأزقها ، بيد أنه لا يكون يدرى في اثناء ذلك الاحتمال الذى ستنتهي اليه الحكايه حقا ، وانما يكون بين احتمالات شتى !

على أننا نجد الجاحظ يختار في الغالب من بين الاحتمالات المتعددة التي يمكن أن يتمخض عنها الصراع الاحتمال الاكثر ملاءمه لطبيعة ما تدور حوله الحكايه ، والذى من شأنه ان يوفر لخاتمتها قدرا من الاثارة والتأثير في النفس ، ففي حكاية عروه بن مرشد مثلا يكون في تصور القارئ - والشخصيه تصارع مأزقها - احتمالات عده للنهايه ، وهي : أن عروه سيتجرأ ويفتح الباب ، أو أنه سيظل محجما بسبب جبنه ، أو ان عوامل خارجيه ستتدخل فتفتحه ، لكنه في الوقت نفسه لا يكون يدرى على وجه التحقيق أى احتمال منها ستؤول اليه الحكايه ، وان يكن يرجح أحد الاحتمالين الاولين ! حتى اذا مضى في قراءة الحكايه فانه يفجأ بتدخل عامل لم يكن في حُسبانه ، حين تندفع احدى الاماء ، وتفتح الباب(١)

ويختار الجاحظ في الغالب لحكايته النهايه المثيره والمفاجئه ، ويلاحظ أن معظم الشخصيات في حكايات الحبكه يخفق في النهايه في الخروج من مأزقه ، وينتهي صراعه للحدث على غير ما يرجو ، اذ يفتضح أمره أمام من يكون على مقربه منه يرى ويسمع ! فأبو كعب القاص مثلا يخفق في الخروج من مأزقه في سلام ، ويقوم الشيخ بفضحه أمام المصلين ! (٢) والقاضي

---

(١) انظر الحكايه الحيوان ، ج٢ ، ص ٢٢٠ (٢) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٢٤ .

عبد الله بن سوار يصارع الذباب صراعا ممضا ، ولكنه يخفق في الخروج من مأزقه ، ويضطره الذباب الى ان يذب عن نفسه بيده ، فيغلبه وهو الزميت الركين المعجب بنفسه ، ويفضحه أمام اصحابه ، ويجبره على الاعتراف بالهزيمة !

" زاد في شدة الحركه ، وفي فتح العين ، وفي تتابع الفتح والاطباق ، فتنحى (الذباب) عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد الى موضعه ، فما زال يلح عليه ، حتى استفرغ صبره ، وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدا من ان يذب عن عينيه بيده ، ففعل وعيون القوم اليه ترمقه ، وكأنهم لا يرونه ، فتنحى عنه بقدر ما ردّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد الى موضعه ، ثم الجأه الى أن ذب عن وجهه بطرف كمه ، ثم الجأه الى أن تابع بين ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين من حضرة من امنائه وجلسائه ، فلما نظروا اليه قال : اشهد ان الذباب ألحّ من الخنفساء وازهى من الغرابه واستغفر الله فما اكثر من اعجبته نفسه ، فاراد الله عزوجل أن يعرفه من ضعفه ما كان مستورا ، وقد علمت أني عند الناس من أزمت الناس ، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه " (١) .

ومن حكايات الحبكه التي تخفق الشخصيات خلالها في تجاوز مأزقها في النهايه : حكايه روح بن الطائفيه والغلام (٢) وعيسى ابن مروان (٣) والجاحظ والذباب (٤) وقاسم التمار والجاريه (٥)، وسكر الشطرنجي (٦) ، ومعاويه وربيعه (٧) .

وثمة شخصيات قليله في حكايات الحبكه تفلح في التغلب على ما يصادفها من مشكلات في النهايه ، ويبدو في الحكايات القليله التي تصور ذلك ، أن موطن الاثاره والمفاجأه في الخاتمه هو نجاح هذه الشخصيات في الخروج من مآزقها ، مثلما تحاول وترجو ، لأن القارىء من خلال تفاعله مع الصراع التي تخوضه الشخصيات يكون لا يتوقع لها أى نجاح أو نجاة ، وانما يتوقع لها الهلاك أو النهايه الوخيمه ، ومثال ذلك حكاية الفتى ووالي مكه . فالقارىء فيها يتوقع للفتى الهلاك على يد الوالي الصارم

(١) الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٤٣ (٢) المصدر نفسه ، ج٦ ، ص٤٩ (٣) المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٣٦٣ (٤) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٣٤٦ (٥) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٦٢ .

(٦) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٤٦٩

(٧) البيان والتبيين ، ج٢ ، ص ٢٥٩ . تحقيق عبد السلام هارون .

ذلك ان الفتى يجيب الوالي بمنطق جرئ ، ولكنه يأتي في النهايه بما يحرك عطف الوالي نحوه ، فيعفو عنه قائلا :

"تكلم حتى ينفسك فكاك" (١) .

وفي حكاية " النظام وعدم ايمانه بالطيره " ، يبدو النظام في بلاد الاهواز غريبا مفلسا ، تتوالى عليه أمور ، يعدها كلها نذر شؤم ، حتى يلجأ اخيرا الى خان ، وبينا هو جالس فيه ، متطير النفس ، منقبض القلب ، يتوجس الشر ، وقد أخذ الجوع والبرد منه كل مأخذ ، وهو يهتف " من لي بالموت ! " اذ بالباب يطرق بغتة ! فيظن أنه عدو ، ويتوقع الهلاك ، ولكن ليفجأ بالفرج وبالمال يأتيانه من حيث لا يحتسب ! (٢) .

وفي بعض الحكايات يلاحظ ان الشخصيه تنجو من مأزقها ، لتقع فيه شخصيه شريره ، تكون هي سبب المأزق في البدايه ، نحو حكاية القيسي واليماني (٣) ، وحكاية " علمه حيلة فوقع في اسرها" (٤) ، فكأن الجاحظ فيها يجازي الشرير بما يستحق في النهايه .

ومهما تبد النهايه في حكاية الحبكه مثيره ومفاجئه ، وسواء أكانت الحكايه تنتهي باخفاق الشخصيه في الخروج من مأزقها أم تنتهي بنجاحها فان الجاحظ يحرص في الغالب على الا تخرج عن نطاق الممكن ، وعلى أن تبدو مسوغه ، لا يشعر القارئ فيها بشيء من الافتعال ، أو أن الخروج من المأزق أو الاخفاق في ذلك يتم بمفاجأه ضخمه غير متوقعه !

بيد أننا مع ذلك لا نعدم الحكايه التي تنتهي بالشخصيه نهاية محزنة غير متوقعه ، نحو حكاية الخصي ومولاه . فالقارئ يشعر فيها ان اختلاط ضميرى الغائب المفرد في النهايه خلال الاشاره الى السيد والخصي

---

(١) البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٣٩٣ .

(٢) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٤٥١ .

(٣) المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٣٩٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ١٧١ .

اللذين يضمهما الموقف الحرج يجعل المقصود في بعض العبارات غامضا ، فضلا عن ان انتهاء الحكاية بموت الخصي على النحو السريع الذى تصوره نهاية الحكاية يبدو غير مقنع (١) !

كذلك لانعدم الحكاية التي تنجو الشخصية فيها من مأزقها الخطر بمفاجأة ضخمة ، تقوم على المصادفة النادرة الوقوع ، نحو حكاية " رجل وذئب " التي تصور رجلا في الصحراء ، وقد عرض له ذئب ، ظل يداوره ، حتى أيقن اخيرا بالهلاك ، وفي اللحظة التي يتهيأ فيها الذئب للانقضاض عليه ، تقع بغتة مصادفة غريبة ، نادرة الوقوع :

" إذ ذئبة قد عرضت ، وكان من الصنع ، وتأخير الاجل أن ذلك كان في زمن اهتياجها وتسافدها ، فلما عاينها تركني ، وقصد نحوها ، فما تلعثم ان ركبها ، وكنت قرأت في بعض الكتب أنها تلتحم ، ففوقت سهمي ، وهما ينظران الي ، فلما لم أر عندهما نكيرا ، حقق عندي ما كان في الكتاب من تلاحمها فمشيت اليهما بسيفي ، حتى قتلتهما " (٢) .

وفضلا عن المصادفة الغريبة التي تنتهي بها الحكاية ، لا يشعر القارئ بشيء من المفاجأة بين قول الرجل في بداية الحكاية " وأنا وسط برية لا أحد معينا " وقوله في نهايتها " ففوقت سهمي ، فمشيت اليهما بسيفي " .

أما الحكايات التي لا تعتمد الحبكة في بنائها ، فيتعذر على القارئ أن يخمن نهايتها ، لأنها تصور عادة شاذة ، أو سلوكا مستهجنا ، أو صفة ذميمة ، أو شخصية غريبة !

وأمّا النهاية في هذه الحكايات فإنّ الجاحظ يعني فيها عناية خاصة بالعبارة الاخيرة ، حتى ان القارئ يشعر في الغالب أن فيها جماع ما في الحكاية من طرافة !
ولذلك فالقفلة في هذا النوع من الحكايات تترك أثرها في نفسه بعد القراءة ، نحو قفلة هذه الحكاية التي تصور الفرزدق وأحد حمقى العرب في موقف طريف .

---

(١) الحيوان ، ج١ ، ص ١٧٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٢١٧ .

" أما جرنفش فانه لما خلع الفرزدق لجام بغلته ، وأدنى رأسه من الماء ، قال له جرنفش :

– نح بغلتك ، حلق الله ساقيك !

قال الفرزدق : ولم عافاك الله ؟ !

قال : لأنك كذوب المخبره (١) ، زاني المكمره .

فنادى الفرزدق : يابني سدوس !

فلما اجتمعوا اليه قال : سودوا الجرنفش عليكم ، فاني لم أر فيكم اعقل منه " (٢) .

وتميل حكايات القفله في الغالب الى القصر ، وتتضمن القفله احيانا – فضلا عن الطرافه – شيئا من النقد الضاحك ، كما في حكاية أبي عبد الله الكرخي الفقيه مثلا (٣) ، وكما في قفلة هذه الحكايه ،

" حدثني شمئون الطبيب قال : كنت يوما عند ذى اليمينين طاهر بن الحسين ، فدخل عليه أبو عبد الله المروزى ،

فقال طاهر : يا أبا عبد الله : مذ كم دخلت العراق ؟

قال : منذ عشرين سنه ، وأنا صائم منذ ثلاثين سنه ،

قال (طاهر) : يا أبا عبد الله سألناك عن مسأله فاجبتنا عن مسألتين " (٤) .

وفي كثير من الحكايات يشعر القارئ أن القفله بما تنطوى عليه من مفاجأه غير متوقعه ، وبما تثيره من دواعي الضحك – هي الهدف الأول المقصود من الحكايه ، لأنه لولاها لفقدت الحكايه في الغالب رونقها ! " قال رجل من أهل الكوفه لرجل من أهل المدينه : نحن اشد حبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم منكم يا أهل المدينه .

فقال المدني : فما بلغ من حبك لرسول الله صلى الله عليه وسلم على آله ،

قال : وددت أني وقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لم يكن وصل اليه يوم أحد ، ولا في غيره من الايام شيء من المكروه يكره ، الا كان بي دونه ،فقال المدني : أفعندك غير هذا ؟ ! قال: وما يكون غير هذا ؟ !

قال المدني : وددت أن أبا طالب كان آمن فسر به النبي صلى الله عليه وسلم وأني كافر " (٥) .

---

(١) المخبره : المقصد . (٢) البيان والتبيين ، ج٢ ، ص ٢٣٠ ،تحقيق عبد السلام هارون

(٣) انظر الحيوان ، ج٣ ، ص ٨ – ٩ ، وقد مرت بنا الحكايه .

(٤) الحيوان ، ج٣ ، ص ٨ – ٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ١٦ .

٩ - مغـــزى الحكـايـــة

يشعـر القارىء احيانا بعد قراءة حكاية من حكايات الجاحـظ أنها تنطوي على مغزى ما ، سواء قصد الجاحظ الى ذلك أم لم يقصـد !

ويبدو في الحكاية التي تنطوي على مغزى أنها لا تميل في ذلـك الى المباشره ، فالجاحظ في حكاياته " لا ينصب من نفسه مرشـدا أو مصلحا ، وان ترك للقارىء عبرا خفيه ، ليستنتج منها الرشد والاصلاح " (١) . وانما يعمد في الغالب الى الإيحاء فقط ، وقد لاحظ الدكتور عمر فروخ على حكايات البخلاء خاصة ، ان الجاحظ فيها قلما يذكر المغزى المقصود من الحكاية التي يحكيها ، بل يترك ذلك للقارىء ، ليستنتج ما يستطيع أن يتخيل بـه الحكاية واضحة (٢) .

ويمكن تقسيم حكايات الجاحظ التي تنطوي على مغاز من حيث اسلوب الجاحظ في الايحاء قسمين : قسمًا يلحظ فيه المغزى من خلال المعالجة القصصية فقط ، دون العثور على عبارة في السرد أو الحوار تشير الى ذلك من قريـب أو بعيد ! كما في حكاية " المدينين النباح " مثلا ، فبعد قراءتها يلاحظ أن المغزى الذى تدور حوله هو : ان من يحفر حفرة السـوء لأخيه يقع فيها ايضا ، فالدائن الذى اضاع على الدائنين الآخرين ديونهم حين علم المدين حيلة خبيثة ينجو بها منهم ، قد اضاع بذلك دينه فـي النهاية ، لأن المدين تنكر له بوساطتها ايضا ، والقارىء اذ يشعر بالمغـزى من خلال المضمون واسلوب المعالجه ، فانه لا يعثر على عبارة خلال الحكايـة تشي بذلك (٣) .

وفي حكاية القيسي واليماني يلحظ القارىء أن المغزى الذى تـدور

---

(١) جورج غريب ، الجاحظ دراسه عامه ، ص ٨٢ .

(٢) تاريخ الادب العربـي ، ص ٣٠٨ .

(٣) هذا إذا استثنينا العنوان وهو " علمه حيله فوقع في أسرها " فهو يشي بالمغزى ، ولكن قد يكون العنوان ليس من وضع الجاحظ .
(انظر الحيوان ، ج ، ص ١٧١) .

حوله الحكايه هو : أن حبل الكذب قصير وان صاحبه المفسد مفضوح لا محاله ، وهو يلحظ ذلك من خلال المضمون واسلوب المعالجه فقط ، دون أن يعثر على أية عبارة في الحكاية تشير الى ذلك (١) .

وعلى هذا النحو يتبدّى المغزى في حكايات اخرى ، لا يوجد فيها أية عباره مباشره تومئ اليه ، مثل : حكاية سكر الشطرنجي (٢) وأبي حكيم الكيمائي (٣) ، وحكاية ابي عمران واسماعيل بن غزوان (٤)، وحكاية اتحاد المتعاديين في وجه عدوهما المشترك (٥) .

وأما القسم الثاني من الحكايات فلا يعدم القارئ أن يجد فيه عبارة ما تشي بالمغزى ، ففي حكاية " النظام وعدم ايمانه بالطيره ، يقفل النظام حكاية تجربته المره في الاهواز بالقول " ان الطيره باطل (٦).

وفي حكاية القاضي عبدالله بن سوار يشعر القارئ ان المغزى الذى تنطوى عليه الحكايه هو : ان التزمت والاعجاب بالنفس غير مستحسنين، كذلك يلحظ الشخصية تقول ما يشبه ذلك في نهاية الحكايه ، " استغفر الله ! فما اكثر من اعجبته نفسه ، فأراد الله عزوجل أن يعرّفه من ضعفه ما كان مستورا ، وقد علمت أني عند الناس من أزمت الناس ، فقد غلبني وفضحني اضعف خلقه " (٧) . ثم يردد بعد ذلك آية كريمه ، أغلب الظن أن الحكايه تستوحيها !

" ثم تلا قوله : " وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب " " (٨) .

ويشابه المغزى الذى تنطوى عليه حكاية القاضي عبدالله بن سوار المغزى الذى تنطوى عليه حكاية الجاحظ والذباب ، فالجاحظ يخرج للتنزه بالقرب من شاطئ نهر المبارك ، وفي عنقه الطيلسان الذى يرتديه الخواص من العلماء والمشايخ (٩) ، وكأنه معتز بسلطان العلم الذى يعمر صدره ،

---

(١) الحيوان ، ج٢ ، ص ١٧١ (٢) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ١٤٧

(٣) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٣٨٥ (٤) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٤٦٩

(٥) المصدر نفسه ، ج٢، ص ١٧٢ (٦) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٤٥١

(٧) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٣١٣ (٨) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٣١٣

(٩) انظر هامش الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٥٦ .

فيعترض سبيله بغتة مخلوق صغير من أضعف مخلوقات الله ، فيحاول أن يدفعه عنه بكل سبيل ، ولكن دون جدوى ! الى ان يفطره اخيرا الى ان يخلع طيلسان العلم من عنقه ، ليذب به عن نفسه " فلما عاد نزعت طيلساني من عنقي ، فذببت به عني ، بدل كمي ، فلما عاود ، ولم اجد له حيلة ، استعملت العدو ، فعدوت منه شوطا ، لم أتكلفه منذ كنت صبيا " (١). وهكذا ينهزم سلطان علم الجاحظ أمام سلطان مخلوق صغير ، مما يفطره الى القول في نهاية الحكاية ، حين لقيه الاندلسي وهو يعدو ، فسأله مستغربا ركضه ، " مالك يا أبا عثمان ؟ ! هل من حادثة ؟ ! قلت : نعم اكبر الحوادث ، أريد أن اخرج من موضع للذباب عليّ فيه سلطان " (٢) .

وفي حكاية " العصا والفتى التغلبي " يبدو المغزى واضحا ، وهو أن العصا ذات فوائد جمة للانسان ، كذلك تقفل الشخصية الحكاية بالقول لمحدثها : " والله لو حدثتك عن مناقب نفع العصا الى الصبح لما استنفدتها " (٣) .

وفي حكاية الاباضي والتشيع يبدو أن المغزى الذى تنطوى عليه هو أن التشيع باطل ، كذلك يقول الجاحظ نفسه عن المتشيعين لمحدثه الاباضي في قفلة الحكاية " لا يقوم لهؤلاء القوم قائمة بعد هذا" (٤).

وعلى هذا النحو يبدو اسلوب الايحاء بالمغزى في حكايات اخرى، مثل حكاية " الأمين وسعيد بن جابر " (٥) ، وحكاية " احتجاج رجل من وجوه أهل الشام " (٦) ، وحكاية " الذباب والبعوض " (٧) .

وثمة حكايات عده لا يبدو للقارىء أنها تنطوى على مغزى ، إلا أن يعتسف الأمر اعتسافا ، كأن يزعم ان حكاية عروه بن مرثد مثلا : ترمي الى أن الجبن رذيله ، وأن حكاية أبي كعب القاص تدعو الى عدم الاستهتار لدى دخول أماكن العباده ، وهكذا ... !

---

(١) الحيوان ، ج٣ ، ص٣٥٦ (٢) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٣٥٦
(٣) البيان والتبيين ، ج٣ ، ص ٤٥ . تحقيق عبد السلام هارون
(٤) الحيوان ، ج٣ ، ص ٢٢ (٥) المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٣٨١
(٦) المصدر نفسه ، ج٣، ص ١٧ (٧) المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٣٨١

وهو حين ينحو هذا المنحى في تأوّل بعض الحكايات ، يشعر بأن اراءه تنفح بكثير من الافتعال ! وأنه ان استطاع ان يتكلف تأول المغزى في بعض الحكايات فانه لا يستطيع ذلك في بعضها الآخر ، مثل :

" اقتتال فأرين " (١) ، أو حكاية عيسى بن مروان (٢)، أو حكاية خشنام بن هند (٣) أو حكاية نوفل عريف الكناسين (٤) أو الحكايات العلمية .

وحتى في الحكايات التي يرجح أنها تنطوي على مغاز فان الدارس لا يستطيع أن يقرر :

أقصد الجاحظ الى المغزى في الحكاية قصدا ، أم أن ذلك أتى عرضا دون قصد .

---

(١) الحيوان ، ج٥ ، ص ٢٥٠

(٢) المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٢٦٣

(٣) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٢٠

(٤) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ١٣ .

١٠ - عنصر التشويق

قلما يعثر القارئ على حكاية من حكايات الجاحظ لا تثير فيه شعور الاستحسان ، أو تنتزع منه الابتسام ، لأن الجاحظ الذى يرمي من الحكاية في كتبه الى أن تكون مستراحا وجماما (١) يحرص على أن يوفر لها اسباب التشويق والمتعه .

أما اسباب التشويق فتتهيأ للحكايه الجاحظية من جهتين : الأولى جهة المضمون ، فالجاحظ يحرص فيه على استيحاء الطريف أو الغريب من الواقع .

ويبدو شغف الجاحظ بالنادر من الأمر ، أو بأوابد القول والفعل في حكايته عن داود الصبيرى ، فحين ينهض داود من مجلس الجاحظ ، ويلحق بأمرأه حسناء ، يدرك الجاحظ قصده ، فيتبعه غلامه ليستطلع ما يجرى ، وحين يعود داود يقول له في حب استطلاع :

" ليس ينفعك الا الصدق ولا ينجيك مني الجحود ، وانما غايتي أن اعرف كيف ابتدأت القول ، وأى شيء قلت لها ؟ ! وعلمت أنه سيأتي بآبده ، وكان مليا بالاوابد " (٢) .

وهذا الشغف بالاوابد يبدو واضحا في حكايات الجاحظ حين نلاحظ انها تصور في الغالب إما حادثة طريفة أو عادة شاذه أو تصرفا متهجنا أو مفارقه عجيبه أو مأزقا حرجا أو تناقضا غريبا أو نحو ذلك .

والجاحظ حين يتطرف في اختيار الواقع الذى يستوحيه فانه يقصد الى ذلك قصدا ، ولا يأتي الأمر اتفاقا ، لأنه كان

---

(١) انظر الحيوان ، ج٦ ، ص ٢٦٤

(٢) الحيوان ، ج٣ ، ص ٣٥ .

يرى أن الشيء العادى أو الوسط الفاتر - كما يسميه - غير قادر على ان يشوّق القارىء أو ان يمتعه ، بل على النقيض من ذلك جدير ان يكربه ويضاعف مللـه !

وأما الشيء القادر - في رأيه - على تشويقه وامتاعه وتجديد حماسته فهو الأمر النادر الوقوع ، الشديد الوقع في النفس ، أو الحار جدا والبارد جدا بحسب تعبيره يقول الجاحظ :

" والنادره البارده جدا ، قد تكون اطيب من النادره الحاره جدا ، وانما الكرب الذى يخيم على القلوب ، ويأخذ بالانفاس النادره الفاتره ، التي لا هي حاره ولا هي بارده ، وكذلك الشعر الوسط ، والغناء الوسط ، وانما الشأن في الحار جدا والبارد جدا ، وكان محمد بن عباد بن كاسب يقول : والله لفلان اثقل من مغن وسط ، وابغض من ظريف وسط " (١) ، وهو يكرر هذا الرأى ايضا في مقدمة البخلاء حين يقول عن طبيعة الموضوع الذى قد تعالجه الحكايه : ان " الفاتر شر من البارد " (٢) .

وأما الجهة الثانية التي توفر للحكاية بعض اسباب التشويق فهي طريقة المعالجة القصصية ، لأن المضمون الطريف لا يكفي وحده لخلق الحكايه الناجحه ، اذا لم يصادف موهبه قصصيه تحسن معالجته فهو دونها يبقى مجرد خبر ظريف ، أو ملحه قد تضحك ، ولكنها تخلو من الفن القصصي ، على نحو ما يلاحظ مثلا في كتاب " عيون الاخبار " لابن قتيبه ، أو " اخبار الاذكياء " و " اخبار الحمقى " لابن الجوزى .

فالجاحظ يحرص في اثناء معالجته القصصيه للمضمون الطريف على أن يوفر للحكايه ايضا اكبر قدر من التشويق والامتاع ، يتجلى ذلك حين نتمعّن في احدى حكاياته من حيث الطول أو اسلوب البدايه ، او اللغه والسرد والحوار ، أو رسم الشخصيه أو الحبكه أو الصراع أو النهايه والقفله ، على نحو ما رأينا عند الحديث المفصل عن هذه الاركان الرئيسيه ، فمن خلال هذه الاركان جميعها ، أو من خلال الحكايه كلها يتبدى في الغالب روح الجاحظ الموهوب المتميز القادر على معالجة موضوعات ذميمه مثل

---

(١) البيان والتبيين ، ج١ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٢) البخلاء ، ص ٧ .

البخل واللواط باسلوب ضاحك ، يوفر للحكاية قدرا كبيرا من التشويق والمتعه ويكاد ينسى بشاعة المضمون الذى تدور حوله الحكـــايه .

اذن فاختيار المضمون ، واسلوب المعالجه القصصي يتضافــــران معا في الحكايــه الجاحظيــه ، لتوفير قدر كبير من اسباب التشويق لهـــا ، كما يمكن أن نلحظ في الغالب في اية حكايــه من الحكايات نحو هذه الحكايه التي تجمع بين شاعر وأحد الولاه ، فبينا الوالي " يوما في مجلس وهو مشغـــول بحسابه وأمره ، وقد احتجب بجهده ، اذ نجم شاعر من بين يديه ، فانشـده شعرا مدحه فيه وقرظه ومجده ، فلما فرغ قال (الوالـي) : قد احسنت ، ثم اقبل على كاتبه فقـال : اعطه عشرة الاف درهـم ، ففرح الشاعر فرحــــا قد يستطار له ، فلما رأى حاله قال : واني لأرى هذا القول قد وقـــــع منك هذا الموقع : اجعلها عشرين الف درهـم !

فكـاد الشاعر يخرج من جلده ، فلما رأى فرحه قد اضعف قال : وان فرحـــك ليتضاعف على قدر تضاعف القول ؟ ! اعطه يافلان اربعين الفا ، !

فكـاد الفرح يقتلـه ، فلما رجعت اليه نفسه قال (الشاعر) له : أنـــت - جعلت فداك - رجل كريم ، وأنا أعلم انك كلما رأيتني قد ازددت فرحـــــا زدتني في الجائـزه ، وقبول هذا منك ، لا يكون الا من قلة الشكـر ، ثم دعـــا له وخـــرج .

فاقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ، هذا كان يرضى منـــــك باربعين درهما ، تأمر له باربعين الف درهـم !

قال (الوالـي) : ويلـك ! وتريد ان تعطيـه شيئـــا ؟ !

قـــال : ومن انفـــاذ أمرك بـــد ؟ !

قـــال : يا احمق هذا رجل سرنا بكلام ، وسررناه بكلام ، هو حين زعـــــم أني احسن من القمر ، واشد من الاسـد ، وأن لساني اقطع من السيف ، وان امـرى انفذ من السنان ، جعل في يدى من هذا شيئا ارجع به الى بيـــــتي؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب ، ولكنه قد سرنا حين كذب لنا ، فنحن ايضا نسـره بالقول ، ونأمر له بالجوائز ، وان كان كذبا ، فيكون كذب بكذب ، وقول بقـول ، فأما أن يكون كذب بصدق ، وقول بفعـل ، فهذا هو الخسران المبـــــين الذى سمعـت بـه " (١)

---

(١) البخـلاء ، ص ٢٧ .

وثمة سمة بارزة من سمات اسلوب المعالجة القصصية عند الجاحظ يمكن ملاحظتها في كثير من حكاياته ، كما يمكن ملاحظتها في الحكاية السابقة ايضا ، تؤدي دورها في توفير اسباب التشويق للحكاية ، ونقصد بها سمة التَّرْداد (١) ، أو تكرار الحدث خلال الحكاية الواحدة ، واذا كانت هذه السمة قد لاحظناها عند الحديث عن الحبكة والصراع فقط ، فانه يمكن التعميم والقول : أن سمة الترداد هي احدى السمات المميزة لاسلوب الجاحظ القصصي عامة ، فالدارس حين يتمعن في كثير من حكايات الجاحظ يلحظ أن حدثا بعينه – يدور في فلك المدار الرئيسي للحكاية في الغالب – يتردد المرة تلو المرة ، الى ان يصل بالحكاية الى نهاية مثيرة ، مما يجعل القارئ بعد كل مرة في حالة ترقب وتشوق الى ما قد يحمله تردد الحدث من جديد في المرة القادمة .

ففي حكاية الشاعر والوالي السابقة يلاحظ أن الحدث الذي يتردد فيها مرارا هو أمر الوالي لكاتبه بجائزة مالية اكبر للشاعر ، يتكرر الأمر منه ثلاث مرات قبل ان تصل الحكاية الى نهايتها المفاجئة !

ولعل من افضل الامثلة التي تبين دور اسلوب الترداد في توفير عنصر التشويق للحكاية ، حكاية " العصا والفتى التغلبي " (٢) ، وهي حكاية لا تقوم على الحبكة في بنائها ، ومدارها الرئيسي هو فائدة العصا للانسان ، وتبدأ بمصاحبة رجل يدعي الشرقي لفتى تغلبي يحمل عصا لا تكاد تفارق يده ، مما يغيظ الشرقي ويثير استغرابه ، ولكن الحاجة الى العصا في اثناء الطريق تتردد المرة تلو الآخرى ، يلفتنا الى ذلك الشرقي ، حين يحاول ان يحصي ذلك عددا ، فهما يركبان حمارين في بداية الرحلة ، فيسبقه التغلبي لأنه " كان اذا تلكأ حماره يكرهه بالعصا " (٣) ، وحينئذ نسمع الشرقي يقول بينه وبين نفسه : " هذه واحدة " .

ثم تتردد الحاجة الى العصا مرة اخرى بعد مشيهما مسافة مرهقة ، فالتغلبي كان اذا " أعيا توكأ على العصا ، ووضع العصا على وجه الارض فاعتمد عليها ومرّ كأنه السهم " (٤) وحينئذ نسمع الشرقي

---

(١) الترداد : الترديد (انظر القاموس المحيط ، ج١ ، ص ٣٠٤) المادة ردد وصيغة تفعال هي صيغة قياسية من كل فعل ثلاثي .

(٢) البيان والتبيين ، ج٣ ، ص٤٥ ، تحقيق عبد السلام هارون .

(٣) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص٤٥ . (٤) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص٤٥ .

يقول : "هذه ثانيه " ثم تتردد الحاجه الى العصا مره اخرى ، اذ يباغتان في اثناء الطريق بحيّه منكره ، فيهرب الشرقي منها ، على حين يضربها الفتى التغلبي بالعصا فيقتلها ، وحينئذ يقول الشرقي : " هذه ثالثه وهي اعظمهن " (١) .

وعلى هذا النحو يستمر بعد ذلك تردد الحاجه الى العصا خلال الرحله ، حتى يبلغ سبع مرات !

مما يجعل القارىء يتشوق لمعرفة الجديد الذى ستتمخض عنه الحكايه ، والذى يظهر فائدة العصا والحاجة اليها ، الى ان تبلغ الحكايه بعد المره السابعه نهايتها المثيره ، حين يصل التغلبي وصاحبه الى بَيْعَه ، فاذا والد الفتى التغلبي شيخ نصراني ، واذا الفتى ماهر في قرع ناقوس البيعه !

والجاحظ يعمد الى اسلوب التراداد في الغالب حين تكون الحكايه شيئا ما طويله لأنه بوساطته يستطيع الابقاء على تشوّق القارىء ، عن طريق اثارة حب الاستطلاع في نفسه ، بيد أنه قد يعمد اليه احيانا في حكايات قصيره جدا ، نحو هذه الحكايه التي يتردد فيها حدث سقاية الخمر ثلاث مرات ، قبل أن تصل الى قفلتها الطريفه :

" جلست (عجوز) في طريق مكه الى فتيان يشربون نبيذا لهم ، فسقوها قدحا ، فطابت نفسها ، وتبسمت ، ثم سقوها قدحا آخر ، فاحمر وجهها ، وضحكت !

فسقوها قدحا ثالثا ، فقالت : خبروني عن نسائكم بالعراق : أيشربن هذا الشراب ؟ !

فقالوا : نعم !

فقالت : زنين ورب الكعبه ! " (٢)

بيد ان اسباب التشويق في الحكايه الجاحظيه لا يمكن ردها الى سمة التراداد القصصي وحدها ، وآية ذلك أن ثمة حكايات

---

(١) البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٤٥ . تحقيق عبد السلام هارون .

(٢) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٩٢ .

لا تتبدى فيها هذه السمه ، ولكنها تبدو مع ذلك طريفه ممتعه ، فاسباب التشويق في حكايات الجاحظ لا يمكن ردها الى سمه من سمات اسلوب المعالجه القصصي ،أو الى طبيعة المضمون المستوحى، كل على حده ، وانما هي تأتي نتيجة تضافر عناصر العمل القصصي كلها معا في الحكايه ، ودون انفصام ، حتى ان القارئ يشعر في الحكايه - سواء أكان الجاحظ يرويها عن غيره أم يستوحيها من تجاربه - أن ثمة نكهه خاصه فيها تتضوع من روح الجاحظ نفسه ، ولذلك فقد أخفق الأدباء في القديم ، حين حاولوا تقليده ، لأن نهجه الفريد - كما يعلل تلميذه ابو حيان التوحيدى :

" مدبر باشياء لا تلتقي عند كل انسان ، ولا تجتمع في صدر كل واحد ، بالطبع والمنشأ ، والعلم والاصول ، والعاده والعمر ، والفراغ والعشق ، والمنافسه والبلوغ ، وهذه مفاتيح ، قلما يملكها واحد ، وسواها مغالق قلما ينفك منها " (١) .

---

(١) الامتاع والمؤانسه ، ج١ ، ص ٦٦ .
تحقيق احمد أمين ورفيقه .

١١ - جهد الجاحظ القصصي

حين يحاول الدارس ان يلقي نظرة عامة على جهد الجاحظ القصصي، فان هذا الجهد يتراءى له من خلال انقسام الحكايات كلها الى مجموعتين رئيسيتين : مجموعة من الحكايات لا رابط بينها ، أى أن الحكاية فيها تستقل عن الاخرى ، ومجموعة ثانيه تترابط فيها الحكايات برباط فني ما فيما بينها .

أما الحكايات التي لا رابط بينها ، فتبدو له متناثره هنا وهناك في كتب الجاحظ العلميه والادبيه ، كالحيوان والبيان والتبيين والرسائل وغيرها. وهوحين يلقي عليها نظرة شامله متفحصه ، فانه قد يدهش حين يجد بينها حكايات عده ، تكاد الواحدة منها تستوفي العناصر القصصية الرئيسية ، حتى انه يشعر بازائها أنها ليست ثمرة الموهبة القصصية وحدها ، وانما هي ايضا ثمرة جهد وخبره وتخطيط ، يتبدى له ذلك في اسلوبها الذى تنتهجه ، وفي لغتها القصصية ، وفي ابتعادها التام عن الأسلوب الاخباري على الرغم من أنها قد تكون مرويه بضمير الغائب المفرد :

" كان عندنا بالمدينة رجل قد كثر عليه الدّين ، حتى توارى عن غرمائه ، ولزم منزله ، فأتاه غريم له عليه شيء يسير ، فتلطف حتى وصل اليه ، فقال له :

ما تجعل لي ان أنا دللتك على حيلة ، تصير بها الى الظهور والسلامة من غرمائك ؟

قال : أقضيك حقك ، وأزيدك مما عندى ، مما تقرّ به عينك !

فتوثق منه بالايمان ، ثم قال له : اذا كان غدا قبل الصلاة ، مر خادمك يكنس بابك وفناءك ، ويرش ويبسط على دكانك حصرا ، ويضع لك متكأ ثم امهل حتى تصبح ، ويمر الناس ، ثم تجلس وكل من يمر عليك ويسلم ، انبح له في وجهه ، ولا تزيد على النباح أحدا ، كائنا من كان ، ومن كلمك من أهلك أو خدمك أو من غيرهم أو غريم أو غيره ، حتى تصير الى الوالي ، فاذا كلمك فانبح له ،

وإياك أن تزيده أو غيره على النباح ، فان الوالي اذ ايقن ان ذلك منك جد ، لم يشك أنه قد عرض لك عارض من مس ، فيخلي عنك ، ولا يغرى عليك، ففعل (الرجل) فمر به بعض جيرانه ، فسلم عليه فنبح في وجهه ثم مر آخر ففعل مثل ذلك !

حتى تسامع غرماؤه ، فأتاه بعضهم ، فسلم عليه فلم يزده على النباح ، فلما رأى القاضي ذلك ، أمر باخراجه ، ووضع عليه العيون في منزله ، وجعل لا ينطق بحرف الا النباح !

فلما تقرر ذلك عند القاضي ، أمر غرماءه بالكف عنه ، وقال : هذا رجل به لمم ! (١)

فمكث ما شاء الله تعالى ، ثم ان غريمه الذى كان علمه الحيله ، أتاه متقاضيا لعدته (٢) ، فلما كلمه جعل لا يزيده على النباح ، فقال له : ويلك يافلان ! وعليّ ايضا ' وأنا علمتك هذه الحيله ؟!

فجعل لا يزيده على النباح ! فلما يئس منه ، انصرف يائسا مما يطالب به " (٣) .

وفي بعض الحكايات المرويه بضمير المتكلم المفرد لا يشعر الدارس بشخصية الجاحظ سافرة الا في الاسناد فقط ، وبعد ذلك يبدو له التركيز القصصي و ما تقصد الحكاية اليه بعينه لتصويره ، كما يشعر بالشخصيه المتكلمه ملء السمع والبصر ، يستشعر ما يضطرب في فؤادها ، ويعرف ما يدور في خلدها ، ويعايشها تجربة من تجاربها الماضية المثيرة :

" اخبرني ابو اسحاق ابراهيم بن سيار النظام قال :

جعت حتى أكلت الطين ، وما صرت الى ذلك ، حتى قلبت " قلبى " (٤) ، أتذكر هل بها رجل اصيب عنده غداء أو عشاء ، فما قدرت عليه ! وكان عليّ جبه وقميصان ، فنزعت القميص الاسفل ، فبعته بدريهمات وقصدت الى فرضة الاهواز ، اريد قصبة الاهواز ، وما اعرف بها أحدا، وما كان ذلك الا شيئا أخرجه الضجر ، وبعض التعرض ، فوافيت الفرضه فلم أصب فيها سفينه ، فتطيرت من ذلك ايضا ، واذا (سفينه) فيها

---

(١) اللمم : الجنون

(٢) لعدته : لما كان وعد به

(٣) الحيوان ، ج٢ ، ص ١٧١ - ١٧٢

(٤) قلبى : اسم مكان .

حمولـه :
فقلت للملاح : تحملني ؟
قال : نعم
قلت : ما اسمك ؟
قال : داوداذ !

وهو بالفارسيه الشيطان ، فتطيرت من ذلك ، ثم ركبت معه ، تصك الشمال وجهي ، وتثير بالليل الصقيع على رأسي ، فلما قربنا من الفرضه ،
صحت : ياحمّال !

ومعي لحاف لي سمل ، ومضربه خلق ، وبعض ما لا بدّ لمثلي منه ، فكان أول حمّال أجابني أعور !

فقلت لبقّار كان واقفا : بكم تكرى ثورك هذا الى الخان ؟

فلما أدناه من متاعي - اذ الثور اعضب القرن ! فازددت طيره الى طيره فقلت في نفسي " الرجوع اسلم لي " .

ثم ذكرت حاجتي الى أكل الطين ، فقلت : ومن لي بالموت؟!

فلما صرت الى الخان ، وأنا جالس فيه ، ومتاعي بين يدى، وأنا أقول : " ان أنا خلفته في الخان ، وليس عنده من يحفظه قُشّ الباب وسرق ، وان جلست أحفظه لم يكن لمجيئي الى الاهواز وجه ! " .

فبينا أنا جالس ، اذ سمعت قرع الباب !

قلت : من هذا عافاك الله تعالى ؟ !

قال : رجل يريدك .
قلت : ومن أنا ؟ !

قال : أنت ابراهيم
فقلت : ومن ابراهيم ؟ !

قال : ابراهيم النظام !

قلت : " هذا خناق ، أو عدو ، أو رسول سلطان " .

ثم اني تحاملت ، وفتحت الباب ، فقال : ارسلني اليك ابراهيم بن عبد العزيز يقول : نحن وان كنا اختلفنا في بعض المقاله ، فانا قد نرجع بعد ذلك الى حقوق الاخلاق والحريه ، وقد رأيتك حين مررت

بي على حال كرهتها منك . وما عرفتك حتى خبّرني عنك بعض من كان معي ، وقال : ينبغي ان يكون قد نزعت بك حاجه فان شئت فأقم بمكانك شهرا أو شهرين ، فعسى أن نبعث اليك ببعض ما يكفيك زمنا من دهرك ، وان اشتهيت الرجوع ، فهذه ثلاثون مثقالا ، فخذها وانصرف وانت احق من عذر .

قال (النظام) : فهجم والله عليّ أمر كاد ينقضني (١) . أما واحده فاني لم أكن ملكت قبل ذلك ثلاثين دينارا ، في جميع دهري . والثانيه : انه لم يطل مقامي وغيبتي عن وطني وعن اصحابي الذين هم على حال اشكل بي وافهم عني . والثالثه : ما بين لي أن الطيره باطل " (٢) .

وقد يعمد الجاحظ احيانا الى اسلوب تضمين الحكايه حكاية اخرى ، وعندئذ نرى الشخصية التي يدور حولها الحدث المتأزم ، تعود بنا الى الخلف ، لتقص علينا حكاية حدث وقع لها في الماضي ، له علاقة وثيقة بالحدث الذي يدور حولها في الحاضر ، مما يلقي الاضواء على حقائق كانت خافيه ، ويؤدي الى انفراج المأزق في النهايه !

" حدثني ابراهيم بن السندي قال : لما كان أبي بالشام واليمن ، أحب ان يسوّي بين القحطاني والعدناني ، وقال : لسنا نقدمكم الا على الطاعه لله عزوجل ، وللخلفاء ، وكلكم اخوه . وليس للنزاري عندي شيء ليس لليماني مثله !

وكان يتغدّى مع جملة من جِلة الفريقين ، يسوّي بينهم في الاذن والمجلس ، وكان شيخ اليمانيه يدخل عليه معتما ، وقد جذب كور عمامته ، حتى غطى بها حاجبيه ، وكان لا ينزعها في حر ولا برد .

فاراد فتى من قيس - وقد كان أبي يستخليه ويقربه - أن يسقطه من عين أبي ويوحشه منه ، فقال له ذات يوم ، ووجد المجلس خاليا : أني أريد ان اقول شيئا ليس يخرجه مني الا الشكر والحريه ، والا المودة

---

(١) ينقضني : يذهب قوتي وعزمي
(٢) الحيوان ، ج٣ ، ص ٤٥١ - ٤٥٣ .

والنصيحه ، ولولا ما اعرف من تقززك وتنطسك (١) ، وأنك متى انتبهت على ما أنا ملقيه اليك ، لم آمن أن تستغشني ، وان لم تظهره لي ، ان هذا اليماني ، انما يعتم ابدا ، ويمد طُرة (٢) العمامه ، حتى يغطي بها حاجبيه ، لأن به داء ، لو علمت به لم تؤاكله !

قال أبي : فرماني والله بمعنى كاد ينقض على جميع ما بيدى ، وقلت : والله لئن أكلت معه ، وبه الذى به ، ان هذا لهو البلاء ، ولئن منعت الجميع مؤاكلتي ، لا وحشتهم جميعا ، بعد المباسطه والمُبَاثّه (٣) ، والملابسه والمؤاكله ، ولئن خصصته بالمنع ، واقعدته على غير مائدتي ، ليغضبن ، ولئن غضب ، ليغضبن معه كل قحطاني بالشام !

فبت بليله طويله ، فلما كان الغد ، وجلست ، ودخلوا للسلام ، جرى شيء من ذكر السموم وغرائب أعمالها ، فأقبل عليّ ذلك الشيخ فقال : عندى من هذا بالمعاينه ما ليس عند أحد !

" خرجت مع ابن أخي هذا ، ومع ابن عمي هذا ، ومع ابني هذا أريد قريتي الفلانيه ، فاذا بقرب الجادّه بعير قد نهشته أفعى ، واذا هو وافر اللحم ، وكل شيء حواليه من الطير والسباع ميت ، فقمنا منه على قاب (٤) أرماح نتعجب ، واذا عليه بعوض كثير !

فبينا أنا أقول لاصحابي : ياهؤلاء ، انكم لترون العجب اول ذلك : أن بعيرا مثل هذا يتفسخ من عضة شيء لعله أن لا يكون في جسم عرق من عروقه ، أو عصبة من عصبه ، فما هذا الذي مجه فيه ، وقذفه اليه ؟ ! ثم لم يرض بأن قتله وفسخه ، حتى قتل كل طائر ذاق منه ، وكل سبع عض عليه ، واعجب من هذا قتله لأكابر السباع والطير ، وتركه قتل البعوضه مع ضعفها ومهانتها !

فبينا نحن كذلك ، اذ هبّت ريح من تلقاء الجيفه ، فطيّرت البعوض

---

(١) تنطسك : التباعد من الدنس ، والتقذر والتقزز

(٢) طرة الشيء : طرفه

(٣) المباثه : مفاعله من البث ، وهو اظهار الحديث والخبر

(٤) قاب : على قدر طول الرماح .

الى شقنا ، وتسقط بعوضه على جبهتي ، فما هو الا ان عضتني ، اذ أسمأد[1] وجهي ، وتورم رأسي ، فكنت لا اضرب بيدى الى شيء - احكه من رأسي وحاجبي الا انتشر في يدى ، فحملت الى منزلي في محمل ، وعولجت بانواع العلاج ، فبرأت بعد دهر طويل ، على أنه بقى عليّ من الشين أنه تركني أقرع الرأس ، أمرط الحاجبين ! " .

قال (أبي) : والقوم يخوضون معه في ذلك الحديث ، خوض قوم قد قتلوا تلك القصه يقينا !

قال : فتبسمت ونكس الفتى القيسي رأسه فظن الشيخ (اليماني) أنه قد جرى بيننا في ذلك ذَرْء[2] من القول ، فقال : ان هذا القيسي خبيث ، ولعله أن يكون قد احتال لك بحيله ! " .[3]

وأما مجموعة الحكايات التي تترابط كل منها برباط فني ما ، فان الدارس لا يجدها كالحكايات السابقة مبثوثه في مختلف كتب الجاحظ الادبيه والعلميه ، لان الجاحظ قد خصّص لها كتبا مستقله ، وهو حين يتمعن فيما يتوفر منها ، يشعر بأن موهبة الجاحظ القصصيه المنطلقه ، التي كانت لا تحتذى مثالا معينا ، ولا تغلّها قواعد قصصيه تقليديه متبعه - كانت تبتكر الاشكال القصصية كيفما تشاء ، وتخلق العالم القصصي الخاص كما ترى !

وحين يمعن الدارس النظر في هذا العالم القصصي أو المسرحي الخاص ، يبدو له يعج بالحياه وبالواقع الاجتماعي ، ويمور بالحركه وبالشخصيات ، وهي شخصيات انسانيه متمايزه القسمات والملامح ، الاّ أنها في كل عالم من عوالم الجاحظ القصصيه ، تبدو تتشابه جميعها في جانب ما من جوانب شخصياتها ، وهذا التشابه في الجانب الواحد يكون هو الرابط الذى يربط بينها ، ويعطي لعالمها القصصي أو المسرحي شيئا من خصوصيته المتميزه !

قد يكون هذا الجانب صفة مرذولة ، كالبخل مثلا ، كما في حكايات عالم البخلاء !

---

(١) اسمأد : ورم وانتفخ

(٢) ذرء : ذرء من خبر ، طرف منه ولم يتكامل ، وقيل هو الشيء اليسير من القول .(٣) الحيوان، ج٥ ، ص ٣٩٣ - ٣٩٦ .

وقد يكون تمردا على المجتمع وانحرافا عنه كالتلصص مثلا ، كما في حكايات عالم لصوص النهار وسراق الليل (١) ، وقد يكون المهنة المهينه كالكديه ، كما في حكايات حيل المكدين (٢)، أو المهنه الجليله كالتعليم مثلا ، كما في حكايات المعلمين !

وقد قدّر لحكايات البخلاء خاصه ، أن يعثر عليها الباحثون وأن تصل الى القراء ، فاذا هي عالم قصصي ساحر ،يصور البخل والبخلاء ، ويصلح كل الصلاحية للتمثيل !

واغلب الظن أنه لو قدّر لحكايات اللصوص والمكدين والمعلمين أن يعثر عليها ، لما كانت قصصيا أقل مستوى وصلاحيه للتمثيل من حكايات البخلاء !

فحكايات اللصوص مثلا يخبر الجاحظ عنها .أنها هي التي أغرته بوضع حكايات البخلاء ، فنجاح حكايات اللصوص بين القراء ، قد دفع ببعض المعجبين الى ان يطلب من الجاحظ ان يضع حكايات عن البخلاء على نسقها (٣) .

وقد توصل بعض الباحثين المحدثين - من خلال تعمقه في ادب الجاحظ - الى قناعه بأن حكايات اللصوص لا تقل في مستواها القصصي الفني عن حكايات البخلاء (٤) .

وأما حكايات المكدين فانها وان كانت مفقوده مثل حكايات اللصوص غير أن بعض اشارات القدماء اليها يوحي بأن منحاها الواقعي الاجتماعي الموغل لا يختلف عن منحى حكايات اللصوص ، فالبغدادى مثلا حين يعرض لكتاب اللصوص يقول عن الجاحظ : انه " قد علم به الفسقه وجوه السرقه" لكنه حين يعرض لكتاب المكدين ، يلاحظ أنه يعنف في هجومه على الجاحظ فيقول : ان له كتاب حيل المكدين والقحاب والكلاب واللاطه " ومعاني هذه الكتب لائقه به وبعفته واسرته " (٥) .

---

(١) انظر البخلاء ، ص ١ .

(٢) انظر كتاب " الفرق بين الفرق " للبغدادى ، ص ١٠٦ .

(٣) انظر - البخلاء ، ص ١

(٤) انظر دراسة طه الحاجرى حول كتاب اللصوص في البخلاء ، ص ٢٤٧ . وانظر ايضا - حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي للدكتور محمد رجب النجار ، ص ٤٥- ٤٦ (٥) الفرق بين الفرق ،ص ١٠٦ - تحقيق طه عبد الرؤوف سعد .

كذلك فان ما صوره الجاحظ عن عالم المكدين من خلال حكايته عن خالويه المكدى [1] ، يوحي بالمستوى القصصي الذى يمكن ان يكون في حكاياته عن المكدين !

واذا كان الجاحظ قد اثبت في كتاب الحيوان حكايه تصور حيله من حيل اللصوص توحي بالمنحى الذى اتبعه في كتابه " حيل اللصوص " [2] ـ فان البيهقي مثلا قد أورد عنه حكايه ممتازه تصور حيله من حيل المكدين ، ربما توحي بمنحى الكتاب المفقود ومستواه الفني :

" قال الجاحظ : سمعت شيخا من المكدين ، وقد التقى مع شاب منهم قريب العهد بالصناعه ، فسأله الشيخ عن حاله فقال :

لعن الله الكُديه ، ولعن اصحابها من صناعة ما أخسها ، وأقلها أنها ما علمت تخلق الوجه ، وتضع من الرجال ، وهل رأيت مكديا أفلح ؟!

قال(الجاحظ) : فرأيت الشيخ قد غضب والتفت اليه فقال :

ياهذا أقلل من الكلام ، فقد اكثرت ، مثلك لا يفلح ، لأنك محروم، ولم تستحكم بعد . وان للكديه رجالا ، فما لك ولهذا الكلام ؟!

ثم التفت فقال :

اسمعوا بالله يجيئنا كل نبطي قرنان ، وكل حائك صفعان ، وكل ضراط كشحان ، يتكلم سبعا في ثمان ، [3] اذا لم يصب احدهم يوما شيئا ، ثلب الصناعه ، ووقع فيها ، أو ما علمت أن الكديه صناعه شريفه ، وهي محببه لذيذه ، صاحبها في نعيم لا ينفد ، فهو على بريد الدنيا ، ومساحة الارض ، وخليفة ذى القرنين الذى بلغ المشرق والمغرب ، حيث ما حل لا يخاف البؤس ، يسير حيث يشاء ، ويأخذ اطايب كل بلده ، فهو النرسيان والهيرون بالكوفه ، ووقت الشبوط وقصب السكر بالبصره ، ووقت البرني والازاذ والرازقي والرمان والمرمر ببغداد ، وأيام التين والجوز الرطب بحلوان ، ووقت اللوز والرطب والسختيان والطبرزد بالجبل ، يأكل طيبات الارض ، فهو رخي البال ، حسن الحال ، لا يغتم لاهل ولا مال ، ولا دار ولا عقار ، حيث ما حل فعلفه طبلي ، أما والله لقد رأيتني وقد دخلت بعض بلدان الجبل ، ووقفت في مسجدها الاعظم ، وعليّ فوطه قد اتزرت بها ، وتعممت بحبل من ليف ، وبيدى عكازه من خشب الدفلي ، وقد اجتمع اليّ عالم من الناس ، كأني الحجاج بن يوسف على منبره ، وأنا أقول :

---

(١) مرت بنا الحكايه ، وانظر البخلاء ، ص ٤٦

(٢) مرت بنا الحكايه عند الحديث عن الكتاب ، وانظر الحيوان ، ج٣ ، ص ٤٠٩ .

(٣) لاحظ ان ثمة عبارات في الحكاية مسجوعة وانها بطبيعة مضمونها تذكر بالمقامات، فكأن الجاحظ قدسبق الى هذا الفن الادبي الذى تبلور وشاع بعده .

ياقـوم ! رجل من أهل الشام ، ثم من بلد يقال لها المصيصه ، من ابناء الغزاة ، والمرابطين في سبيل الله ، من ابناء الركاضه ، وحرسة الاسلام ، غزوت مع والدى اربع عشرة غزوه ، سبعا في البحر ، وسبعا في البر ، وغزوت مع الارمني ، قولوا : رحم الله أبا الحسن !

ومع عمر بن عبدالله قولوا : رحم الله أبا حفص ، وغزوت مع البطال بن الحسين والربرداق بن مدرك ، وحمدان بن أبي قطيفه ، وآخر من غزوت معه ، يازمان الخادم ، ودخلت قسطنطينيه ، وصليت في مسجد مسلمه ابن عبد الملك ، من سمع باسمي فقد سمع ، ومن لم يسمع فأنا اعرفه نفسي : أنا ابن الغزيل بن الركان المصيصي المعروف المشهور في جميع الثغور ، والضارب بالسيف والطاعن بالرمح ، سد من اسداد الاسلام ، نازل الملك على باب طرسوس ، فقتل الذرارى وسبى النساء وأخذ لنا ابنان ، وحملوا الى بلاد الروم ، فخرجت هاربا على وجهي ومعي كتب من التجار ، فقطع عليّ وقد استجرت بالله ثم بكم !

فان رأيتم أن تردوا ركنا من اركان الاسلام الى وطنه وبلده ، فوالله ما أتممت الكلام ، حتى انهالت علي الدراهم من كل جانب ، وانصرفت ومعي اكثر من مائة درهم ،

فوثب اليه شاب ، وقبّل رأسه وقال :

انت والله معلمّ الخير ، فجزاك الله عن اخوانك خيرا ".(١)

واما حكايات المعلمين ففيها يستوحي الجاحظ عالم معلمي الكتاتيب في زمنه ومجتمعه ، واصفا فيها ما كان عليه هؤلاء من جهل وغفله ، وعدم جداره بالمهنه الجليله ، مصورا باسلوبه القصصي الساخر بعض تصرفاتهم الغريبه ونوادرهم المضحكه !

وعلى الرغم من ان الكتاب لم يعثر عليه بعد ، فان ما أوردته منه بعض الكتب القديمه يوحي بمنحاه وبمستواه الفني ، ويلاحظ ان بعض الحكايات المورده لا يقل مستوى من الناحية القصصيه عن حكايات البخلاء مثلا .

كذلك يلمس الدارس فيه روح الجاحظ ، والسمات البارزه في اسلوبه القصصي، مثل سمة الترداد الواضحه في حكاياته عامه :

" قال الجاحظ : مررت بمعلم وهو يقرئ صبيا ، " واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه ، يابني لا تقصص رؤياك على اخوتك ، فيكيدوا

(١) المحاسن والمساوئ ، ج٢ ص ٢١٧، تصحيح محمدبدر النعساني، مطبعة السعاده بمصر- ١٩٠٦

لك كيدا واكيد كيدا " فقلت :

ويحك لقد ادخلت سورة في سوره !

فقال:نعم - عافاك الله - واذا كان أبوه يدخل شهرا في شهر فأنا ايضا ادخل سورة في سوره ولا آخذ شيئا ، ولا ابنه يتعلم شيئا"(١)

وقال الجاحظ : عبرت يوما على معلم كتاب ، فوجدته في هيئة حسنه ، وقماش مليح ، فقام الى واجلسني معه ، ففاتحته في القرآن فاذا هو ماهر ، ففاتحته في شيء من النحو ، فوجدته ماهرا ، ثم اشعار العرب واللغه ، فاذا به كامل في جميع ما يراد منه ، فقلت قد وجب علي تقطيع دفتر المعلمين ، فكنت كل قليل اتفقده ، وازوره ، قال : فأتيت بعض الايام الى زيارته فوجدت الكتاب مغلقا ، فسألت جيرانه فقالوا : مات عنده ميت ،

فقلت : اروح اعزيه ، فجئت الى بابه فطرقته ، فخرجت اليّ جاريه ، وقالت : ما تريد ؟

قلت : مولاك !

فقالت : مولاي جالس وحده في العزاء ، ما يعطي لاحد الطريق !

قلت : قولي له ، صديقك فلان يطلب يعزيك

فدخلت وخرجت وقالت : باسم الله ،

فعبرت اليه فاذا هوجالس وحده ،

فقلت : اعظم الله اجرك ، لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنه ، وهذا سبيل لا بد منه ، فعليك بالصبر .

ثم قلت : أهذا الذى توفي ولدك ؟

قال : لا

قلت : فوالدك ؟

قال : لا

قلت : فأخوك ؟ !

قال : لا

قلت : فمن ؟ !

قال : حبيبتي

---

(١) ابن حجه الحموى ، ثمرات الاوراق ، ص ٢٠٤ ، صححه وعلق عليه محمد ابو الفضل ابراهيم ، الطبعه الأولى ، الناشر مكتبة الخانجي بمصر - ١٩٧١ .

فقلت في نفسي ، هذا أول المناحس !

قلت له : سبحان الله تجد غيرها ، وتقع عينك على احسن منها .

فقال : وكأني بك وقد ظننت أني رأيتها ؟ !

فقلت في نفسي : هذه منحسه ثانيه ! قلت وكيف عشقت من لا رأيت ؟ !

فقال : اعلم أني كنت جالسا ، واذا رجل عابر يغني وهو يقول :

يا أم عمرو جزاك الله مكرمه

ردّى عليّ فؤادى أينما كانا

فقلت في نفسي : لولا ان هذه أم عمرو ما في الدنيا مثلها ، ما كان الشعراء يتغزلون فيها .

فلما كان بعد يومين ، عبر عليّ ذلك الرجل ، وهو يغني ويقول :

اذا ذهب الحمار بأم عمرو

فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت ، فحزنت عليها ، وقعدت في العزاء منذ ثلاثة ايام .

قال الجاحظ : فعادت عزيمتي ، وقويت على كتابة الدفتر بحكاية أم عمرو .. " (١) .

---

(١) ابن حجه الحموى ، ثمرات الاوراق في المحاضرات ، على هامش كتاب المستطرف للابشيهي ، ج٢ ، ص ١٥٧ . الطبعه الاخيره - دار احياء التراث العربي ببيروت .(د.ت)

واورد الدكتور شوقي ضيف في كتابه العصر العباسي الثاني الحكايه بالفاظ تختلف قليلا وعقب عليها بقوله : " كأننا في مسرح هزلي، نفضي فيه الى الضحك ، وكلما مضينا في النادره أغربنا فيه لا نتوقف، وكأنما اختل توازننا ، أو كأنما نندفع في انحدار بقوه ، ولا نملك الوقوف او السيطره على انفسنا من هذا السيل الجارف للغفله المجسمه وما يطوى من حمق فظيع " .

- انظر كتاب العصر العباسي الثاني ، ص ٦٠٩ - ٦١٠ ط ٢ - دار المعارف بمصر - القاهره ١٩٧٥ .

وبعد ، فان جهد الجاحظ القصصي الذى بين يدى الدارس اليوم يكشف عن موهبه ابداعيه ، لم تكن قادره على خلق العالم القصصي الخاص من خلال شخصيات متشابهه ، وحكايات مترابطه فقط ، وانما كانت قادرة على ابتكار الشكل الفني الفريد للحكايه الطويله ايضا ، كما في حكاية التربيع والتدوير.

وعلى الرغم من أن هذا الجهد القصصي ينال الاعجاب في الغالب ، غير أننا لن نقدره حق قدره الا اذا تذكرنا ونحن نقرؤه ، أو ندرسه ، بأنه جهد مبكر رائد ، قد جاء قبل الف عام أو يزيد .

============================

============

الخاتمــــــــــــــــة

لم تكن الحكاية في البدايات الأولى للأدب العربي فنا مستقلا ، يقصد اليه الأدباء ، بل كانت تجد متنفسا لها من خلال اعمال القصاص والأخباريين والمترجمين ، كما لاحظنا ـ حتى ظهر سهل بن هارون ، فكان أول أديب كبير جاهر بابداع الحكاية الخرافية من خلال كتب خاصه .

ثم ظهر الجاحظ ، فاذا هو يتمتع بموهبة قصصية متفوقه ، يتجلى ذلك حين يتاح للدارس ان يقارن بين حكاية عالجها هو، وعالجها ايضا أديب آخر كأبن قتيبه أو أبي الفرج الاصفهاني على نحو ما رأينا .

ولما كانت تغلب على الجاحظ رؤية العالم والمفكر المعتزلي فقد تحول بالحكايه عن مسارها الخرافي ، واتجه بها نحو واقع مجتمعه ، فاستوحاه على اختلاف مناحيه ، وصور من خلال حكاياته أهم القضايا الفكرية والسياسية في زمنه ، وطرق في جراءة ادق الموضوعات الاجتماعية كالجنس .

ويبدو على الجاحظ في هذا الواقع الذى استوحاه وصوره أنه لم يكن منه دائما حياديا أو غامضا ، أو عابثا ، لا همّ له الا الضحك والاضحاك ، بل انه في بعض الحكايات يشعر القارئ بموقفه الناقد أو المتعاطف ، سواء أكان ذلك ايحاء أم مباشره ، كما لاحظنا في بعض حكاياته الاجتماعية والفكرية والسياسية والجنسية .

كذلك يلاحظ ان بناء الحكاية عند الجاحظ لم يكن يتم في الغالب اتفاقا ، او عفو الخاطر ، وانما كان الجاحظ يصدر فيه عن اساليب معينه ، كان يفقهها ، ويحبذها ، ويقصد اليها ، وقد تبلورت هذه الاساليب لديه من وحي الموهبة والعبقرية ، ومن خلال امعان النظر الثاقب ، والتجربة الطويلة ، واكثر ما يتضح ذلك عند

دراسة الحبكة ورسم الشخصيات ولغة السرد والحوار - على نحو ما رأينا - .

وعلى الرغم من ان الجاحظ لم يكن يتقيد بقواعد قصصية متعارف عليها ، أو يحتذى نماذج معينه ، فإنه استطاع ان يصل بالحكاية الى مستوى رفيع ، بفضل عبقريته وموهبته ، حتى إن بعض حكاياته القصيرة يكاد تتكامل فيه العناصر القصصية المختلفة .

بيد ان جهد الجاحظ القصصي لم يقتصر على وضع الحكاية القصيرة بل تجاوز ذلك الى ابتكار اشكال متنوعه من الاعمال القصصية الطويلة ، كما لاحظنا في حكاية التربيع والتدوير وحكايات البخلاء مثلا .

ولأن قسما كبيرا من جهد الجاحظ القصصي لا يزال مفقودا نحو حكاياته عن اللصوص وعن المعلمين ، فان الدارس لا يستطيع ان يقول كلمته النهائية في مدى جهده كله ، وان كان جهده الذى بين ايدينا اليوم يؤهله في جداره ايكون واحدا من رواد الحكاية الكبار في أدبنا العربي .

ومن جهة أخرى ، يمكننا القول : ان الجاحظ في اغلب الظن هو الرائد الاول في الأدب العربي الذى ادار حكايات فنية حول المكدين ، فصوّر احوالهم في زمانه وحيلهم وفصّل انواعهم ، كما رأينا في حكاية " خالويه المكدى " مثلا .

ونحن في حكاية ابن الغزيل بن الركان المصيصي خاصة ، رأينا كيف ان اسلوبه قد اخذ يميل الى السجع في وضوح ، فقد بدت الحكاية باسلوبها وبطبيعة موضوعها اقرب الى روح المقامة : وهي الفن القصصي الذى اشتهر بعيد الجاحظ ، فاتضحت ملامحه وازدهر على ايدى بديع الزمان الهمذاني والحريرى وآخرين .

ولعلّنا لا ننسى - ونحن نقول ذلك - ان للجاحظ كتابا قصصيا بعنوان المكدين ، لم نعثر على حكاياته بعد ، وان وصل الينا بعضها عن طريق سواه من الأدباء ، من امثال البيهقي وغيره .

Conclusion

The Fable in the early beginnings of Arabic Litera - ture was not an independent art which men of letters aimed at,but it found an outlet through the works of storytellers, narrators and translators - as we have seen - until Sahl Ibn Haroun appeared . He was the first important man of let -ters who openly initiated fables through special books.

Then came Al-Jahiz who had an outstanding narrative talent, This is clearly demonstrated when the student compares a story treated by Al-Jahiz with the same story tackled by another writer like Ibn Qutaibah or Abulfaraj Al-Asbahani as we have seen.

As the Al-Jahiz looks mainly through the perspective of the rationalist (Mutazilite) scientist and thinker , he diverted the fable from its mythological course and directed it to wards the realities of his society , seeking inspiration from all aspects of that society . Through his tales he depicted the most important intellectual and political issues of his time and fearlessby approached the most sensitive social topics like sex.

It can be noticed that Al-Jahiz ,in the real situation from which he drew his inspiration and pictures, was not a neutral,obscure or careless person whose only aim was just to laugh and make others laugh . In Some tales the reader can feel his critical or sympathetic attitude whether directly or by suggestion as can be noticed from his social, intellectual ,political and sexual tales .

It is also noteworthy that the structure of the tale by Al-Jahiz did not come by chance or on the spur of the moment but was done according to certain styles which Al-Jahiz understood, approved and intended . These styles came to Al-Jahiz through talent, genius ,insight and long experience, which is mostly evident when studying the plot, the delineation of characters, the language of narration and dialogue as we have noticed .

Although Al-Jahiz did not stick to conventional story rules, or follow certain patterns, he was able to raise the fable to a high standard ,by virtue ofhis talents and genius. In fact, the various story elements are integrated in some of short tales .

Al-Jahiz's narrative attempts, however, were not confined to writing short tales, but he also initiated various forms of long stories as we have seen his " Squaring and Circumscription Tale " and the stories about niggards.

Because a considerable part of Al-Jahiz's story attempts is still missing like his stories about thieves school teachers and charlatan beggars, the student can't say his final word about the entire effort of Al-Jahiz although his achievements which we have now with us entitle him to be one of the great forerunners of the fable in our Arabic Literature on his own ments .

======================

========

جـــدول يبين مواضع حكايات الجاحظ في كتبـــه *

الرقم	اسـم الكتـاب	الجزء	رقم صفحة الحكايـــة
٠١	البخـــلاء (تحقيق طه الحاجرى)	-	الكتاب في معظمه حكايـات
٠٢	البرصان والعرجان والعميان والحولان (تحقيق محمد مرسي الخولي)	-	ص ٦٩ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ .
٠٣	البيـان والتبيين (تحقيق عبدالسلام هارون)	الاول :	٩٥ ، ٣٧٩ ، ٣٩٣ .
		الثاني :	٢٢٥ ، ٢٣٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٣٢٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ .
		الثالث :	٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ .
		الرابع :	٧ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ٢٤ ، ٣٤ ، ٨٩ ، ٩٨ ، ٩٩ .
٠٤	التربيع والتدويـــر (تحقيق شارل بـلا)	-	الكتاب كله حكاية واحدة طويلة .

* اقتصرت الاحصائيـة على ابرز حكايـات الجاحـظ الفنيـة في كتبه الصحيحة النسبة اليـه . وأما الملح القصيرة الـتي لا تتبدى فيها الملامح القصصيـة فقد أهملـت .

جدول يبين مواضع حكايات الجاحظ في كتبه

الرقم	اسم الكتاب	الجزء	رقم صفحة الحكاية
٠٥	الحيوان (تحقيق عبدالسلام هارون)	الاول	ص : ١١١ ، ٢١ ، ١١٥ ، ١٢٦ ، ١٤٦ ، ١٧٢ ، ٢٨٩ .
		الثاني	١٤ ، ٧٥ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢١٧ ، ٢٣١ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٧٥ .
		الثالث	١١ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٢٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٨٥ ، ٣٩٩ ، ٤٥١ ، ٤٦٩ .
		الرابع	١٤٦ ، ١٤٧ ، ٢٥١ ، ٣٦٨ .
		الخامس	٢٥٠ ، ٣١٣ ، ٣٦٧ ، ٣٨١ ، ٣٩٣ ، ٤٦٨ ، ٤٧٥ .
		السادس	١١٩ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٧٠ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، .
		السابع	١٣٦ .
٠٦	رسائل الجاحظ (تحقيق عبدالسلام هارون)	الاول	مناقب الاتراك : ٣٩ _ ٤١ ، ٦٠ _ ٦١ ، ٧٧ _ ٨١ ، ٨٤
		الثاني	كتاب الحجاب : ٤٣ _ ٤٤ كتاب القيان : ١٤٩ _ ١٥١
٠٧	القول في البغال (تحقيق شارل بلا)		٢٣ ، ٣٣ _ ٣٤ ، ٥٥ _ ٥٦ ، ٩٩ _ ١٠٠ ١٢٦ _ ١٢٧ ، ١٢٧ .
٠٨	مفاخرة الجوارى والغلمان (تحقيق شارل بلا)		٥٦ _ ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٨ _ ٥٩ ، ٥٩ _ ٦٠ ، ٦٠ ، ٦١ _ ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ .

فهرس
المصادر والمراجع

أ - المصادر

* الابشيهي (شهاب الدين أبو الفتح محمد بن احمد) ، المستطرف في كل فن مستظرف ، دار احياء التراث العربي - بيروت (د٠ت) ٠

* ابن الأثير (عزالدين أبو الحسن علي بن محمد) ، الكامل في التاريخ ، نشر ادارة الطباعة المنيرية - القاهرة - ١٣٥٧ هـ ٠

* الاصفهاني (أبو الفرج) ، الأغاني ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر - بيروت - (د٠ت) ٠

* البغدادي (أبو منصور عبد القاهر بن طاهر) ، الفرق بين الفرق ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد - الناشر مؤسسة الحلبي للنشر - القاهره - (د٠ت) ٠

* بيدبا (الفيلسوف الهندي) ، كليله ودمنه ، ترجمة عبد الله ابن المقفع - دار العودة - بيروت (د٠ت)٠

* البيهقي (ابراهيم بن محمد) ، مطبعة السعاده - القاهره - ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٦ م ٠

* التوحيدي (أبو حيان) :

* الامتاع والمؤانسه - صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين - المكتبة العصرية - بيروت - صيدا - ١٩٥٣ ٠

* البصائر والذخائر ، تحقيق وتعليق الدكتور ابراهيم الكيلاني - مكتبة اطلس ومطبعة الانشاء - دمشق (د٠ت) ٠

* مثالب الوزيرين - تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني - نشر وتوزيع دار الفكر - دمشق (د٠ت)٠

* الجاحظ (أبو عثمان) :

* الأمل والمأمول ، تحقيق رمضان ششن - الطبعة الأولى ، دار الكتاب الجديد - دمشق - ١٩٦٨ ٠

* البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، الطبعه السادسه ، دار المعارف - القاهره - ١٩٨١ ٠

* البرصان والعرجان والعميان والحولان - الطبعة الثانية ، تحقيق د. محمد مرسي الخولي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٨١ .

* البيان والتبيين ، الناشر مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهره - ١٩٤٨ .

* التربيع والتدوير ، نشر وتحقيق شارل بلا ، المعهد الفرنسي - دمشق - ١٩٥٥ .

* الحيوان ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون - مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - القاهره ١٩٣٨

* رسائل الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون - الناشر مكتبة الخانجي - القاهره - ١٩٦٤ .

* المحاسن والاضداد ، الشركة اللبنانية للكتاب للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - ١٩٦٩ .

* مفاخرة الجواري والغلمان ، تحقيق شارل بلا - الطبعة الأولى - دار المكشوف - بيروت - ١٩٥٧ .

* الجمحي (محمد بن سلام) ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود شاكر - مطبعة المدني - القاهره (د.ت).

* ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي) :

* اخبار الأذكياء ، تحقيق محمد مرسي الخولي - معهد المخطوطات جامعة الدول العربية - القاهره - ١٩٧٠ .

* اخبار الحمقى والمغفلين ، مكتبة الغزالي - بيروت - لبنان - (د. ت) .

* الحموى (ابن حجه تقي الدين ابو بكر بن علي) :

* ثمرات الاوراق ، الطبعة الاولى - صححه وعلق عليه محمد أبو الفضل ابراهيم - الناشر مكتبة الخانجي - القاهره - ١٩٧١ .

* ثمرات الاوراق في المحاضرات على هامش المستطرف للابشيهي - دار احياء التراث العربي - بيروت - لبنان (د. ت).

* الحموي (ياقوت) ، معجم الادباء - دار احياء التراث العربي بيروت - لبنان (د. ت).

* ابن خلكان (شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد) ، وفيات الاعيان ، تحقيق الدكتور احسان عباس - دار صادر - بيروت - ١٩٧٠ .

* الذهبي (أبو عبد الله) ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، تحقيق علي محمد البجاوي - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - (د.ت).

* السمعاني (ابو سعيد عبد الكريم بن محمد) ، الانساب ، تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني - الطبعة الثانية - الناشر محمد أمين دمج - بيروت - ١٩٨٠ .

* سهل بن هارون ، النمر والثعلب ، حققه وقدم له وترجمه الى الفرنسية عبد القادر المهيري - منشورات الجامعة التونسية - تونس - 1973 .

* الشهرستاني (ابو الفتح) ، الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد الكيلاني - الطبعة الثانية - دار المعرفة - بيروت - ١٩٧٥.

* الضبي (ابو العباس المفضل بن محمد) ، تقديم وتعليق الدكتور احسان عباس - دار الرائد العربي - بيروت - ١٩٨١ .

* الطبري (ابو جعفر محمد بن جرير) ، تاريخ الأمم ، مراجعة نخبة من العلماء - مطبعة الاستقامة - القاهرة - ١٩٣٩ .

* ابن عبد ربه (شهاب الدين احمد بن محمد) ، العقد الفريد - الطبعة الثانية - الناشر المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - ١٩٥٣ .

* عبيد الله بن حسان ، فصول مختارة من كتب الجاحظ على هامش كتاب الكامل للمبرد - الطبعة الاولى - طبعة التقدم العلمية بدرب الدليل بمصر المحمية - سنة ١٣٢٣ هـ .

* الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب) ، القاموس المحيط ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان (د .ت).

* ابن قتيبه (ابو محمد عبدالله بن مسلم) :
* تأويل مختلف الحديث - صححه وضبطه محمد زهري النجار - دار الجيل - بيروت - ١٩٧٣ .
* عيون الاخبار - وزارة الثقافة والارشاد القومي - القاهرة - ١٩٦٣ .

* المبرد (ابو العباس محمد بن يزيد) ، تحقيق لجنة من الاساتذة - الناشر مكتبة المعارف - بيروت - ١٩٧٥ .

* المسعودي (ابو الحسن علي بن الحسين) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - منشورات كتاب التحرير - القاهرة - ١٩٦٧.

* الميداني (ابو الفضل احمد بن محمد النيسابوري) ، مجمع الامثال تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ١٩٥٥.

* ابن النديم ، الفهرست - تحقيق رضا - تجدد ، طهران - ١٩٧٠ .

* ابن هشام الانصاري ، مغني اللبيب عن كلام الاعاريب تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة المدني - القاهرة - (د . ت) .

* الهمذاني (بديع الزمان) ، مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني - شرح الشيخ محمد عبده - المطبعه الكاثوليكية للاباء اليسوعيين - بيروت - ١٨٨٩ .

ب - المراجع

* امين (احمد) :
* ضحى الاسلام ، الطبعة العاشرة - دار الكتاب العربي - بيروت (د.ت)
* فجر الاسلام ، الطبعة العاشرة - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٩٦٩ .

* فيض الخاطر ، الطبعة الثالثة - ملتزم الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦١ .

* باقازى (عبدالله احمد) ، القصة في أدب الجاحظ ، الطبعة الاولى، الناشر تهامه - جده - ١٩٨٢ .

* بدوى (الدكتور امين عبدالمجيد) ، القصة في الادب الفارسي ، دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٤.

* البستاني (بطرس) ، ادباء العرب في الاعصر العباسية - دار مارون عبود - بيروت - ١٩٧٩ .

* بلا (شارل) ، اصالة الجاحظ ، نشر دار الكتاب للتأليف والترجمة والنشر - الرباط - ١٩٦١ - ١٩٦٢ .

* بلبع (الدكتور عبدالحكيم) :

* ادب المعتزلة : ملتزمة الطبع والنشر مكتبة نهضة مصر بالفجاله - القاهرة (د. ت)

* النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ، الطبعة الثالثة - الناشر مكتبة وهبه - القاهرة - ١٩٧٥ .

* تيمور (محمود) ، دراسات في القصة والمسرح - ملتزم الطبع والنشر مكتبة الاداب ومطبعتها بالمجاميز - القاهرة - (د. ت) .

* جبر (الدكتور جميل) ، الجاحظ في حياته وادبه وفكره - دار الكتاب اللبناني - بيروت - ١٩٧٤ .

* الجنبلاطي (علي) ، وعبدالمنعم قنديل ، بخلاء الجاحظ في قصص - ملتزم الطبع والنشر مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة (د. ت) .

* الحاجرى (الدكتور طه) ، الجاحظ حياته وآثاره ، الطبعة الثانيه - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٦٩ .

* حسين (الدكتور طه) ، في الادب الجاهلي - الطبعة العاشره - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٦٩ .

* الحسيني (الدكتور اسحق) ، ابن قتيبه - ترجمة الدكتور هاشم ياغي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨٠ .

* الحكيم (توفيق) ، فن الأدب ، مكتبة الادب ومطبعتها بالجماميز - القاهرة - ١٩٥٢ .

* حمزه (الدكتور عبداللطيف) ، ابن المقفع ، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي - القاهره (د . ت)

* الحوفي (الدكتور احمد محمد) :

* الجاحظ ، الطبعة الاولى - دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٠ .

* الفكاهه في الأدب ، دار نهضة مصر ، القاهره - ١٩٦٦ .

* خفاجي (محمد عبدالمنعم) ، أبو عثمان الجاحظ ، الطبعة الاولى دار الطباعه المحمديه بالازهر - القاهره (د. ت) .

* خليفات (د. عوض) ، نشأة الحركة الاباضية - مطابع دار الشعب - عمان - ١٩٧٨ .

* خليف (د. يوسف) ، الحب المثالي - دار المعارف بمصر - القاهرة - ابريل - ١٩٦١ م.

* خليل (د. السيد احمد) ، الاتجاهات الادبيه في العصر العباسي - الطبعة الثانية - دار مكتبة الجامعة العربية - بيروت (د. ت) .

* ديرلاين (فردريش فون) ، الحكاية الخرافية ، ترجمة الدكتورة نبيلة ابراهيم - مراجعة د. عزالدين اسماعيل ، الطبعة الاولى - دار القلم - بيروت - ١٩٧٣ .

* زهران (محمد)،قصص من القرآن - الناشر مكتبة غريب - القاهرة - ١٩٧٦ .

* زكي (د. احمد كمال) الحياة الادبية في البصرة الى نهاية القرن الثاني الهجري - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٧١ .

* السعافين (د. ابراهيم) ، تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، الجمهورية العراقية ١٩٨٠ .

* سعد الدين (ليلى حسن) كليله ودمنه في الادب العربي ، الناشر مكتبة الرسالة - عمان (د. ت) .

* سعد (فاروق) ، مع البخلاء ، الشركة اللبنانية للكتاب - بيروت ١٩٧١ .

* سلام (د. محمد زغلول)،دراسات في القصة العربية الحديثة ، الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية - الاسكندرية (د. ت) .

* السمره (د. محمود) ، في النقد الادبي - الطبعة الاولى - الدار المتحدة للطباعة والنشر - بيروت - ١٩٧٤ .

* السندوبي (حسن) ، أدب الجاحظ ، الطبعة الاولى - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - ١٩٣١ .

* الشكعة (د. مصطفى) :

* اسلام بلا مذاهب ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت ، (د. ت) .

* رحلة الشعر من الأموية الى العباسية ، الطبعة الاولى - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٧١ .

* ضيف (د. شوقي) :

* العصر العباسي الثاني ، الطبعة الثانية - دار المعارف بمصر - القاهره - ١٩٧٥ .

* الفن ومذاهبه في النثر العربي ، الطبعة الثانية ، منشورات مكتبة الاندلس - بيروت - ١٩٥٦ .

* العبادي (د. احمد مختار) ، في التاريخ العباسي والاندلسي - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٧١ .

* عباس (د. احسان) :

* ابو حيان التوحيدي - دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت - ١٩٥٦

* تاريخ النقد الادبي عند العرب ، الطبعة الثانية - دار الثقافة - بيروت - ١٩٧٨ .

* عبد الله (د. محمد حسن) ، الحب في التراث العربي ، سلسلة عالم المعرفة رقم (٤٥) المجلس الوطني للثقافة والفنون والادب - الكويت - ١٩٨١ .

* عبود (مارون) ، أدب العرب ، الطبعة الثالثة - دار الثقافة - بيروت - ١٩٧٩.

* عتيق (د. عبد العزيز) ، علم البيان - الطبعة الثانية - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٧٠ .

* عفيفي (د. محمد الصادق) ، نموذج البخيل في الادب العربي والادب الفرنسي - دار الفكر - بيروت - ١٩٧١ .

* العقاد (عباس محمود) ، دراسات في المذاهب الادبية والاجتماعية ، المكتبة العصرية - بيروت - ١٩٦٧ .

* ابو علي (الدكتور محمد بركات حمدى) ، سخرية الجاحظ من بخلائه - مكتبة الاقصى - عمان - ١٩٧٤.

* علي (محمد كرد) ، امراء البيان ، الطبعة الثالثة - دار الامانة - دمشق - ١٩٦٩ .

* الفن ومذاهبه في النثر العربي ، الطبعة الثانية ، منشورات مكتبة الاندلس - بيروت - ١٩٥٦ .

* العبادى (د. احمد مختار) ، في التاريخ العباسي والاندلسي - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٧١ .

* عباس (د. احسان) :

* ابو حيان التوحيدى - دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت - ١٩٥٦

* تاريخ النقد الادبي عند العرب ، الطبعة الثانية - دار الثقافة - بيروت - ١٩٧٨ .

* عبد الله (د. محمد حسن) ، الحب في التراث العربي ، سلسلة عالم المعرفة رقم (٤٥) المجلس الوطني للثقافة والفنون والادب - الكويت - ١٩٨١ .

* عبود (مارون) ، أدب العرب ، الطبعة الثالثة - دار الثقافة - بيروت - ١٩٧٩ .

* عتيق (د. عبد العزيز) ، علم البيان - الطبعة الثانية - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٧٠ .

* عفيفي (د. محمد الصادق) ، نموذج البخيل في الادب العربي والادب الفرنسي - دار الفكر - بيروت - ١٩٧١ .

* العقاد (عباس محمود) ، دراسات في المذاهب الادبية والاجتماعية ، المكتبة العصرية - بيروت - ١٩٦٧ .

* ابو علي (الدكتور محمد بركات حمدى) ، سخرية الجاحظ من بخلائه - مكتبة الاقصى - عمان - ١٩٧٤ .

* علي (محمد كرد) ، امراء البيان ، الطبعة الثالثة - دار الامانة - دمشق - ١٩٦٩ .

* غريب (جورج) ، الجاحظ دراسة عامة - نشر وتوزيع دار الثقافة - بيروت - لبنان - (د. ت) .

* فروخ (د. عمر) :

* تاريخ الادب العربي ، الطبعة الثانية - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٧٥.

* العرب في حضارتهم وثقافتهم - الطبعة الثانية - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٦٨.

* فورستر (أ. م) ، أركان القصة - ترجمة كمال عياد جاد ، راجعه حسن محمود - الناشر دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع - القاهرة - ١٩٦٠.

* قطب (سيد) ، التصوير الفني في القرآن ، الطبعة الشرعية الرابعة - دار الشروق - بيروت - ١٩٧٨.

* كفافي (د. محمد عبد السلام)، في الادب المقارن ، الطبعة الاولى - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - ١٩٧٢.

* كيلاني (د. ابراهيم) ، أبو حيان التوحيدي - دار المعارف بمصر - القاهرة -١٩٥٧.

* المبارك (محمد) ، الجاحظ وفن القصص في كتاب البخلاء - مطبعة الترقي - دمشق - ١٩٤٠.

* محمود (د. علي عبد الحليم) ، القصة العربية في العصر الجاهلي - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٧٥.

* مردم (خليل بك) ، الجاحظ - مكتبة عرفه - دمشق - ١٩٣٠.

* مريدن (د. عزيزه) ، القصة والرواية - دار الفكر - دمشق - ١٩٨٠.

* المقدسي (انيس) ، تطور الاساليب النثرية في الادب العربي - الطبعة الرابعة - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٥٦.

* أبو ملحم (علي) ، في الادب وفنونه - المطبعة العصرية للطباعة والنشر - بيروت - ١٩٧٠.

* النجار (د. محمد رجب) ، حكايات الشطار والعيارين ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب - الكويت - ١٩٨١.

* نجم (د. محمد يوسف) ، فن القصة - الطبعة الخامسة - نشر وتوزيع دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٦ .

* نجم (د. وديعه طه) ، الجاحظ ، منشورات دار الجاحظ للنشر - بغداد - ١٩٨٢ .

* شقره (التهامي) ، سيكولوجية القصة في القرآن ، الشركة التونسية للتوزيع - تونس -(د. ت) .

* هلال (د. محمد غنيمي) ، النقد الأدبي العام ، الناشر دار العودة - بيروت - ١٩٧٣.

* اليافي (د. عبدالكريم) ، دراسات فنية في الادب العربي ، الطبعة الثانية - وزارة الثقافة والارشاد القومي - دمشق - ١٩٧٢.

د - البحوث والمقالات

* ابراهيم (الدكتور زكريا) ، الفكاهة عند أبي حيان التوحيدى - مجلة العربي الكويتية - العدد (٧٦) - الكويت - آذار - ١٩٦٥ .

* احمد (احمد عبدالرحيم) ، الامثال العربية ، مجلة العربي الكويتية - العدد (١٩١) - الكويت - اكتوبر ١٩٧٤ .

* الأمين (حسن) ، جعيفران الموسوس ، مجلة العربي الكويتية - العدد (٨٩) - الكويت ، ابريل ١٩٦٦ .

* التونسي (محمد خليفه) ، المعرفة الانسانية بين الرواية شفويا والتدوين كتابيا - مجلة العربي الكويتية - عدد (٢٨٧) - الكويت - اكتوبر - ١٩٨٢ .

* شلش (علي) ، بصمات القصة العربية على الانتاج الادبي الاوروبي ، مجلة العربي العدد (٢٨٧) - الكويت - اكتوبر - ١٩٨٢.

* شوشه (فاروق) ، الجاحظ ولغة الجماهير ، مجلة العربي الكويتية ، العدد (١٠٦) - الكويت - نوفمبر - ١٩٧١.

* ضيف (الدكتور شوقي) ، نقد الآثار الادبية عمل شاق ، مجلة العربي الكويتية ، العدد (٦) - الكويت - آذار - ١٩٥٩.

* الطعمه (عدنان محمد) ، روضة الياسمين فيمن ترجم للجاحظ من الاقدمين - مجلة المورد - العدد الرابع (عدد خاص عن الجاحظ)- المجلد السابع - وزارة الثقافة والفنون - بغداد (١٩٧٨م).

* عاقل (الدكتور فاخر) ، التربية الجنسية ، مجلة العربي الكويتية - العدد (١١٢) - الكويت ، مارس ١٩٦٨ .

* عماره (الدكتور محمد) ، الشك المنهجي عند الجاحظ ، مجلة العربي - العدد (٢٢٧) ، الكويت - اكتوبر - ١٩٧٧ .

* فوزى (د. حسين) ، بين العلم والفن ، محاضر الموسم الثقافي الرابع لجامعة بيروت العربية - بيروت - ١٩٦٤.

* فيكتور شلحت اليسوعي ، فن التعبير في أسلوب الجاحظ - مجلة المعرفة - السنة الثالثة - العدد الحادى والثلاثون - دمشق - ١٩٦٤ .

==============================

فهرس البحث

الصفحـــــــــة

==============================

==============



نبذة عن الكاتب
الالدكتور توفيق استاذ ابو الرب

* ولد الدكتور توفيق أبو الرب في بلدة كفرة / قضاء بيسان في فلسطين عام ١٩٤٧م .
* هاجر أهله بعد النكبة إلى مدينة إربد شمال الأردن واستقروا فيها.
* أنهى تعليمه الثانوي في مدرسة حسن كامل الصباح عام ١٩٦٦م .
* حصل على درجة الليسانس في اللغة العربية من جامعة بيروت العربية .
* حصل على الماجستير في الأدب العربي من جامعة اليرموك .
* حصل على شهادة الدكتوراة في الأدب العربي من الجامعة الأردنية عام ١٩٨٨م .
* عمل مدرسا في مدارس وزارة التربية والتعليم الأردنية ثم مدرسا في كلية حوارة وكلية تأهيل المعلمين العالية .
* عمل أستاذا ورئيسا لقسم اللغة العربية في جامعة إربد الأهلية.
* صدر له حوالي ١٧ كتابا في الشعر والرواية والنقد ومنها : دراسات في الفلكلور الأردني ، قراءات في الأدب الأردني ، طوبى للمتسلقين ، محاورات طه حسين ،حكايات جندب اليعربي ، حكايات حمدي الإربدي ، أوبريت صرخة القدس .
* الدكتور توفيق شخصية موسوعية فهو أكاديمي وقاص وروائي وشاعر وناقد .
* عضو رابطة الكتاب الأردنيين منذ تأسيسها .
* توفي في إربد عام ٢٠٢١ م .

رحمه الله وغفر له.

